عالم المعرفة

5

العلم ومشكلات الإنسان المعاصر

تأليف
زهير الكرمي

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في فبراير2000 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

5

العلم ومشكلات الإنسان المعاصر

تأليف: زهيرا الكرمي

مايو 1978

المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

المحتوى

مقدمه المؤلف

الانسان أثمن ما في الوجود، غير أنه قلما يتصرف في ضوء هذه الحقيقة، وينجم عن ذلك مشكلات بدأت تتزايد وتتفاعل حتى أصبحت مصدر تهديد حقيقي لحياة الإنسان على هذا الكوكب.

وأود أن أعترف مقدمة بأنني لم أحاول الاحاطة بكل مشكلات الانسان المعاصرة أو المستقبلة فذلك يحتاج إلى سلسلة كاملة من المؤلفات... وقد تعمدت أن أقتصر على المشكلات التي يحاول العلم إيجاد حلول لها، ولذا فإن القارئ لن يجد في هذا الكتاب أيا من المشكلات السياسية أو الايديولوجية أو الأخلاقية الى آخر ما هنالك، بالرغم من أني على يقين من أن الاسلوب العلمي في التفكير والعلم هما أفضل وسيلة متاحة للانسان لعلاج هذه المشكلات.

كما أود أن أنوه بأن جزءا من الباب الرابع كان موضوع محاضرة القيت في الموسم الثقافي لوزارة التربية في الكويت سنة وأن جزءا من الباب الثاني كان موضوع بحث نشر في مجلة الخفجي. كما أن كثيرا من آرائي في مواضع متعددة من الكتاب كانت قد ذكرت في مناسبات مختلفة في برنامجي التلفزيوني - العلم والحياة.

وأخيراً لا آخرا أرجو أن أستميح القارئ العذر فيما يجد من هنا وأخطاء فلست أدّعي الكمال. والله من وراء القصد.

زهير الكرمي

تقديم

الانسان، خليفة الله في الأرض، مخلوق مليء بالمتناقضات. فهو وإن لم يكن أقوى المخلوقات عضلات ولا أحدها بصرا ولا أرهفها سمعا ولا أدقها شما ولمسا وذوقا الا أنه يتميز عنها جميعا بشكل جعله يسيطر عليها ويسخرها لمنفعته وخدمته، كما استطاع أن يسيطر على عناصر بيئته الاخرى سيطرة لم يجاره فيها أي من المخلوقات الأخرى.

وتتركز الخصائص المميزة - لا العامة - للإنسان في كبر حجم دماغه وامكانات هذا الدماغ - مما جعله قادرا على التجريد والتخيل والابداع وكثير غير ذلك، وفي انتصاب قامته - مما حرر نظره من الرؤية في مستوى الأرض فقط، كبقية الحيوانات التي تسير على أربع، وجعله ينطلق في الآفاق المختلفة وفي السماء من فوقه، وفي عدم تخصص يديه وإمكان مقابلة الأصبع الابهام لكل أصبع من الاصابع الأربع الأخرى، مع تحرر يديه، نتيجة انتصاب قامته، من السير على الأرض أو التعلق بالاغصان - مما جعله قادرا على القيام بأعمال دققة بيديه ليس أقلها شأنا امساك القلم والكتابة وصنع الآلات الدقيقة وتركيبها والعزف على الآلات الموسيقية.

وينبع كثير من تناقضات الانسان من عدم فهمه لنفسه وامكاناته فهما حقيقيا. ذلك أن خصائص

الانسان المميزة وقدراته الكبيرة، بالمقارنة بغيره من المخلوقات جعلته مخلوقا مغرورا الى حدود بعيدة، مما جعل تقويمه لنفسه وفهمه لها غير سليمين ولا واضحين.

وفي اعتقادنا أن الركائز التالية تشكل اسسا هامة لفهم الانسان نفسه وتعرفه على حقيقة امكاناته:

أولا: ان الانسان مخلوق حي كبقية المخلوقات مرتبط بهذه الكرة الارضية، وارتباطه هذا له أثر في حجمه - ذلك أن للجاذبية الارضية وقوة عضلاته علاقة واضحة متبادلة في تقرير المدى الذي يمكن أن ينمو اليه حجما ووزنا، بحيث يكون الحجم والوزن مناسبين للحركة على سطح الارض بالشكل الذي يتحركه الانسان وهو شكل يعتبر ناجحا بالمقاييس الحيوية. ولعل ما رأينا وعرفنا من اضطراب حركة رواد الفضاء الذين نزلوا على سطح القمر لدليل على عدم تناسب وزن الانسان وقوة عضلات تمع جاذبية القمر التي تبلغ سدس جاذبية الارض. وعندما ينزل رواد الفضاء على سطح كوكب آخر من كواكب المجموعة الشمسية فستضطرب حركتهم بالمقارنة بحركتهم على الارض نتيجة اختلاف الجاذبية بين ذلك الكوكب والارض.

ثانيا:- ان من صلب مفهوم الكائن الحي أن له عمرا محدودا محتوم أن ينتهي مهما طال هذا العمر أو قصر.

والانسان، ككل الكائنات الحية، يبدأ حياته صغيرا وينمو ويكتمل نموا ويبقى فترة مكتمل النمو ثم تأخذ حيوية جسمه بعدها بالهبوط ويستمر الهبوط لينتهي لا محالة بالموت. والموت حقيقة من الحقائق المطلقة القليلة التي لا تحتمل تغييرا ولا تبديلا. ولعل ذلك يمثل أكبر تناقض في نفس الانسان. لانه يصعب على النفس البشرية الحية أن تدرك أن نقيض الحياة كامن فيها أو لعله الوجه الاخر للحياة نفسها. ومهما حاول الانسان أن يدفن هذه الحقيقة المطلقة في أعماق نفسه ويتناساها، تظل تبرز له في فترة حياته المحدودة بأشكال مختلفة ليس أقلها وضوحها أنه يرى الموت يصيب الكثيرين من حوله كذلك إصابته بأمراض شتى في مناسبات متعددة من حياته. والمرض ناجم أصلا عن أن الانسان يعيش وسط بيئة معادية غريبة عنه وتعج بعوامل مؤذية كثيرة تتربص به وكأنها تنتظر سنوح أية

فرصة لاختراق دفاعاته.

وحتى يحمي الانسان نفسه من عوادي البيئة الغريبة المعادية تتزن بيئته الداخلية بمكوناتها المختلفة مع نفسها وتنفصل عن البيئة الخارجية انفصالا يكاد يكون كاملا فيما عدا ما يدخل للبيئة الداخلية من الخارجية وما يخرج منها اليها. ومع ذلك أو لعله بالرغم منه يحدث الخلل والمرض. بل ان الامر لا يتوقف عند تدخل عوامل خارجية من البيئة حتى يحدث المرض بل يحدث أن يختل توازن البيئة الداخلية نفسها ومن هذا الاختلال يصيب الانسان المرض. وكل مرض مصدر خطر على حياة الانسان.

ومع أن الانسان يبدو هشا في مواجهة عوامل البيئة المعادية، وبخاصة في فترتي البداية والنهاية من عمره المحدود، الا أنه بشكل عام نجح نجاحا ملحوظا في التكيف مع هذه البيئة والعيش فيها، قادرا على أن يصد هجمات العوامل المعادية ويرمم ما يتلف من تحصيناته باستمرار.. بل أنه يفعل ذلك كل لحظة دون وعي منه بذلك... فلا يكاد يذكر ضعفه الا عندما يكون وضعه خطرا وقواه مستنزفة. ولابد من الاشارة الى أن بيئة الانسان التي يستطيع العيش فيها ليست الكرة الأرضية بأجمعها.... بل أجزاء منها... ولعل ما يصلح منها لعيش الانسان رغم العوامل المعادية جزء يسير من مساحتها... أما الباقي فتتزايد فيه شدة العوامل المعادية وضراوتها بدرجات متفاوتة حتى تصل الى حد استحالة امكان عيش الانسان فيها.

وهكذا نرى عيش الانسان يتدرج صعوبة من المناطق القاحلة الى المناطق المتجمدة ثم الى البحار والمحيطات وقيعانها وطبقات الجو المحيطة بالكرة الارضية حيث لا يمكن للانسان العيش فيها. ولو حسبنا مساحات هذه المناطق بالنسبة للمناطق التي يمكن للانسان العيش فيها، وجدناها تزيد على 80٪ في مقابل أقل من 20٪.

ثالثا:- يتشابه بنو الانسان جميعا في التركيب ويتزاوجون معا رغم اختلاف أعراقهم وينجبون ولذا فهم جميعا من نوع واحد. ولكنهم يختلفون شكلا وصفات بفعل العوامل الوراثية. وعندما عاش الانسان مع بني جنسه في مجتمعات تفاعل في نفسه عاملان متضادان متناقضان:- أولهما أن البشر متساوون لانهم من نوع واحد ولهم نفس التركيب، وثانيهما أنهم غير متساوين... ورأى الناس عدم المساواة هذه في أسباب مختلفة عبر العصور...

فمنهم من اتخذ اختلاف اللون أو العرق سببا، ومنهم من رأى في الانساب سببا، ومنهم من ذهب الى أن الوضع الاجتماعي والمادي سبب الى آخر ما هنالك من أسباب اتخذت جميعها ذريعة للتمييز بين بني الانسان، لا بل وتصنيفهم في طبقات ضمن المجتمع الواحد. وتبعا لذلك دخل عدم المساواة هذا كعامل معاد آخر من عوامل البيئة يؤثر في الكثيرين تأثيرا يحد من فعاليتهم وحيويتهم... ونتيجة لهذا التناقض عاشت المجتمعات الانسانية في قلق وعدم استقرار، وكتب كثيرون حول هذا الموضوع ووصفوه بالظلم والمعاملة غير الانسانية كما نجم عنه كثير من الاضطراب والعنف على شكل فردي وجماعي في فترات عديدة من تاريخ الانسانية.

ويتساءل المرء ترى أين تكمن الحقيقة؟ أم لعل الامر لا يعدو كونه أحد التناقضات الانسانية... هل الناس يتساوون حقيقة ولكنهم يظلمون بعضهم وأنفسهم؟ أم هل هم غير متساوين فعلا ولذا يظلمون بعضهم بعضا؟ أن الواضح علميا هو أن الناس، رغم تشابههم الشديد في التركيب وأسس البناء الحيوي، لا يتشابهون فيما بينهم في كثير من الصفات. فالناس ليسو نتاج قالب واحد. ولا تقتصر الفروق بينهم على الشكل وصفاته بل تتعدى ذلك الى القدرات والامكانات الجسمية والعقلية. وليس عسيرا أن نستنتج أن الناس غير متساوين. فكل انسان كيان حي قائم بذاته يختلف حتى عن أخيه اختلافات بينة لها أثر على ما يمكن أن يحققه من انجازات في حياته.

ويزيد الناس هذه الاختلافات حدة ووضحا بأسلوب العناية بالصغار وتربيتهم - وهي عملية رعايتهم واعدادهم لتحقيق امكاناتهم في الحياة. اذ كثيرا ما يكون هذا الاسلوب، عند عديد من الناس، خاطئاً يؤدي إلى طمس كثير من قدرات الصغير وامكاناته، كما يكون عند بعضهم الآخر، على النقيض من ذلك، سبيلا إلى اظهار هذه القدرات وبلورتها وصقلها. وقد يذهل الانسان أو عرف كم من الامكانات والقدرات الانسانية أهدرت وضاعت بفعل جهل الوالدين والمربين والمجتمع ككل بأساليب التربية السليمة وبفعل اهمال دراسة الطفل وعالمه الخاص به دراسة علمية دقيقة.

ولعل عدم تساوي الناس في القدرات والمواهب الكامنة مع اضطرارهم للعيش معا في مجتمعات كان من مستلزمات هذه المعيشة الاجتماعية،

وذلك حتى يكمل الناس بعضهم بعضا ويكون بوسع المجتمع ككل أن يكون ناجحا فعالا منتجا بشكل متكامل. وخير سبيل لهذا التكامل الاجتماعي هو أن تقاس قدرات كل فرد ومواهبه، وأن يعطى الدور الذي يتناسب مع هذه الموهب والامكانات وبذا تتاح له فرصة تحقيقها فيسعد هو ويفيد منه مجتمعه إلى أقصى الدرجات الممكنة. غير أن أنانية الانسان وحبه لذاته جعلته يعمى عن حدود قدراته ومواهبه. فكل امرئ في نظر نفسه صاحب مواهب لا تحصى ولا تقدر... بل انه في تقويمه نفسه يعطي لميزاته ومواهبه كل القيمة ويقلل من قيمة المواهب والميزات التي يفتقدها في نفسه ويراها في غيره. وليس هناك حقيقة من ينفذ القول الحكيم «رحم الله امرءا عرف قدره».

ونتيجة لكل هذا تحول المجتمع من مجتمع يفترض فيه التعاون حسب القدرات والمواهب والامكانات لمصلحة المجتمع العامة الى مجتمع يتم فيه التعاون على أسس استغلال البعض للاخرين وافادة هذا البعض فائدة شخصية من قدرات ومواهب أولئك الاخرين.

ونجد فرقا كبيرا بين مجتمعات الحيوانات الاجتماعية والمجتمعات الانسانية في هذا المجال، ففي حالات المجتمعات الحيوانية يجد الباحث الشكل الرئاسي موجودا تارة بشكل فردي كما في مجتمعات النحل والنمل، وتارة بشكل رئاسة جماعية من أكثر من واحد كما في بعض أنواع القردة. وفي كلا نوعي المجتمعين يقوم كل فرد في المجتمع بوظيفة محددة يقررها له بناؤه الوراثي وتركيبه الأساسي... ويمكن أن ينتقل منها إلى وظيفة أكثر مسئولية ضمن اطار محدد بالبناء الوراثي نتيجة ازدياد المهارات والقدرات وتبلور الامكانات.

أما المجتمعات الانسانية فقد كانت قديما شبيهة بتلك الحيوانية من حيث وجود حدود لرقي الافراد وتغير مسئولياتهم... ثم تغير ذلك الى حد ما في المجتمعات الحديثة. ومع ذلك فان ما يتحكم في رقي الافراد وازدياد مسئولياتهم في الغالب عوامل ابتدعها الانسان ولا علاقة لها في كثير من الحالات بالقدرات والامكانات والمواهب. ويكون من نتائج تحكم هذه العوامل اجبار قطاعات كاملة من المجتمع على أن تعيش بجزء يسير من امكاناتها وقدراتها مستغلة استغلالا غير انساني.

رابعا:- ولعل أغرب ما في الانسان أنه حقا لا يدري ما يريد من حياته. انه يعلم، في أعماقه، ان حياته محدودة زمنيا... وأن الموت يقترب منه باستمرار. وكان الواجب أن يكون هذا مدعاة لوضوح هدفه من الحياة.. ولكن الامر على العكس من ذلك... فقلما تجد انسانا يعلم يقينا ما يريد من حياته، وقلما تجد انسانا قانعا بما استطاع تحقيقه. ونتيجة هذا وذاك يتولد عند الانسان شعور بعدم الرضا وعدم السعادة. ورغم أن الناس لم يتفقوا بعد على مفهوم واضح للسعادة، الا أن الكل ينشدها ولو كان لا يدري حقيقة ماهيتها ولا ما يولدها. حتى أن الكثيرين باتوا مقتنعين بأن السعادة سراب لا حقيقة له. وهذه قناعة غير صحيحة فالكثيرون شعروا بالسعادة في فترات أو لمحات من حياتهم... وهذا دليل كاف على أن السعادة حقيقة واقعة. ولكن المشكلة تكمن في وضوح مفهومها، وعند اتضاح الهدف يصبح الوصول إلى السعادة محتملا اذا جد المرء في طلبها وثابر على ذلك.

ولما كان الانسان قد حاول، عبر تاريخه الطويل، الوصول اليها بطرق متعددة ولم يوفق، كان من المحتمل ألا تكون السعادة في شيء خارج عن الانسان نفسه. وقد يكون القول بأن السعادة تكمن في تحقيق الانسان لذاته وقدراته وكفاءاته وامكاناته قريبا الى مفهوم السعادة... غير أن هذا ينقضه أو يبعده امران: الاول أن الانسان لا يعترف بحدود قدراته ومواهبه بل يغالي فيها ويعطيها قدرا فوق قدرها وبذا يصبح تحقيقه لذاته وقدراته أمرا غير قابل للتطبيق، وبالتالي يصبح وصوله الى السعادة غير ممكن، والثاني ان الانسان محدود القدرات والمواهب، وحتى ولو عرف حدودها فلابد أن يرى في غيره ميزات ومواهب تفوق ما عنده، ولو لم يعترف به صراحة. وهذا يسبب الغيرة والحسد مما ينغص عليه عيشه ويفقده الكثير من طعم السعادة.

ويزيد هذه المشكلة تعقيدا أن الانسان يتغير باستمرار وتتغير تبعا لذلك مفاهيمه ومعاييره... وعلى ذلك فلو فرضنا أن انسانا ما عرف قدراته ومواهبه وحدودها وعرف ما يريد من حياته في فترة ما، فان تغيره الحتمي وتغير معاييره ومفاهيمه سيغير من أهدافه وقد يغير تقديراته لقدراته ومواهبه. وبذلك يتغير مفهوم السعادة عنده ولا يعود مفهوم ما كان يعتقد بأنه السعادة مرضيا بالنسبة له... وهكذا دواليك. وكثيرون هم الذين يعيشون

في خضم هذه الحيرة فتؤثر في حياتهم وسلوكهم وتصرفاتهم بأشكال ودرجات مختلفة.

خامسا:- لاشك أن الانسان هو خليفة الله في الارض. ولكنه لم يتصرف بهذا المفهوم في تعامله مع الارض وما بها وما عليها ... بل كان تصرفه أقرب الى مفهوم السيد المطلق يتصرف بها كيف يشاء دون مراعاة لأية اعتبارات تتعلق بها. وكانت الارض، بالنظر لقلة عدد الناس في الماضي، قادرة على احتمال تصرفات الانسان الخاطئة وامتصاص أذاها ... ولما تزايد عدد الناس وتفاقمت تصرفاتهم المؤذية تجاه الارض... لم يعد بوسع هذه الارض احتمال ذلك دون اثر باق ولم تعد تستطيع اصلاح العواقب بسرعة كافية لتعويض أثر ما يرتكب في حقها من أخطاء وأذى.

وهكذا نجمت مشكلة خطيرة، وهي، فوق خطرها، تتفاقم باستمرار، ولعلها من أكثر المشكلات تدليلا على تناقض الانسان... فمع علم الانسان يقينا أن حياته وحياة أولاده وأحفاده الى ما شاء الله معتمدة اعتمادا أساسياً على البيئة التي يعيش فيها، ومع علمه بأن هذه البيئة هي مصدر الغذاء لهذه الاعداد البشرية المكتاثرة... الا انه بتصرفاته الخاطئة المتكررة يؤذي هذه البيئة أذى بالغا، مما يضعف قدرتها على العطاء، بل ويجعلها في كثير من الحالات والاحيان غير قادرة على العطاء... وقد تتحول، في أقصى الحالا، الى خطر على الحياة نفسها.

ان الانسان، في غمرة انانيته وشعوره بالسيطرة والسيادة، نسي أنه جزء من هذه البيئة التي يعيش منها وعليها وبها، وان عليه أن يتصرف على هذا الاعتبار لا على اعتبار أنه السيد الاوحد الذي سخر له كل شيء... كما فاته أن خلافته لله في الارض وسيطرته عليها وعلى مكوناتها الحيوية وغير الحيوية واستغلاله لها لا يجوز أن تمتد الى حد اخلال التوازن البيئي بينه وبين هذه المكونات، والا ناله الاذى وحاق به الخطر وتهددت حياته، والامر هنا يفوق في مدى خطورته كل تصور ويزيد من خطورته عدم وعي معظم الناس له ولابعاده الممتدة الى جذور الحياة نفسها.

لقد قدمنا للحديث عن بعض مشكلات الانسان المعاصر بهذه التقدمة، لاعتقادنا بأن فهم الانسان لنفسه، من هذه الزوايا على الاقل، يجعله أقدر على تفهم هذه المشكلات وايجاد حلول ناجعة لها.

ولابد من القول بأن مشكلات الانسان المعاصر، التي تهدد بالتفاقم لتصبح تحديا لوجوده مستقبلا، عديدة ومتشعبة. ولسنا في هذه العجالة بصدد الاحاطة بها احاطة تامة، ولكننا سنحاول أن نعرض بشكل مبسط لبعضها - على سبيل المثال لا الحصر، راجين أن نتمكن من ايضاح خطرها وأبعادها وأثر ذلك على حياة الانسان في الحاضر والمستقبل.

١ مشكلة الإنفجار السكاني والنمو الإنساني

من المظاهر التي تميز الكائن الحي عن غير الحي: الاحساس والانفعال والحركة والتغذي والتنفس والاخراج والنمو والتكاثر والمرض والموت.

وينفرد التكاثر من بين هذه المظاهر في أنه الميزة الوحيدة التي تجعل لبقية الميزات معنى... فبينما المظاهر الاخرى يمكن أن تميز الكائن الحي عن غير الحي كفرد، خلال فترة حياته، فان ميزة التكاثر هي التي تجعل لهذه الحياة استمرارا وغاية وهدفا معقولا... ذلك أنه من غير المعقول أن تكون الحياة قد خلقت لتنتهي بانتهاء آجال الكائنات الحية مهما طالت تلك الآجال، والا لانقضت الحياة منذ زمن بعيد... فاستمرار الحياة في وجود الموت أهم جزء من مفهوم الحياة... والتكاثر هو الذي يجعل هذا الاستمرار ممكنا وبذا يجعل مفهوم الحياة متكاملا. ونجاح الكائن الحي في العيش، رغم كونه البيئة التي يعيش فيها غريبة عنه ومعادية له، ليس كل النجاح... بل قد يكون نجاحا كالفشل ان انتهى به الامر بعد لأي الى الفناء دون أن تستمر الحياة بعده - وقولنا هذا ينطبق على النوع برمته لا على الفرد وحده -.

ونظرا لاهمية مظهر التكاثر في الحياة بشكل عام نرى الحياة توليه اهتماما خاصا على كل مستوياتها وأشكالها.. ومن أوجه هذا الاهتمام أن التكاثر في الحياة أكثر بكثير مما تحتاجه الحياة لاستمرارها... وما ذلك الا لضمان هذا الاستمرار في مواجهة المخاطر العديدة التي تهدد حياة الكثير من صغار الكائنات الحية قبل أن تكتمل نموا وتستطيع اكمال دورة حياتها بالتكاثر.

وواضح أن التكاثر بمثل هذا المعدل لا يمكن أن يستمر دون ضوابط تحد منه والا لملأت الكائنات الحية الارض الى درجة الاشباع ولما استطاعت الارض أن تقدم لها ما يكفي لغذائها. ولو اخذنا كمثال تكاثر البكتريا نجد أن البكتريا الواحدة، وتبلغ 20 في الالف من المليمتر طولا تتكاثر بالانقسام كل 20 دقيقة. فلو بدأنا بواحدة فقط فان عدد ما ينجم بالانقسام عنها نظريا في مدى ثلاثة أيام فقط يصل أعدادا لو صفت طوليا لاحاطت بالكرة الارضية. ولكن هذا العدد الهائل لا يتحقق في الواقع اذ تتدخل عوامل قلة الغذاء وعوامل الازدحام وتجمع ما تخرجه هذه الكائنات المتكاثرة الى حد أن يتوقف التكاثر قبل الوصول الى هذه الاعداد فتبقى هذه في حدود معقولة.

وتتضح هذه الظاهرة في التجارب المخبرية على تكاثر فطر الخميرة... وفي هذه التجارب وجد العلماء أن الاعداد تتزايد في الساعات الاولى تكاثرا متزايدا، وتصل الى أقصى اعدادها في الساعة السادسة عشرة ثم تثبت الاعداد عند هذا المستوى بفعل العوامل التي ذكرنا آنفا ويوضح الرسم البياني التالي لمعدل التكاثر في فطر الخميرة هذه الظاهرة.

كمية الخميرة
750
600
450
300
150
2 4 6 8 10 12 14 16 18 20
الزمن بالساعات

يزداد عدد خلايا الخميرة بالانقسام تزايدا مطردا الى الحد الاقصى في الساعة السادسة عشرة... وبعدها تتوقف الزيادة بفعل الضوابط المختلفة المشار اليها.

وهكذا نجد أن أنواع الكائنات الحية المتعايشة في بيئة ما تتفاعل معا ومع البيئة فتوجد صيغة توازن معينة فمثلا تفترس أنواع في بيئة ما أنواعا أخرى، ويقل تكاثر أنواع أخرى نتيجة نقص الغذاء، كما يقل التكاثر نتيجة الازدحام وتجمع المواد الاخراجية الضارة.

ومن الامثلة التي توضح صيغة التوازن، المثال التالي:- ففي بيئة تنبت العشب يعيش نوع من الارانب يتغذى على هذا العشب كما تعيش بعض أنواع الثعالب التي تعيش على افتراس الارانب. وفي مثل هذه البيئة تنشأ علاقات واضحة بين الكائنات الحية الثلاثة: فالعشب يغذي الارانب والارانب تغذي الثعالب. وكلما ازداد العشب زاد عدد الارانب ومع ازدياد عدد الارانب يزداد عدد الثعالب. وهكذا نجد ان ازدياد العشب يؤدي الى نقصه نتيجة ازدياد عدد الارانب التي تأكله... وازدياد أعداد الارانب يؤدي إلى نقصانها بازدياد أعداد الثعالب التي تفترسها، كما أن ازدياد أعداد الثعالب يؤدي إلى تناقص أعدادها بسبب نقص أعداد الأرانب التي تغذيها. وبالعكس من ذلك يؤدي نقص عدد الأرانب إلى تزايد العشب وهذا يؤدي إلى تكاثر الأرانب ومثل ذلك يحدث في الثعالب وتستمر هذه الدورة متكررة في توازن ديناميكي غير جامد ما لم تتدخل عوامل خارجية، غير العوامل الثلاثة، لتخل هذا التوازن، وعندها تختلف علاقات الكائنات الحية في البيئة واعدادها الى أن تتزن مرة أخرى مع الظروف والعوامل الجديدة. وقد يحدث أن يكون التغير أو خلل التوازن عنيفا بالنسبة لنوع من الكائنات الحية الى حد لا يستطيع معه التكيف مع هذا التغير فينقرض النوع.

وينبغي أن نوضح هنا أن المثال الذي عرضناه مبسط جدا للايضاح ولكن الصورة الحقيقية أكثر تعقيدا. ذلك أنه لا تتوجد بيئة مستقلة منفصلة. فهناك بيئات صغرى ولكنها أجزاء من بيئات أكبر تتأثر بها وتتفاعل معها كما تتداخل عوامل كل منها في بعضها بعضا. وتتفاعل البيئات الكبيرة مع بيئات أكبر منها حتى تصل إلى بيئة كبرى متكاملة هي بيئة الكرة الأرضية بكل ما فيها وعليها وحولها.

وقد كان الانسان ككائن حي في بداية عهده بالحياة على هذا الكوكب منذ مليون عام يخضع لهذا التوازن وشروطه تماما كما تخضع بقية الكائنات الحية. ولكنه، بما حباه الله من ميزات خاصة، سرعان ما بدأ يتفادى الآثار

الضارة لعوامل البيئة وبخاصة منها ما يكون على شكل كوارث، أو على الأقل، عوامل فعالة لا يمكن للكائنات الحية الأخرى تفاديها. فالبرد الشديد الذي يفوق حد الاحتمال كان في الماضي البعيد عاملا يؤدي الى موت الانسان. ولكن الانسان بعقله وتفكيره سرعان ما استطاع تفادي هذا الأثر بأن سلب بعض الحيوانات فراءها لتدفئة نفسه ثم اكتشف النار واستخدمها في تخفيف أثر عامل البرد الشديد.

وازدادت قدرة الانسان بازدياد تفكيره العلمي حتى استطاع في عصر الحضارة العلمية الحديثة أن يسيطر على جميع العوامل البيئية المعادية وأن يعيش رغما عنها وعن آثارها.

والمهم أن نتذكر أن الانسان لم يتغير تركيبا بحيث أصبح يتحمل هذه العوامل ولكنه بالعلم وتطبيقاته التكنولوجية استطاع أن يتحاشاها ويتجاوزها.

وقد أدى ذلك، في مجال التكاثر، الى ازدياد اعداد الانسان زيادة كبيرة في متواليات شبه هندسية. فمن زوج بدأ الحياة قبل مليون سنة تقريبا تكاثر الانسان حتى أصبح عدد الناس في الكرة الأرضية قبل 300ر000 سنة حوالي مليون نسمة وقبل عشرة آلاف سنة أكثر من خمسة ملايين نسمة وعند ميلاد المسيح عليه السلام كان عدد سكان الارض أكثر من مائة مليون نسمة. وفي القرن السابع عشر الميلادي أكثر من خمسمائة مليون نسمة وفي القرن الثامن عشر أكثر من سبعمائة مليون نسمة وفي عام 1830 وصل عدد السكان الى بليون نسمة (ألف مليون).... وفي عام 1930 تضاعف العدد الى بليوني نسمة. وفي عام 1960 أي بعد 30 سنة فقط زاد العدد الى ثلاثة بلايين نسمة... ومن المنتظر، احصائيا، أن يصل عدد سكان الأرض في عام 1990 أي بعد 30 سنة أخرى الى أكثر من ضعف العدد المسجل عام 1960 أي أكثر من ستة بلايين نسمة.

وليس غريبا أن يتساءل المرء بقلق: وماذا بعد؟ وكم سيزداد عدد السكان بعد مائة عام مثلاث؟ وبعد ألف عام؟ وليس هذا ببعيد اذا قيس بعمر البشرية. أين سيعيش كل الناس عندها؟ بل وكيف سيعيشون؟ وعلينا أن نتذكر أن عددا من أولئك الذين نتساءل عنهم سيكونون أحفاد أحفادنا والاخرون أخوة لهم في الانسانية لا مجرد أرقام احصائية جامدة.

ويزيد الطين بلة أن هذه الاعداد المتزايدة من البشر لن تتوزع بالتساوي

على جميع أنحاء سطح الكرة الأرضية، بل سيتزاحمون في أماكن محددة، ذلك أن أجزاء كبيرة من الكرة الارضية غير صالحة لسكنى الانسان ومعاشه. فالقارتان القطبيتان الشمالية والجنوبية لا تصلحان لسكنى البشر. وهناك مناطق أخرى غير صالحة للسكنى كسلاسل الجبال الصخرية الوعرة شديدة الانحدار والصحاري القاحلة وبعض الأراضي السبخة المالحة المنتشرة هنا وهناك.

وسطح الكرة الأرضية مغطى حوالي 72٪ منه بالماء الذي لا يصلح لسكنى الانسان وعيشه، وما تبقى من هذا السطح يابسة (حوالي 28٪) واليابسة تبلغ مساحة حوالي 58 مليون ميل مربع. ولكن المناطق الصالحة لعيش الانسان لا تزيد على نصف هذه المساحة أي حوالي 29 مليون ميل مربع. ويزدحم الان ثلثا سكان الأرض في 2ر4 مليون ميل مربع من هذه الارض أي حوالي 3ر7٪ من مساحة سطح اليابسة، وتتوزع مناطق الازدحام هذه في الشرق الأقصى، والهند وسيلان وأوروبا الوسطى والغربية وشرق أمريكا الشمالية[1] .

ولعل في هذا التزاحم السكاني في مناطق محددة ما يزيد من حدة تكاثر الأعداد ويعطيه زخما أكبر من حجمه.

ويلحظ المدقق في تزايد أعداد السكان أن الانسان الى فترة طويلة منذ أن خلقه الله واعداده في تزايد نسبي قليل، وكأنه كان يخضع الى حد كبير لقانون التوازن البيئي الذي أشرنا اليه، شأنه في ذلك شأن بقية الكائنات الحية - مع شيء من الاختلاف، لعله تنوع غذائه مما أدى إلى هذا التزايد النسبي، بينما معظم الكائنات الحية تخضع لهذا القانون بدقة أكثر لتخصصها فيما تتغذى عليه.

ولكننا نلحظ أن التزايد في السنوات الستين الاخيرة هائل جدا كما أن التزايد المنتظر في الثلاثين سنة القادمة سيكون أضخم بكثير. والسبب في ذلك هو علم الانسان وتكنولوجيته. فقد أدى البحث العلمي وتطوره الى

---

(1) نجد أن جاوا تفوق غيرها في معدل الازدحام اذ يسكن الميل المربع فيها أكثر من 1140 نسمة وفي بلجيكا نجد المعدل يبلغ 773 نسمة في الميل المربع وفي بورتوريكو 683نسمة، وفي الشرق الآسيوي يصل المعدل الى ما بين 400 و 500 نسمة في الميل المربع وفي أوروبا بدون الاتحاد السوفيتي 222 نسمة في الميل المربع وفي شرق امريكا الشمالية 271 نسمة في الميل المربع.

اقلال أثر الضوابط التي تؤدي إلى التوازن البيئي، أي أنه أدى الى تخفيض نسبة الوفيات في العالم بشكل عام.

وتخفيض نسبة الوفيات في العالم شيء حسن بحد ذاته... ولكنه أسهم مع غيره في خلق مشكلة جديدة هي هذا التزايد الهائل في عدد السكان حتى أن العلماء يطلقون عليه اسلم الانفجار السكاني... وفي هذا الاسم دليل على مدى الاحساس بخطره الكامن والمائل.

كما أن البحث العلمي أدى إلى تحسين صحة الانسان بشكل عام مما جعل الفترة المنتظرة لحياته أطول مما كانت عليه في الماضي. وفوق ذلك يبحث العلماء الان بشكل جدي في سر الهرم والشيخوخة. ومع اعتقادهم بأن الموت في النهاية لا مفر منه فانهم يعتقدون أن فهم سر الهرم والشيخوخة يمكن أن يجعل فترة الحياة المنتظرة تطول الى ما فوق المائة عام. بل ان الكثيرين منهم يرون أن 130 عاما عمر محتمل ومنتظر لبني البشر في المستقبل. ونحب أن ننوه بأن العلماء في أبحاثهم هذه يسعون الى أن يعيش المرء حتى هذا العمر المديد وهو في نشاط فعال - نشاط عقلي وجسمي وفسيولوجي. ومن الواضح أن مثل هذا أن تحقق سيزيد من عدد سكان العالم زيادة كبيرة أخرى..

وقد قطع العلم شوطا كبيرا في ميدان الابحاث العلمية في سر الهرم والشيخوخة منذ أن استطاع العلماء تحقيق فتح مبين في ميدان دراسة الحياة على المستوى الجزيئي ودراسة الخمائر أو الانزيمات التي يمكن وصفها بأنها «وسطاء الحياة» والوسيط هو الذي يتولى القيام بتسهيل عملية تفاعل عاملين أو أكثر. وما الحياة الا سلاسل من عديد من التفاعلات الكيميائية ضمن نظام ديناميكي مسرحه الخلية الحية، والمسيطر عليه مركب فذ في نواة الخلية، ووسطاؤه الخمائر والانزيمات. ويمكن أن نقول بأن هذه الانطلاقة، نحو فهم سر الحياة وبالتالي سر الهرم والشيخوخة، ساعدها كثيرا اتجاه العلماء الى معالجة المسألة موضوع البحث من زوايا فروع العلم المختلفة في جهد متعاون ومتناسق... وهكذا نرى اليوم أن في دراسة الحياة تلتقي فروع الكيمياء والاحياء والفيزياء. وبدون هذا الالتقاء والتعاون في البحث العلمي بين علماء متخصصين في فروع مختلفة لم يعد ممكنا فهم سر أية مشكلة تحت البحث وبشكل خاص مشكلة سر الحياة.

الجانب النوعي (الكيفي) للمشكلة:

ان مشكلة تكاثر أعداد الانواع وتزايدها مشكلة كمية أو عدددية بحتة عند الكائنات الحية عدا الانسان. ومع أن لهذه الناحية الكمية أو العددية أثرا كبيرا جدا في تحدد المشكلة عند الانسان الا أن الناحية النوعية أو الكيفية، التي لا توجد عند غير الانسان من الكائنات الحية، تؤثر الى حد كبير في جوانب أخرى من المشكلة.

ولابد لنا من وقفة لايضاح هذه الفكرة... فالتكاثر عند العديد من الكائنات الحية يعني انجاب أو انتاج صغار قادرة على الاستمرار في العيش كما كانت الكبار التي انتجتها. وقلما يكون للأم أو الأب دور في تربيتها أو تعليمها أو اعدادها للحياة... ذلك أنها مؤهلة ومعدة للحياة رأسا بمجرد ظهورها للحياة... ونجد ذلك يتكرر في مختلف القبائل الحيوانية من أدناها الى أرقاها.

فالحيوانات الأولية التي تتكاثر بالانقسام لا يبقى أثر للكبير بعد انقسامه ليصبح اثنين... ولا تدري مستعمرة الاسنفج شيئا عن الخلايا الخاصة التي تتكون فيها وتنتقل الى مكان آخر لتكون مستعمرة جديدة... كما لا تدري الهيدرا عن صغيرها سواء الذي يتكون بالتبرعم ثم ينفصل عنها أم الذي يتكون جنينا ثم ينطلق ليكون هيدرا جديدة. أما في الديدان المفلطحة فان اليرقة التي تنتج تتغذى وتتحول الى أطوارها المختلفة دون جهد من الكبير الذي أنتجها، وكذلك الحال في الديدان الاسطوانية والحلقية وفي الحيوانات القشرية بما فيها الحشرات والحيوانات الرخوية بما فيها المحارات والصدفيات، وكذلك الحيوانات شوكية الجلد كنجم البحر وقنفذ البحر.

واذا صعدنا في سلم رقي الحيوانات نجد الاسماك. وهنا نجد أنواعا عديدة تضع فيها الانثى البيض ويخصبه الذكر خارجيا ثم يذهب كل منهما في حال سبيلة تاركا البيض المخصب تحت رحمة الظروف والاسماك الاخرى.. بل لعل الابوين يعودان ليتغذيا على هذا البيض.. ويستمر الحال عندما يفقس البيض المتبقي الى أجنة، اذ تكون وحدها دون رعاية أو حماية وعرضة للافتراس.

غير أن بعض أنواع الاسماك الاخرى تقوم بجهد بسيط في سبيل رعاية الصغار. ففي بعض الأسماك الغضروفية مثلا تحتفظ الانثى بالبيض في قنوات خاصة داخلها الى أن يفقس البيض لتخرج الصغار قادرة على الحركة والسعي، كما تبني بعض أنواع الأسماك أعشاشا خاصة تضع فيها البيض ويخصبها الذكور ويبقى البيض في حماية الذكر والانثى حتى يفقس ويستطيع الحركة بنفسه. ويذهب ذكور بعض الأنواع القليلة الأخرى الى حماية الصغار فترة كأن يخبئهم الأب عند الخطر في فمه أو يظل يحملهم في فمه، مع ما في ذلك من حرمانه من الأكل، الى أن يصل نموهم الى الحد الذي يسمح لهم بالسعي لأنفسهم وعندها ينفصل الصغار عن الأب انفصالاً نهائيا.

أما الزواحف التي تلي البرمائيات رقيا فهي مثل سابقتها لا تحمي البيض الا بأن تجد له جحرا أو عشا في الرمل أو تحت جذع شجرة أو ما شابه ثم تتركه دون أن يقوم الابوان بجهد ايجابي في حماية البيض أو حماية الصغار عند فقسها.

وفي الطيور نجد تطورا واضحا في أن البيض، فوق أنه يوضع في أعشاش خاصة تعد بدرجات متفاوتة من الجهد، يحتاج حتى يفقس الى أن يرقد عليه الابوان بالتبادل. وبعد الفقس نجد درجات متفاوتة أيضا من الحماية والرعاية حسب نوع الطير. فصغار الطير جميعا تلازم الأم والأب فترة من الزمن.

وفي الطيور المائية يقتصر جهد الأبوين في هذه الفترة على تدريب الصغار على انتقاء طعامها وعلى حماية هؤلاء الصغار عند الخطر، وكذلك يكون الحال في الطيور البرية غير الطائرة كالدجاج والنعام... ولكننا نلاحظ ازدياد مبلغ العناية والرعاية في الطيور الطائرة... اذ تفقس الصغار في هذه الطيور، خلافا لصغار الطيور المائية والبرية غير الطائرة، وتكون غير قادرة على التقاط طعامها بنفسها فتحتاج الى أبويها لاطعامها، كما تحتاج لهما في حمايتها وتدريبها على الطيران عندما يشتد عودها أو على الاقل لمراقبتها وحمايتها في فترة تدريبها على الطيران... ولكنها ما أن تطير حتى تستقل عن أبويها وتنفصل عنهما انفصالا تاما.

ونجد الصورة تتغير، ولو بدرجات متفاوتة، تغيرا كبيرا عند الثدييات.

ففي الثدييات البائضة، كمنقار البط، - وهي أدنى الثدييات رتبة وأقلها رقيا - تحتضن الام البيض الى أن يفقس. ثم تقدم اللبن الحليب الذي يسح على بطنها للصغير ليعلقه ويتغذى عليه الى فطامه.

وفي الثدييات الكيسية، كالقنغر، - وهي أرقى بعض الشيء من سابقتها - يبدأ الجنين تكونه داخل رحم الأم، ولكن بسبب عدم وجود مشيمة تسمح للجنين بالتكون والنمو داخل الرحم، ينزل هذا الجنين وهو بعد غير مكمل التكوين وينتقل الى كيس خاص في بطن الأم. وفي هذا الكيس أثداء يمسك الجنين بأحدها بفمه ويتغذى على الحليب منه وينمو حتى يكتمل ويصبح قادرا على الحركة بمفرده. غير أنه يبقى ملازما للأم فترة أخرى تحميه وترضعه داخل الكيس، كما أنه يعود ليحتمي داخل الكيس في فترات الخطر وتهرب الأم به اذا كان عليها أن تتحرك بسرعة.

وفي الثدييات المشيمية - ورقيها على درجات متفاوتة - يتزايد مقدار الرعاية للصغار تزايدا واضحا حسب مدى الرقي ودرجته. كما تتولد صلة واضحة بين الصغير الوليد وأمه وتستطيع تتمييزه من بين صغار القطيع وتختصه بالرعاية بشكل واضح. وفي هذه الثدييات يجهد الأبوان، أو أحدهما لاطعام الصغار بعد فطامهم، ويعلمانهم أساليب التصرف في بعض مواقف الحياة التي يحتمل تعرضهم لها. وفي بعض الأنواع التي تتجمع في قطعان يتصرف القطيع وكأنه مجتمع متعاون ويكون له رئيس - أو أكثر - ويزيد، نتيجة تجمع القطيع وتعاونه، مبلغ الحماية والرعاية التي ينالها الصغار، كما يكون التعليم والتدريب أكثر تنوعا وشمولا.

ومن مظاهر الرقي في الثدييات المشيمية وضوح تكون العائلة. فنجد جهدا واضحا من الذكر في البحث عن أنثى وفي أغرائها على مشاركته بناء العائلة. ثم يجهدان كلاهما في اعداد (المنزل) الذي سيكون مقرا لهذه العائلة. وبعد ذلك يتعاونان على حماية الصغار واطعامهم وتعليمهم لابراز ما هو مفروض بالغريزة المطبوعة في مراكز الوراثة في أنوية خلاياهم.

وكما ذكرنا يتفاوت مبلغ العناية بالصغار حسب مقدار الرقي الذي بلغه نوع ذلك الحيوان.

على أن أرقى ما يصل اليه أرقى الحيوانات لا يرقى الى قرب ما وصل اليه الانسان من عناية بصغاره وحمايتهم وتعليمهم واعدادهم للحياة.

ومن الادلة على الفرق الكبير بين الانسان والحيوان في هذا المجال طول فترة رعاية الصغار... فهي عند الانسان حوالي ثلث حياة الفرد، باعتبار أن متوسط العمر الذي يعيشه الانسان في أيامنا حوالي 63 عاما، بينما هي عند أفضل الحيوان أقل كثيرا من جزء من عشرين من حياة الفرد.

على أنه لابد من القول بأن الطفل الانساني يولد وهو أكثر صغار الحيوان عجزا ويستمر كذلك فترة طويلة جدا نسبيا... فهو في هذه الفترة لا يستطيع القيام بأي عمل لحماية نفسه... ولا يستطيع التغذي الا اذا لمس الثدي شفتيه، وحركته مجرد حركة أعضاء غير متناسقة لا تفيده في الانتقال من مكانه أو تجديه فتيلا أن تعرض لخطر.

ومع أخذنا هذا العجز بعين الاعتبار تظل فترة رعاية الانسان لطفله أطول فترة رعاية في المملكة الحيوانية بأسرها، كيفما حسبت تلك الفترة - سواء أكان ذلك من حيث طولها الزمني أم من حيث نسبة طولها الى عمر الفرد في المتوسط.

وليس هذا بالأمر المستغرب، فصغير الحيوان يولد أو يبدأ مسيرة حياته وقد طبع في مراكز الوراثة في أنوية خلاياه مجموعة أنماط من السلوك الغريزي يعيش بها الى أن يموت. وما قد يتعلمه غير هذه الأنماط السلوكية قليل، بل وفي الطبيعة قليل جدا. أما الانسان فأن ما يتعلمه يكون أضعاف أضعاف السلوك الغريزي الذي يولد معه، بل وكثيرا ما يطغى ما يتعلمه ويتطبع به حتى على أقوى الغرائز المطبوعة فيه. أو ليست التضحية بالنفس - وهي ضد أقوى الغرائز الأساسية: حفظ الذات - في سبيل معنى مجرد (كالواجب أو الشرف) دليلا على ذلك؟ وكذلك كبت الغريزة الجنسية - وهي أيضا من أقوى الغرائز الأساسية (حفظ النوع) - في سبيل مبدأ مصطلح عليه أو قيم متعارف عليها.

من هذا يتضح أن الفترة التي يحتاجها الانسان لرعاية صغاره وتعليمهم وتدريبهم يتحتم أن تكون طويلة جدا بالمقارنة بالفترة التي يحتاجها أي حيوان.

ويرى كثير من علماء علم الحياة أن طول فترة رعاية الصغار مقياس جيد لمبلغ رقي الحيوان ومعيار لترتيب الحيوانات في سلم الرقي. وبالمثل

يرى بعض علماء الاجتماع أن طول هذه الفترة يمكن أن يعتبر مقياسا لرقي المجتمعات الانسانية، فتفاوت طول هذه الفترة في مجتمعات مختلفة يعكس تفاوت تحضر هذه المجتمعات والتفاوت هذا كبير. ولابد لنا من القول أن الانسان أمضى منذ أن خلقه الله على هذه الكرة الأرضية قرابة 975000 سنة ورعايته لصغاره لا تزيد الا قليلا عن رعاية الحيوان لصغاره.

ثم بدأ مقدار الرعاية ونوعها بالازدياد والتحسن الى أن وصل لدرجة عالية ابان حضارات الانسان المختلفة وبخاصة الحضارة العلمية الحديثة.

ومع هذا فان جهل الانسان بأساليب التعامل مع الصغار وعدم فهمه لهم يسبب كثيرا من الاخطاء في مجال الرعاية والعناية بهم. وهذه الاخطاء تهدر كثيرا من امكانات هؤلاء الصغار مما يؤثر عليهم في مستقبل حياتهم. وأول خطأ يرتكبه الوالدان هو في اختيارهما لبعضهما. فاذا سلمنا أن الغاية من الزواج هي انجاب الصغار واستمرار النوع فان اختيار الزوج لزوجة يكتسب أهمية خاصة. ذلك أن الطفل الذي ينجم عن الزواج يولد وعنده حصيلة من المركبات الوراثية التي تتحكم الى حد كبير في شكله وبنيته وذكائه وقدراته العامة. وكثيرون هم الذين يختارون أزواجهم دون نظر الى الصفات الوراثية، وبعدها يندمون. كما أن الكثيرين يقتصرون في الزواج على أقربائهم جيلا بعد جيل مما يسبب على المدى الطويل ضعفا عاما في الأطفال ويركز فيهم بعض الصفات الوراثية السيئة مما قد يكون له عواقب وخيمة.

ثم ان معظم الازوج ينسون أن الجنين يبدأ حياته منذ لحظة الاخصاب وأن رحم الأم هو المكان الأمثل لنموه وتكونه، ولكن لابد له من التغذي والتنفس والاخراج عن طريق دم الام وأن من أهم شروط نموه نموا متكاملا متناسقا هو توارد الغذاء اليه بشكل منتظم، وان تكون مكونات الغذاء المتوفر له عبر دم الام مما يحتاج اليه في نموه وبنسب كافية... غير أننا نلحظ أن الكثيرات من الامهات لا يعرن هذا الامر الأهمية التي يستحقها أثناء حملهن، فغذاؤهن يستمر كما تعودن قبل الحمل وكثيرا ما يكون ذلك الغذاء ناقصا بعض العناصر الهامة أصلا، فضلا عن أن غذاءهن وقت الحمل يجب أن يكون غذاء خاصا وأن تكون عناصره متوفرة للجنين بنسب معينة باستمرار. وفوق ذلك نجد الكثيرات منهن يتناولن موادا مختلفة كالعقاقير أو يتعرضن

لمواد مشعة ويكون لكل منها تأثير سام أو ضار بالجنين في فترة تكونه مما يسبب تشوهه أو عدم اكتمال نمو أجزاء منه. وينتج عن ذلك فوق هدر طاقات الطفل المشوه وقدراته كثير من الأسى والألم للوالدين بخاصة.

ويولد الطفل وهو، كما قلنا، عاجز عجزا يكاد يكون تاما ويدخل بيئة معادية بعد أن كان في بيئة حانية توفر له كل ما يحتاج دون طلب، فهو في رحم أمه في درجة حرارة مثلى، محمي من الصدمات - الى حد ما - ويتغذى باستمرار فلا يحس بنقص أو منغصات. ولكنه في الدنيا يستشعر كل نقص وكل ضيق ولا يملك أن يفصح عما يضايقه بدقة... ولذا يعتمد الأمر على أمه وأهله فان كانوا على قدر كاف من المعرفة والادراك استطاعوا تلبية حاجاته عندما يصرخ مناديا مستغيثا، وأحيانا كثيرة يظل جزء، على الأقل، من تلك الحاجات دون تلبية.

على أن هذا على أهميته يعتبر ثانويا بالنسبة لتطور دماغه وبالتالي تفكيره وقدراته العقلية. فالطفل يولد ودماغه لم يكتمل تطوره - من حيث القدرات والامكانات على الأقل - ويعتمد تطور الدماغ بعد الولادة على المؤثرات التي تصل اليه عبر حواسه الخمس. ولكن خلو عقله من أية معلومات مسبقة يمكن أن يرجع اليها لفهم المؤثرات التي تأتي اليه بجعله معتمدا على أمه أو من يقوم مقامها في مساعدته على فهم هذه المؤثرات وبالتالي الافادة منها... وهذه العملية تدفع الدماغ للتفاعل مع البيئة ونتيجة لهذا التفاعل يحدث تطور الدماغ ونموه الى حجم امكاناته المقررة وراثيا.

ولذا ان لزاما أن يظل الوليد ملتصقا بأمه... وهي خطوة طبيعية. فقد كان قبل ذلك بقليل يعيش داخل رحمها... فلا أقل أن يكون بعد الولادة قريبا منها متصلا بها.. وعليها أن تشعره عبر حواسه الخمس بالتصاقها به وقربها منه... فترضعه مثلا وهي تسمعه صوتها وتلمس له رأسه ووجنتيه ويديه وتجعله يحدق في وجهها، وهو يشم رائحتها ويتذوق طعم حليبها.

وبذا تتوارد على دماغه المؤثرات المختلفة، وهو في حالة اطمئنان، فتتفاعل معه وتدفعه للتطور تدريجيا. والأم التي تهدهد طفلها وتحركه - في أرجوحة مثلا، خير من الأم التي تترك طفلها فترات طويلة نائما أو مستلقيا على فراش ثابت غير متحرك. وقد أثبتت الأبحاث التي أجريت على الأطفال الخدج في الحاضنات الخاصة أن جعل الحاضنة تتحرك حركة بسيطة

منتظمة يساعد على تخطيه مرحلة الخطر. وهذا أيضا أمر طبيعي فقد كان قبل الولادة يتحرك مع حركة الأم الطبيعية ولم يكن ملقى على ظهره دون حراك.

وينمو الطفل بالتدرج وعلينا أن نفهم أمورا عدة أهمها أن هذا الطفل كيان مستقل نجهل الكثير عنه ونجهل الشكل الحقيقي للصورة التي سيكون عليها مستقبلا... وصحيح أننا أورثناه مجموعة الصفات الوراثية ولكننا نجهل حقيقة هذه الصفات - فيما عدا الصفات المظهرية التي نراها. ونعلم أن الطفل يأخذ نصف حصيلته من عوامله الوراثية من أبيه ونصفها الآخر من أمه. وليس الأمر مجرد جمع النصفين اذ يحدث تفاعل بين نصف الأب ونصف الأم في الطفل، ويرث الطفل بعضا من صفاته الوراثية عن أبيه وبعضا آخر عن أمه. ويزيد الامر تعقيدا أنه يرث أحيانا صفات غير ظاهرة في الابوين مأخوذة عن الجدين مثلا. كما أن بعض الصفات التي تظهر في الطفل تكون نتاج تفاعل بين صفة الأب والأم بحيث لا تبدو أية واحدة منهما بل تظهر صفة أخرى تكون وسطا بين الصفتين أو غير ذلك.

على أن المهم أن الحصيلة الوراثية هي في الطفل مجرد امكانات، تحتاج الى أن تتحقق أثناء نمو الطفل.. وكثيرا ما يتدخل جهل الوالدين والمجتمع ليسبب خنق بعض هذه الامكانات في مهدها... فالطفل الذي يرث صفة الذكاء عن والديه، قد ينمو ليكون رجلا متوسط الذكاء أو شبه ذلك. وحتى يحقق صفة الذكاء الموروثة الى منتهى حدودها لابد من أن يكون نموه سليما وتربيته صحيحة دون أخطاء... وكثيرا ما نجد مثل هذه الصفة يتحقق في أفراد بنسب مختلفة تتراوح من قرابة 100٪ الى أقل من 60٪ واذا اجتمع أثر النمو المضطرب غير السليم مع التربية الخاطئة فقد لا يتحقق من مثل هذه الصفات الا النزر اليسير، وفي هذا هدر كبير لطاقات كان يمكن الافادة منها.

وعالم الطفل عالم غريب مجهول... وهو بالتأكيد عالم خاص لكل طفل على حدة، وان كانت بعض معالمه الاساسية متشابهة. والمهم ونحن نتعامل مع هذا العالم الخاص أن نتفهم أن الطفل هنا ينمو في اتجاهات رئيسية ثلاثة: النمو الجسدي والنمو العقلي والنمو النفسي - ولعل الاخير ليس نموا بالمعنى المعروف بل يتخذ صفة التناسق والتوازن النفسي اكثر من ميله

الى مجرد اكثار الخبرات النفسية. وهذه الاتجاهات الثلاثة ليست مستقلة منفصلة عن بعضها البعض، بل لعل العكس هو الصحيح اذ أن كل اتجاه يؤثر في الاثنين الاخرين ويتشابك معهما ويتأثر بهما. وهذه الحقيقة التي يجهلها ويتجاهلها الكثيرون ذات أهمية خاصة في التعامل مع الفرد بعامة ومع الطفل بخاصة.

ولنأخذ كلا من هذه الاتجاهات الثلاثة على حدة دون أن ننسى أنها فعلا متفاعلة مع بعضها البعض تفاعلا قويا.

الاتجاه الاول: النمو الجسدي

يبدأ الطفل حياته من لحظة الاخصاب خلية جنينية تنقسم باستمرار وتمر في أطوار تتميز فيهخا الخلايا الى ثلاثة أنواع. ويولد كل نوع من هذه الأنواع أجهزة وأنسجة معينة. ولو أخذنا أية خلية من خلايا الجنين في هذه الاطوار الاولى وتتبعناها لوجدنا أنها بانقساماتها المتكررة تولد عضوا أو أعضاء معينة خاصة بها. فلو حدث أن اتلفت هذه الخلية (بفعل مادة كيميائية أو اشعاع أو غير ذلك) فان العضو الذي كانت ستولده لا يتولد وبذا يكون الجنين مشوها ناقصا، وقد يموت ان كان هذا العضو حيويا لا يمكن الاستغناء عنه، ولذا نجد الاطباء يترددون في اعطاء الامهات الحوامل أية علاجات كيماوية الا في الحالات التي لا مناص منها.

ويعتمد استمرار الخلايا في الانقسام والتكاثر بشكل منتظم على كمية الغذاء ونوعه المتوفر للجنين. ولما كانت عملية نمو الخلايا وانقسامها عملية مستمرة اناء الليل وأطراف النهار فان من الحيوي أن يستمر الغذاء المتوفر للجنين نوعا وكما في مستوى جيد طول الوقت. وهذا يعني أن يكون غذاء الأم كافيا لها ولجنينها وأن يكون تركيز عناصره الضرورية في دم الام وبالتالي دم الجنين ثابتا باستمرار. غير أن الكثيرات من الامهات الحوامل لا يغيرن غذاءهن الذي كن يتناولنه قبل الحمل. بل ان كثيرا منهم نتيجة تأثرهن بعملية الحمل تقل كمية غذائهن وتنخفض نسب العناصر الضرورية لنمو الجنين فيه... وتكون النتيجة وخيمة على الجنين النامي.

وفي اعتقادنا أن الغالبية الساحقة من أجنة بني الانسان لا تتاح لها الفرصة للنمو والتطوير بالقدر المقرر لها نتيجة سلسلة الاخطاء والجهالات

هذه. أي أننا جميعا، أو معظمنا على الاقل، كان بالوسع أن نكون أفضل طاقة وامكانات لو كانت امهاتنا أكثر وعيا وشعورا بمسئولية الحمل ومسئوليتهن تجاه أعز من يحببن - فلذات أكبادهن.

ويولد الطفل بعد فترة الحمل - وهو، كما قلنا، عاجز عجزا يكاد يكون كاملا - ومازال أمامه تطور ونمو طويل الامد... وهذا أيضا يقتضي غذاء متزنا يحوى العناصر اللازمة للنمو والصحة والنشاط... وقد خلق الله حليب الأم غذاء متزنا للطفل الوليد في أشهره الأولى. ولكن سرعان ما يحتاج الطفل الى عناصر غذائية تساعد على نموه من جميع الاوجه. ثم يبدأ بالتغذي من غذاء العائلة المعتاد... غير أنه يظل دوما بحاجة الى زيادة في عناصر البروتين في الغذاء. فالبروتين يبني خلايا الجسم وبذا تتهيأ له فرصة طيبة لنمو متناسق سليم.

ومن المهم أن نتنبه أيضا الى أن البروتين ليس نوعا واحدا. اذ يتكون من عدد من الاحماض الامينية تتجمع مع بعضها في مجموعات لتكون البروتينات المختلفة. وهناك حوالي 21 حمضا أمينيا أساسيا لازما لنمو الخلايا وحسن عملها الفسيولوجي. ولا يوجد بروتين واحد يحوي كل الاحماض الامينية الضرورية للجسم. ولذا كان من الأمور الحيوية أن يتنوع غذاء الطفل النامي من البروتينات تنوعا شاملا، وأن لا يقتصر على نوع واحد ولو أخذ بكميات كافية. والبروتين موجود في لحوم الحيوانات البرية والطيور والاسماك وغيرها من الحيوانات البحرية وفي الاجزاء الاخرى التي تؤكل من أجسامها كالكبد والدماغ والكلى والطحال، وفي البيض والبقول والخضراوات والحبوب. وبالطبع تتفاوت كمية البروتين الموجود في هذه المأكولات وتختلف نوعا.

ومع أهمية البروتين وضرورته للنمو فان لبقية أنواع الاغذية كالدهون والكربوهيدرات والفيتامينات والاملاح وأهميتها الخاصة ولابد أن يتضمنها غذاء الطفل بنسب معينة، اذ بدون ذلك لا تستقيم صحة الطفل وبالتالي حياته.

وتستمر أهمية اتزان الغذاء وشموله العناصر اللازمة كلها طول فترة النمو وتتخذ أهمية خاصة في فترة البلوغ والمراهقة. غير أن هذا لا يعني بأن اتزان الغذاء تنتفي أهميته بعد اكتمال النمو، بل لعل حسن الغذاء

واتزانه وشموله العناصر اللازمة جميعها عملية لا يجوز اهمالها في أية فترة من فترات حياة الانسان... غير أن المهم أن ننتبه الى أن نسب عناصر الغذاء تتغير بعض الشيء بين فترة وأخرى من عمر الانسان... كما تتغير في حالات الانسان المختلفة من مرض وصحة وحسب نوع الجهد الذي يبذله من عقلي أو جسمي وحسب اختلاف فصول السنة أو مناطق الارض من حيث البرد أو الحر.

وهكذا يتضح أن عملية التغذي يجب أن تؤخذ بكثير من الجدية وكثير من الفهم العلمي اذا أردنا لها أن تؤدي إلى نمو أمثل وحياة أفضل. لا بل، وفوق ذلك، بدأ يتبدى للناس أن عملية التغذي، ان لم تؤخذ بكثير من الوعي العلمي الصحيح، فانها تؤدي الى ايذاء المرء بشكل ما. فمن ناحية يؤدي نقص البروتين في الغذاء الى اضطراب نمو الاطفال وحدوث مشكلات متعددة بالنسبة للكبار. كما يؤدي نقص أي من الفيتامينات الى أمراض خطيرة ينتهي بعضها بالموت ومثل ذلك نقص الاملاح المعدنية. ومن ناحية أخرى يؤدي عدم اتزان الغذاء الى مشكلات صحية متعددة فمثلا الاكثار من الدهون والكربوهيدرات تيدفع الجسم الى السمنة - وهي مرض لا يجب الاستهانة به... فمع كل كيلوجرام سمنة زيادة في الوزن يضطر الجسم الى تمديد شرايين وأوردة وأوعية شعرية جديدة تصل الى أمتار عديدة.

وهذا يعني أن العبء على القلب يزداد كما يزداد الضغط على المفاصل. وكذلك يسبب الاكثار من الاغذية الحاوية للكوليسترول تصلب الشرايين وضيقها وازدياد ضغط الدم وبذا يتحمل القلب أعباء اضافية، فوق ما يسببه ذلك من خطر التعرض للجلطة الدموية القاتلة. وهناك عادات سيئة كثيرة تؤذي الجهاز الهضمي أذى بالغا.

الاتجاه الثاني: النمو العقلي

لا جدال، كما ذكرنا من قبل، أن أكبر ميزة تميز الانسان عن بقية الحيوان هي عقله. والعقل مركزه الدماغ. والدماغ الانساني أعقد ما في الوجود، وأكثر دقة وغموضا من أكبر المجرات وأدق دقائق المدة سواء أكانت حية أم جمادا. وكايضاح لما نقول تكفي الاشارة بأن تقليد علاقات الخلايا العصبية في الدماغ بدوائر كهربية من أدق ما تمكن الانسان من صنعه،

يتطلب أجهزة تملأ بناية ضخمة من ناطحات السحاب تمتد قاعدتها أكثر من مائتي متر وذلك دون أن يدخل في الحسبان عمليات الفكر الانساني التي تميزه عن الحيوان كالخلق والابداع والنخيل والربط أو العقل والتجريد الخ. فهذه عمليات لم يستطع العلم بعد تقليدها.

وليس غريبا، والحالة هذه، أن يقف العلم حائراً أمام هذا التعقيد الشديد، يكتفي بمحاولة تحليل المظاهر السلوكية وتعليلها دون أن يستطيع اضفاء صفة الفرضية العلمية بدقة على تعليلاته. ذلك أن كل تعليلات علم النفس لا ترقى الى مرتبة الفرضية العلمية لأنها تعلل، في أحسن الحالات، الظاهرة السلوكية التي تبدو على غالبية الافراد. وتظل هناك أقلية، بنسب مختلفة، تتحدى التعليل ولا تتطابق معه. وهذا في العلم مدعاة لسقوط الفرضية وعدم الاخذ بها بشكل مطلق. وقد أدت الأجهزة التكنولوجية الحديثة ومنها العقول الحاسبة الالكترونية وأجهزة قياس التيارات الكهربية العصبية الدماغية خدمات جلى للعلماء الباحثين ومكنتهم من البدء بدراسة الدماغ الانساني علميا... على أنهم مازالوا في بداية الطريق.

ومن الأمور التي تزيد الصعوبات في وجه العلماء اختلاف أدمغة بني البشر... ومع أن الفكرة السائدة الى فترة وجيزة كانت أن الدماغ الانساني في جميع الناس واحد من حيث عدد الخلايا العصبية التي تكونه ومن حيث تركيبه وأقسامه - فيما عدا كون دماغ الذكر أكثر وزنا من دماغ الأنثى ببضعة جرامات - الا أن الأبحاث العلمية الحديثة أثبتت أنه لا يوجد دماغان يتشابهان تماما. فهناك اختلافات في عدد الخلايا العصبية وفي علاقة الانسجة بالاوعية الدموية التي تغذيها وهناك اختلافات دقيقة حتى في تركيب أقسام الدماغ وأجزائه وعلاقاتها ببعضها.

وواضح أن هذا قد يكون السبب، أو أحد الاسباب في اختلاف قدرات الناس العقلية وامكاناتهم الفكرية وبالتالي مهاراتهم العامة وقدرتهم على عقل الافكار وحسن التصرف في الظروف المتغيرة التي تواجههم في الحياة.

ولا مراء في أن جزءا كبيرا من هذا الاختلاف مرجعه الى العوامل الوراثية في أنوية الخلايا وهي التي يتزود المرء بنصفها من أبيه ونصفها من أمه، ولكن الذي يغمض على أكثر الناس هو أن الجزء الاخر من هذا الاختلاف مرجعه الى الظروف التي تحيط بالجنين منذ بداية تكونه حتى

يولد ومنذ أن يولد حتى سن الخامسة على الأقل... وقد أشرنا فيما سبق الى ما يمكن أن يسببه سوء تغذية الأم الحامل وسوء صحتها وما تتناوله من عقاقير ومشروبات على نمو الجنين بشكل عام... ومما لاشك فيه أن هذا يكون أشد أثرا وأبلغ ضررا على نمو الجنين العقلي. كما أن الانفعالات النفسية التي تتعرض لها الام الحامل تؤثر تأثيراً مباشراً على نمو الجنين بشكل عام وعلى نموه العقلي بشكل خاص.

ونعلم أن الجنين، بعد فترة قصيرة من بدء حياته، تتشكل خلاياه الى ثلاث طبقات: خارجية ووسطى وداخلية... ويبدأ الدماغ الانساني في التكون من الطبقة الخارجية... ويزداد نمو الدماغ نتيجة تكاثر الخلايا بالانقسام. والمعروف أن أحد العوامل أو الشروط المؤثرة في انقسام الخلايا هو نموها الذي يتأتى بالتغذي. اذ لولا نمو الخلايا قبل انقسامها لكانت الحصيلة ازدياد العدد دون ازدياد الحجم والوزن وهذا ليس بالنمو المشاهد في الاجنة والكائنات الحية بعامة. كما أنه يصاحب نمو الدماغ في الأجنة تشكلها الى أجزاء ذات علاقات وترابطات مع بعضها ومن ذلك تكون بعض القنوات والفجوات والغدد وغير ذلك في مواضع معينة وبأحجام مختلفة وعلاقات محددة. ويتدخل الغذاء ونوعه في تحديد كل هذا تحديدا يختلف، كما ذكرنا، بين دماغ ودماغ اختلافا بدأ العلماء حديثا في تبينه والتعرف عليه.

صحيح أننا لا نعرف، الان وعلى وجه التحديد، ماذا يفعله سوء الغذاء أو الامتناع عنه فترة من اليوم في نمو دماغ الجنين... أي أننا لا نعرف أين يكون الاثر ولا ما هو مبلغ الضرر... ولكن هذا لا يعني أن الضرر لم يحدث... فالقاء حجر على شجرة دون أن يسقط ثمرة منها لا يعني أنه لم يؤثر في الشجرة... فقد يكسر غصنا غضا دون أن يوقعه أو يقتل برعما في بدء تفتحه.

والقول القديم بأن الجنين، ان لم يرده غذاء كاف عن طريق دم الأم عبر المشيمة، يأخذ حاجته من الغذاء من جسمها قول خاطئ. ذلك أنه معتمد الى حد كبير جدا على الغذاء الذي يرد اليه من دم أمه والمهم أن يكون توارد هذا الغذاء منتظما، فليس عند الجنين وقت لانقسام خلاياه ووقت للراحة... اذ أن عملية الانقسام والنمو مستمرة الى أن يكتمل تكون أعضائه كلها.

وليس معنى ذلك، من ناحية أخرى، أن تظل الأم تأكل طول يومها... ولكن عليها أن تتناول وجبات أكثر عددا من المعتاد، وأقل كمية بالطبع، وأن تكون هذه الوجبات في فترات متناسقة طولا، كما يجب أن تكون هذه الوجبات متزنة من حيث العناصر الغذائية التي تحويها.

على أن دم الأم لا ينقل الى الجنين عبر المشيمة الغذاء والاكسجين فقط بل ينقل اليه ما يحمله من عقاقير أو كحول أو سموم... ولكل من هذه أثرها الضار في الجنين ونموه... وحتى النيكوتين في دم الامهات الحوامل المدخنات يؤثر في الجنين الغض أضعاف تأثيره على الام نفسها. وقد ثبت أن الحومل مدمنات المخدرات ينقلن الى أجنتهن الادمان. أما تعرض الحامل للاشعاع الذي يخترق جسمها وجسم جنينها فعملية خطرة جدا... ذلك أن عدد خلايا الجنين في بداية تكونه قليل... وتأثر خلية بالاشعاع يعني تأثر كل الخلايا التي ستنتج عن انقسام تلك الخلية... وهنا يكون الضرر بالغا. وقد قام العلماء بأبحاث مستفيضة عن تأثير الاشعاع على الأجنة في الحيوانات المختلفة. ومن تعريض الأجنة للاشعاع نتجت صغار مشوهة في أعضاء معينة تبعا للجزء الذي عرض للاشعاع.

ولعل أكثر أمر لا يحفل به ولا يعطى القدر اللازم من الاهتمام هو تأثير الانفعالات النفسية التي تحدث للحامل على الجنين. اذ رغم أنه واضح ومعروف أن الانفعالات النفسية لها تأثير مباشر على الحالة الجسدية للمرء الا أنه قلما يهتم بها وقلما نجد من يحاول تفادي تأثيراتها. والانفعالات النفسية أنواع منها المفرح والمحزن والمغضب والمقلق والمخيف المرعب الخ... ويصاحب كل انفعال نفسي انطلاق هورمون أو هورمونات في الدم فتؤثر في الجسم ويصل تأثيرها الى الجنين عبر المشيمة. وقد ثبت أن الانفعالات النفسية المفرحة لها تأثيرات حسنة على الجسم ولعل ميل الفرح السعيد للرقص والغناء والحركة والضحك دليل على ما يسببه افراز مثل تلك الهورمونات. كما ان الحزين يكون قليل النشاط والرغبة في الحركة وتنتابه نوبات اكتئاب وأحيانا اضطراب. ولا يحتاج الامر لكثير من الفراسة لتبين أن الحزن يؤثر تأثيراً سيئا على الحيوية والنشاط.

أما الغاضب فانه يصرف طاقة بكمية كبيرة ويستتبع ذلك ازدياد نشاط القلب وارتفاع ضغط الدم وغير ذلك من تأثيرات على العضلات توالاجهزة

في الجسم. والقلق يصيبه ما يصيب الغاضب ولو بدرجة أقل... ولكن هذه الحالة ان استمرت مدة أدت الى أضرار جسمية بالغة تنجم عن اضطراب وظائف الأجهزة وعلاقاتها ببعضها. ولعل الاصابة بالقرحة المعدية أو المعوية احدى نتائج التعرض للقلق مدة من الزمن. كما أن الخوف والرعب كانا ومازالا من أشد ما يتعرض له الانسان اضرارا به، ولذا نجد أن التحرر من الخوف دعوة ينادي بها المهتمون بالانسان والانسانية بنفس قوة مناداتهم بالدعوة للتحرر من الفقر والجوع. أما الرعب فكثيرا ما قتل في الحال.

ولسنا بسبيل تفصيل آثار هذه الانفعالات هنا فقد أصبح معروفا لدى الناس بعامة الاثر المتبادل للحالة النفسية على الحالة الجسدية. وصار الاطباء يرون في كثير من شكاوى المرضى الجسدية أسبابا وعللا نفسية بحتة.

فاذا كان لهذه الانفعالات وهورموناتها كل هذه التأثيرات على الجسم البالغ فما هو مدى تأثيرها على جسم الجنين النامي الغض؟ وهو أقل قدرة على التكيف بهذه التأثيرات الضارة.

ولو نحن تساءلنا كم من الامهات الحوامل يتقين الانفعالات النفسية الضارة أثناء فترة الحمل؟ وكم من الازواج يساعدون زوجاتهم على تخطي فترة الحمل وهن في حالة نفسية فرحة سعيدة؟ لوجدنا في الجوابين مبلغ ما يهدر انسانيا من امكانات هؤلاء الصغار في فترة تكونهم ونموهم وهي أهم فترة من فترات حياتهم.

على أن نمو الاطفال العقلي لا يتوقف عند الولادة، وان كانت أعداد الخلايا العصبية في الدماغ قد تكاملت أو كادت، كما أن تركيبات الدماغ وعلاقات أجزائه ببعضها قد تحددت وانتهى بها الأمر الى ما وصلت اليه في شهر الحمل السابع، ذلك أن النمو العقلي شيء أكثر من عدد الخلايا العصبية وشكل اتصالاتها ببعضها - اذ يشمل أيضا الافادة منها واستعمالها بأقصى درجة من الكفاءة الممكنة التي تسمح بها عوامل الوراثة من جهة وحسن نموها وتكونها أثناء الحمل من جهة أخرى.

فالطفل الانساني يولد - على العكس من صغار الحيوان - ودماغه خلو الا من قليل من المعلومات الغريزية... كأن يستقبل ثدي أمه بفمه ويرضع منه وأن يصيح ان تألم أو تضايق أو جاع... والمعروف أن عقله ينمو مع نمو

جسمه - حتى أن علماء النفس يضعون للطفل عمرا عقليا وعمرا جسميا، أو زمنيا. ونمو العقل يتأثر بدرجة كبيرة بمبلغ ما يصل الى هذا العقل الخالي الغض من تأثيرات أو مؤثرات من البيئة حوله... وكأنما هذه المؤثرات حوافز تحفز الخلايا العصبية على أن تعمل وتنشط وتكون دوائر كهربية عصبية جديدة وفي هذا نمو للعقل.

ويمكننا أن نوضح الأمر، بعد، بالقول بأن الدماغ من حيث التركيب وعدد الخلايا ينتهي نموا قبيل الولادة ولكن العقل وهو المظهر الوظيفي للدماغ يستمر في النمو والتطور بعد تمام نمو الدماغ... ولكن العلماء يختلفون في متى يتوقف أو يتم نمو العقل... فمنهم من يرى أن نمو العقل يستمر طول العمر - ما لم يصب المرء بالوهن العقلي في الشيخوخة - ومنهم من يرى أن نمو العقل يتوقف ما بين سن الحادية والعشرين والثلاثين، ويذهب هؤلاء الى أن هذا هو حد العمر الخلاق عقليا وفكريا. واخرون يرون أن بوسع الانسان أن يحصل على المعلومات الأساسية حتى سن الثالثة عشرة وأن كل ما يأتي بعدها لا يعدو أن يكون مجرد تجارب وربط بين هذه المعلومات.

غير أن العلماء جميعا متفقون على أن نمو الطفل العقلي منذ ولادته حتى سن الرابعة أو الخامسة يشكل نسبيا أكبر قدر من النمو العقلي في حياته. ولذا فهم يعتبرون هذه الفترة من أخطر فترات حياته من حيث النمو والتطور.

وقد لوحظ أن نسبة كبيرة جدا من الاطفال المتخلفين عقليا يكونون من أولئك الذين، لسبب أو لاخر، حرموا من رعاية أمهاتهم، دون أن يعوض ذلك برعاية من تحل محل الام. فقد كانت نسبة كبيرة جدا من بين الاطفال المتخلفين عقليا من أطفال انفصل الابوان عن بعضهما وتحطم البيت وأهمل الاطفال، كما كان عدد كبير اخر لامهات عاملات لا يجدن الوقت ولا الطاقة للعناية بهم. وقسم اخر لامهات جاهلات أو منحرفات لا يحسسن بالامومة بشكلها الصحيح...

وقد أدت هذه الملاحظة الى قيام عدد من العلماء بأبحاث عملية متصلة حول هذه الظاهرة الملفتة للنظر. وقد ثبت لهؤلاء العلماء نتيجة أبحاثهم أن عقل الطفل ينمو ويتفتح ويتطور منذ الولادة بقدر ما يصله من أحاسيس.

ولما كان عاجزا عن تقبل هذه الاحاسيس وحده فان صلته بأمه ومبلغ التصاقه بها يساعدان على هذا النمو. أي أن الام التي تعمل باستمرار على ايصال تيار من المؤثرات والاحاسيس الى عقل طفلها عبر حواسه الخمس تقوم بعملية هامة وهي حث عقله على النمو والتطور. وعلى ذلك فالأم عند ارضاع طفلها يجب أن تريه وجهها وتكلمه أثناء الرضاع بصوت ينم عن المحبة وتلمس يديه ووجهه وجسمه. وبذا يتوارد على عقل هذا الطفل مؤثرات متعددة عبر عينيه وأذنيه وحاسة لمسه وشمه وذوقه. وبنفس الاسلوب يجب أن تكون مداعبة الصغير في غير فترة الرضاع عبر اكثر من حاسة من حواسه ومثل ذلك عند هدهدته لينام.

أما الامهات اللواتي تقل صلتهن بأطفالهن ويكاد ينعدم التصاقهم بهن فانهن يعرضن هؤلاء الاطفال لخطر نقص النمو العقلي. كما ثبت أيضا، من خلال هذه الابحاث أن وضع الطفل في سرير متحرك أو أرجوحة أفضل كثيرا من وضعه في سرير ثابت، نظرا لان الطفل قبل أن يولد تعود على الحركة التي كانت تنتقل اليه وهو في الرحم نتيجة حركة الأم المعتادة ومن الطبيعي أن يكون استمرار الحركة بعد الولادة مدعاة لاثارة العقل نتيجة تغير الاحاسيس وتعددها.

وفي رأي هؤلاء العلماء أن ترك الأم لطفلها ساعات طويلة دون أن تتصل به بشكل أو بآخر ودون أن تلبي حاجاته عندما يطلبها - كأن تكون الأم عاملة أو ذات ارتباطات اجتماعية تأخذ الجزء الاكبر من وقتها، يؤدي الى تخلف هذا الطفل عقليا. وقد تدعمت آراء هؤلاء العلماء بأبحاثهم على نوع من القردة التي تلد صغارها فتتعلق هذه الصغار بأمهاتها تنتقل معهن أينما ذهبن وتحتمي بهن من أي خطر، ويرضعن منها وهي معلقة بهن، فقام العلماء بانتزاع الصغار من الامهات بعد الولادة مباشرة وربوا الصغار في أقفاص خاصة بحيث كان كل صغير معزولا عن رفاقه ودون أية صلة بأمه. وقدموا لكل صغير من هذه كل ما يحتاجه من حليب ثم طعام عن طريق ألات وأجهزة خاصة، ووفرت له كل سبل الرعاية الآلية، وفيما عدا ذلك كان يترك وحيدا منفردا بنفسه. وقد وجد العلماء أن هذه الصغار نمت جسميا ولكنها كانت متخلفة عقليا بالنسبة للصغار التي نمت مرتبطة بأمهاتها.

ولعله من الواضح، نتيجة هذه الابحاث، أن هناك ارتباطا ما بين عناية

الأم بصغيرها والتصاقها به من جهة ونمو عقله الصغير وتطوره من جهة أخرى وذلك في الفترة الحرجة ما بين الولادة وبين سن الرابعة أو الخامسة. وليس غريبا والحالة هذه أن تعطي جميع الشرائع السماوية والوضعية حضانة الصغير لأمه ما لم يكن هناك خطر من اهمال الأم له في حالات محددة.

ومن المهم هنا أن نذكر أن نمو الدماغ أثناء الحمل نموا متكاملا الى أقصى ما تحدده العوامل الوراثية في الجنين، ونمو العقل وتطوره في فترة الطفولة المبكرة بشكل غير معوق من أية ناحية، أمران حيويان يعطيان تكاثر الانسان أبعادا انسانية وبذا لا يكون مجرد تكاثر عددي كالحيوانات.

الاتجاه الثالث: النمو النفسي

لا يتكامل نمو الانسان بنمو جسمه أو عقله أو كليهما فقط، بل لا بد من أن يصاحب ذلك نمو أو تناسق نفسي. وهذا الاخير يتدخل في تشكيل سلوك الانسان وتحويره... والانسان الذي ينقصه هذا التوافق النفسي ينحرف عن السلوك الانساني السوي وتصبح امكاناته الجسمية والعقلية عرضة لاساءة استعمالها مما يؤدي الى احتباس امكانات الفرد وقد يؤدي الى تهديمه والقضاء عليه.

ومن الواضح أن النمو النفسي المتناسق من أهم مقومات شخصية الانسان، ان لم يكن أهمها على الاطلاق. وشخصيته هي التي تحدد اتجاهاته وسلوكه... بل انها هي التي تقرر مدى ما يمكن أن يفيده من مواهبه وقدراته وشكل الانسان الذي سيكونه.

غير أن الذي يجهله الكثيرون، والكثيرون جدا، ان معظم العوامل النفسية, ان لم تكن كلها، تتحدد وتتقرر في الفترة الحرجة من نمو الانسان - أي منذ ولادته وحتى سن الرابعة أو الخامسة من عمره.. ويجلب هذا الجهل الكثير من المآسي والمصائب على الاطفال وبالتالي على أهلهم ومجتمعهم.

ان القول بأن الطفل أبو الرجل صحيح الى حد بعيد.. ذلك أن الحصيلة النفسية التي يخرج بها الطفل بعد سن الخامسة هي التي تبقى معه الى آخر عمره. وقد يتعلم المرء أن يخفي بعضا من جوانب نفسيته عن الآخرين، أو يعدل من مظاهرها وأعراضها ولكنه لا يستطيع أن يغيرها أو يزيلها أو

يستبدلها.

وكثير من المظاهر النفسية السيئة منشؤها اساءات حدثت للصغير في هذه السن الغضة، وكثير منها حدث بسبب جهل الوالدين المسئولين عن تربية هذا الصغير أو أحدهما أو بعض الاخرين ممن يتصلون بهذا الصغير في بيئته.

ولعل من أسباب اساءة الكبار للصغار نفسيا في هذه المرحلة الحرجة من عمرهم جهلهم بأن عالم الطفولة عالم قائم بذاته نجهل عنه الكثير، ولم نبدأ بدراسته بعمق بعد... وهو بالتأكيد عالم يختلف اختلافا بينا عن عالم الكبار... ولكن الكبار، في أغلب الحالات، يتصورون، عن جهل، أن الصغير عبارة عن كبير حجمه مازال صغيرا... فهم يخلعون على الصغير كل صفات الكبير ويتطلبون منه أن يكون سلوكه متسقا مع سلوك الكبير... فيلبسونه ملابس أقرب ما تكون الى ملابس الكبير مصغرة وينتظرون منه أن يحاكي الكبار سلوكا وتصرفات وأن يتفهم أصول آداب المعاشرة الاجتماعية. وهكذا نجدهم يتطلبون من طفل الثالثة أو الرابعة أن يجلس ساكنا في حضرتهم ليفسح المجال لحديثهم أو ثرثرتهم منتظرين منه أن يكون كله آذانا صاغية لما يقولون والمسكين الصغير بعيد كل البعد من ناحية اهتماماته وأحيانا من حيث فهمه لما يتحدثون عنه. ويحدث كثيرا أن يجد الصغير في متناول يده قطعة أثرية أو زخرفية ثمينة فتدفعه غريزة حب الاستطلاع الى اللعب بها... ويحدث أن تقع هذه القطعة من يده وتتكسر وهو في هذه الحالة لا يعي معنى انكسارها وضياعها. وتكون الطامة الكبرى عندما يعاقبه الكبار على فعلته (أو على عدم استعداده للجلوس ساكنا طول فترة حديثهم وثرثرتهم) عقابا معنويا أو جسديا.. وهو لا يدري سبب هذا العقاب. ولعل كل ما يحس به، نتيجة ذلك، هو الشعور بالظلم والشعور بأنه غير محبوب أو مرغوب فيه. وهذا الشعور من أخطر ما يمكن أن يتعرض له طفل في مثل سنه، نظرا لما يترتب عليه من آثار نفسية لها مضاعفات وانعكاسات على شخصيته وسلوكه مستقبلا.

وهناك، من ناحية أخرى، ما يشعر به الكبار بعض الصغار من تمييز في المعاملة وتفضيل بعضهم على بعض وأغداق المحبة على فريق دون آخر وبخاصة بين الاخوة سواء أكانوا اشقاء أم غير أشقاء.

ويشتط بعض الكبار في قسوتهم على صغارهم نفسيا، من ناحية أخرى، كأن يرى الاب في طفله صورة نفسه مجسدة، ونتيجة ذلك ينتظر من ولده أن يكون صورة طبق الاصل لابيه كما أصبح لا كما كان. وهو بذلك ينسى أنه خلال عمره مر بكثير من التجارب حلوها ومرها وأن هذه التجارب علمته أشياء عديدة، وأنه يصعب على طفله أن يكون، وهو في طفولته، بالصورة والمستوى اللذين وصل اليهما الاب. كما أنه ينسى أن طفله مختلف عنه صفات وامكانات. وقد يكون طفله بعضا أو نصفا منه أو أكثر ولكنه على كل ليس توأمه الشقيق المتشابه (فليس هناك غيرهما يتشابهان تماما). وهكذا نجد كثيرا من الآباء يثورون على أبنائهم لان هؤلاء لم يفهموا حل مسألة حسابية بسرعة أو لم يظهروا ميلا للعزف على آلة موسيقية بينما هم يتقنون العزف عليها، أو لم يكن رد فعلهم، في ظرف ما، كما ينتظر الآباء منهم... الى آخر ما هنالك.

وهم في ثورتهم هذه أنانيون جاهلون ولا يدركون أن ردود فعلهم هذه تصيب أطفالهم بأذى نفسي كبير قد يصل حد العقد النفسية, وهذه تؤثر في شخصياتهم تأثيرا يتضح مداه ونتائجه في مستقبل حياتهم. وقد يكون الاثر مدمرا الى حد كبير.

ونجد الكثير من الامهات والآباء يعاقبون أبناءهم في هذه السن الحرجة، ولو أنصفوا لعاقبوا أنفسهم... فهم أولا مسئولون عن اختيارهم لبعض أزواجا، ومسئولون بعد عن انجاب الاطفال واعطاء كل منهم حصيلة وراثية محددة تنتج في الاطفال صفات مظهرية وعقلية معينة. ثم هم مسئولون عن النقص في النمو والتطور أثناء الحمل وبعد الولادة، وهم مسئولون فوق ذلك عن تحديد بنية أطفالهم النفسية وشكل شخصياتهم. ثم انهم مسئولون عن مدى اعدادهم للحياة وأسلوبه.

ولا يقتصر عقاب الاطفال على العقاب المادي، بل لعل العقاب المعنوي يماثل المادي خطرا وايذاء. ويتأثر الاطفال فوق ذلك بالجو العام المسيطر على الاسرة. فكل خلاف بين الزوجين وكل مظهر من مظاهر عدم التوافق الزوجي وما يستتبعه من نتائج تؤثر في الاطفال تاثرات شديدة سيئة.. ذلك أنها تورثهم القلق والشعور بنقص في المحبة وهذان ينعكسان على نفسيات الاطفال وبالتالي شخصياتهم وسلوكهم في المستقبل.

ولعل أكثر ما يخيف المرء في هذا المجال أن الغالبية العظمى من الناس تمعن في الخطأ في تربية أطفالهم الى حد يتساءل معه المرء كم من القدرات والامكانات تهدر نتيجة سلسلة الاخطاء هذه. وبالتالي كم يفقد المجتمع والانسانية من حصيلة التكاثر النهائية بمفهوم التكاثر الانساني.

ومن الواضح أن علينا في مواجهة مشكلة التكاثر المتزايد والانفجار السكاني أن نأخذ بعين الاعتبار أن الاعداد وحدها، وأن كانت مشكلة بحد ذاتها، ليست كل المشكلة... فجزء كبير من المشكلة يتعلق بأن يكون التكاثر مثمرا وذا مردود مفيد بمعنى أن تكون الاعداد المنجبة متمتعة بقدراتها وامكاناتها الجسدية والعقلية والنفسية كافة. وبهذا وحده يكتسب التكاثر بعده الانساني الذي يميزه عن التكاثر عند الحيوان بعامة.

وكما سبق أن ذكرنا لا يمكن ان يتم هذا دون جهد متصل من الابوين وأفراد المجتمع والقائمين على التربية مع فهم عميق للفرق بين تكاثر الانسان وتكاثر الحيوان وقناعة تامة بأن عملية التكاثر عند الحيوان هي مجرد عملية استمرار النوع وحفظه فقط بينما هي عند الانسان، فوق ذلك، تحقيق لانسانية الجيل الجديد ولقدراتهم وامكاناتهم في سبيل خيرهم وخير مجتمعهم وبالتالي خير الانسانية جمعاء.

المشكلة وتحديات المستقبل:

يتضح مما سبق أن الانسان في هذا العصر يواجه مشكلة لم تكن تواجه أسلافه بأبعادها العددية والانسانية - وان كانت أبعادها الانسانية ماثلة منذ القديم... ومن الواضح أيضا أن هذه المشكلة تتطور بسرعة الى حدود الكارثة مما يشكل تحديا خطرا لحياة الانسان على سطح هذه الكرة الارضية... فتزايد أعداد بني الانسان بالشكل القائم حاليا من أكبر العوامل التي تستنزف مصادر الارض الطبيعية وبخاصة ما لا يمكن تعويضه منها.

وقد كانت الحياة في الطبيعة، منذ أن خلقها الله، في توازن مستمر مع البيئة. وكانت سلسلة الضوابط الطبيعية تجعل هذا التوازن ممكنا... فاذا كانت الظروف المناخية في البيئة، مثلا، مناسبة للتكاثر ازداد التكاثر ولكن الى حد محدد.. ذلك أن عوامل وفرة الغذاء مثلا، أو عدم وفرته للاعداد المتزايدة، سرعان ما كانت تتدخل للاقلال من هذا التكاثر... ولو كانت

عوامل وفرة الغذاء مناسبة وموائمة فان ازدحام الاعداد المتكاثرة يحد من هذا التكاثر ويبطىء سرعته... وهناك عوامل متعددة في الطبيعة كانت ومازالت فعالة في ضبط تكاثر الكائنات الحية، كما ذكرنا آنفا.

غير أن الصورة تختلف اختلافا بينا عندما نأتي الى بحث التكاثر الانساني. فقد استطاع الانسان أن يتخطى الضوابط الطبيعية التي تحد من التكاثر... فهو قادر على التزاوج بعد البلوغ في أي وقت بينما تحصر معظم الحيوانات تزاوجها في فترة محددة وموسم معين. وهو قادر على تغيير أساليب تغذية فلا يضيره كثيرا فقدان نوع من الغذاء، كما أن بوسعه تعديل أساليب انتاج الغذاء وتحويرها بحيث يضمن كميات كافية منه، وفوق ذلك يستطيع التحكم الى حد ما في العوامل الاخرى التي تتدخل لتقلل من تكاثره... فقد تمكن من خفض معدل وفيات أطفاله الى حد كبير، واستطاع زيادة فترة الحياة المتوقعة في المتوسط الى حوالي ثلاثة أضعاف ما كانته قبل الف عام تقريبا. ومثل هذا كثير.

ويعتقد العلماء أن بني الانسان غيروا من أسلوب تغذيهم مرتين في تاريخهم منذ أن خلق الله الانسان قبل مليون سنة تقريبا.. فقد بدأ الانسان صيادا وجامع غذاء من الطبيعة... ثم حصل التغيير الاول عندما تحول الانسان الى مزارع ينمي غذاءه ويكثره بنفسه.. ويعرف هذا التحول بالثورة الزراعية. ولايضاح أثر هذه الثورة في معدل الغذاء المستهلك نورد بأن الانسان في بداية عهده كان يصطاد الثيران البرية أو غيرها من الحيوانات آكلة النبات... والمعروف أن عشر ١٠/١ ما يأكله الحيوان من نبات يتحول الى لحم.. ونتيجة للثورة الزراعية تخطى الانسان الحيوان وتحول بدرجة كبيرة للتغذية على النبات، وصار اعتماده على لحم الحيوانات اعتمادا جزئيا وليس رئيسيا بمعنى أن جزءا صغيرا نسبيا من غذائه بقي لحما والجزء الاكبر أصبح نباتا. وبتحول الانسان من التغذي رئيسيا على اللحم الى النبات الذي كان الحيوان يستهلكه لبناء اللحم استطاع أن يحصل على طاقة غذائية تساوي عشرة أمثال ما كان يحصل عليه من اللحم، وبذا تمكن من أن يجعل الرقعة التي كان يعيش عليها عدد محدود من البشر تتسع لاعداد أكثر من ذلك بكثير.

وبعد عشرة آلاف سنة حدث التغيير الثاني وهو الثورة العلمية الصناعية.

وهذه أدت الى ادخال تحسينات حيوية وميكانيكية وكيميائية على الزراعة وتمكن الانسان بوساطتها من زيادة انتاج مزارعه الى حد كبير، وبالتالي أصبح بالوسع ازدياد أعداد الناس المعتمدين في غذائهم على تلك المزارع.

وكان من الطبيعي أن تحدث زيادات ملموسة في أعداد البشر عقب كل ثورة من هاتين الثورتين... ولكن هذه الزيادات لم تحدث في كل المجتمعات الانسانية بشكل منتظم أو في آن واحد.. نظرا لان الثورتين لم تحدثا في كل مكان من الارض، كما كانت سرعة انتشارهما مختلفة حسب طبيعة المجتمعات... لا بل أن سكان استراليا الاصليين، وبعض قبائل أفريقيا بدرجة أقل، ما زالوا في غالبيتهم بمعزل عن الثورة العلمية التكنولوجية وحتى عن الثورة الزراعية... ونجد قسما كبيرا منهم مازال يعيش عيشة الانسان الصياد الاول.

وليس غريبا أن نجد تفاوتا في اثر كل من الثورتين.. اذ أنه من الواضح أن أثر الثورة العلمية التكنولوجية كان أشد وأقوى من أثر الثورة الزراعية... فمعدل تزايد أعداد السكان عقب الثورة العلمية التكنولوجية أعلى بكثير من معدل التزايد عقب الثورة الزراعية.. ولعل السبب يرجع الى أن هذه الثورة العلمية التكنولوجية لم تكتف بزيادة الغذاء المتاح لبني الانسان فقط، بل صاحبها ونشأ عنها تقدم في الاساليب الصحية والطبية أدى الى انخفاض عدد وفيات الاطفال والكبار على السواء وازدياد فترة حياة الفرد المرتقبة وليس أدل على ما ذهبنا اليه من أن بعض القبائل في أفريقيا وأمريكا الجنوبية التي تعيش عيشة زراعية بدائية وهي معزولة عن المجتمعات الاخرى، ولم تتأثر، بعد، بالثورة العلمية التكنولوجية مازالت منذ زمن طويل محافظة على عدد أفرادها ثابتا.

ونتيجة لكل هذا حدث الانفجار السكاني.. ومازال يتفاقم الى حد أن أعداد الناس ستصبح من الكثرة بحيث يتعذر ايجاد طعام كاف لهم وبالتالي يتهدد وجود الانسان على سطح هذه المعمورة في المستقبل غير البعيد.

وفوق هذه المشكلة العددية وبسببها الى حد كبير، ستزيد مشكلة الانسان في ضمان حسن اعداد هذه الاعداد المتكاثرة بحيث تعيش معا في سلام وعمل متكامل وتعاون وانتاج متوافق مع قدراتهم الكامنة وكل امكاناتهم.

اتجاهات العلم في محاولاته ايجاد حلول للمشكلة:

فيما يتعلق بمشكلة الانفجار السكاني ليس لدى العلم حل أو حلول واضحة، وليست هناك اتجاهات متبلورة يمكن أن تعطي أملا بحل يأتي في المستقبل المنظور. وكل ما يراه العلم في هذا السبيل هو نفس ما يراه علماء الاجتماع والسياسيون والمثقفون والمفكرون - وهو تقليل النسل والحد من التكاثر. وكل ما أسهم به العلم والبحث العلمي في هذا المجال هو تقديم وسائط مختلفة الفعالية لمنع الحمل.

على أن تقليل النسل عملية يصعب على الدولة فرضها لاسباب عديدة منها أن الزواج وبالتالي التكاثر عملية شخصية والتدخل فيها أو في أي منحى من مناحيها تدخل في صميم حرية الناس، وهو ما لا يقبله الفرد ولا المجتمع. وقد حاولت بعض الدول كاسبارطة قديما والمانيا النازية في العصر الحديث التدخل بشكل أو بآخر للحد من التكاثر العشوائي والانجاب الضعيف. ولكن مثل هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح أو الاستمرار والانتشار.

وحديثا بدأت محاولات، بمباركة هيئة الامم المتحدة واشرافها، للدعاية في المجتمعات كثيرة السكان بهدف اقناع الناس للحد من التكاثر طواعية... واعتمدت هذه المحاولات وسائل تثقيفية وترغيبية منوعة. ولكن جدواها ما زالت محدودة الاثر حتى الان.

وقد أسهم في عدم نجاح هذه المحاولات النجاح المرجو أن العلم لم يستطع حتى الان ابتداع وسيلة أو دواء يقلل النسل ويكون في نفس الوقت سهل التطبيق وعديم الاثر أو المضاعفات من أي نوع. كما زاد في الصعوبات في طريق هذه المحاولات أن الديانات السماوية ومعظم المعتقدات الانسانية تعارض في تطبيق وسائل الحد من التكاثر، باعتبارها وسائل تتعارض مع غاية الزواج الاساسية وهي، بعد، في حكم هذه الديانات والمعتقدات، قتل لروح انسانية هي روح الجنين. ولم تقتصر المعارضة على رجال الدين فقط بل انضم اليهم عدد كبير من الناس... ويبدو أن الفرد الانساني يرى في الانجاب عملية تكمل رجولته أو أنوثتها وتشبع غريزة متأصلة فيه... وفوق ذلك يرى الفرد الانساني أن الانجاب استمرار لوجوده الذي يعلم يقينا أنه محدود... وقلما نجد من يتفق مع أبي العلاء المعري فيما ذهب اليه عندما

قال:

«هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد»

بل لعلنا نلمس في أعماق عقل الانسان الباطن بقية من شعور الانسان في الماضي بالطمانينة والراحة وضمان وفرة الغذاء اذا كان عنده بنون كثيرون يساعدونه ويشدون أزره... ومن هذا الشعور كان يتفرع الشعور بالامن اذا كبرت عشيرة المرء.

ونجد ظاهرة كثرة الابناء والاحفاد منتشرة منذ القديم... ومازالت منتشرة في كثير من أصقاع الارض.. وقد ضعفت هذه الظاهرة في بعض المجتمعات وبخاصة المتقدمة منها وصارت القاعدة قلة عدد الابناء بدلا من كثرتهم، نتيجة تدخل اعتبارات عديدة. ولعل من أهم هذه الاعتبارات القيود الاقتصادية كتزايد تكاليف تربية الابناء, واضمحلال الصناعات الفردية والعائلية التي كانت تزدهر بازدياد عدد أفراد العائلة، وضعف الروابط العائلية واتجاه الابناء للاستقلال بحياتهم في سن مبكرة وبذا تنتفي الغاية من اكثارهم، وكذلك ازدياد مكننة الزراعة مما جعل الاعتماد على العامل الانساني يقل كثيرا ودفع بأعداد من افراد العائلة الزراعية للهجرة الى المدينة حيث الصناعة وفرص العمل أوفر. كما يعتقد بعض العلماء بأن معدل الانجاب مرتبط حيويا وفكريا بدرجة الثقافة عند الابوين فيقل معدل الانجاب بارتفاع المستوى الثقافي.

ويتدخل عامل آخر في أمر قبول الناس في الدول المتخلفة لفكرة الحد من النسل والتكاثر... وذلك أن الاقتراح أصلا جاء من الدول المتقدمة التي سبق وحدت من النسل فيها ولكنها فعلت ذلك بعد أن وصلت شأوا متقدما في الحضارة العلمية والتكنولوجية، وصار يهمها أن تحافظ لسكانها على مستوى معيشي مرتفع، بينما الدول المتخلفة لم تلحق بالركب بعد ومازال أمهامها جهد كبير للارتفاع الى مستوى الدول المتقدمة وهي في ذلك بحاجة الى اكثار عدد سكانها لمواجهة متطلبات التحول الى التصنيع. وقد بدأت بعض هذه الدول ترى بوضوح أن أكبر رأسمال لها وأهم مصدر ثروة عندها هو العنصر البشري. فكيف يمكن أن تقتنع، والحالة هذه، بفكرة الحد من النسل والتكاثر؟ وقد فشلت فشلا ذريعا مؤتمرات دولية عقدت من الدول المتقدمة والمتخلفة للاتفاق على صيغة مقبولة للطرفين في هذا

الامر.

ولعل حيرة العلم أمام هذه المشكلة وعدم وجود بادرة لأي حل لها مرجعه أن العلم نفسه أسهم الى حد كبير في خلق هذه المشكلة... فمازالت معظم جهود الباحثين من العلماء تتجه عبر ميادين البحث المختلفة نحو توفير الامكانات لزيادة عدد سكان الارض لا العكس... ذلك أن معظم الابحاث في الطب وعلم الحياة تتجه الى الحفاظ على حياة الفرد ومد فترتها أطول مدة ممكنة... كما تسهم الابحاث في جميع الميادين الاخرى في جعل هذه الحياة الطويلة رغدة هانئة.

ولا بد من القول بأن مشكلة الانفجار السكاني - مع أنها مشكلة تهم العالم كله وتؤثر في جميع المجتمعات البشرية - الا أن حدتها تتركز في المجتمعات المتخلفة والفقيرة. فالمجتمعات المتقدمة، كما ذكرنا، تخطتها في العصر الحديث ولم تعد مشكلة بالنسبة لها الا بمقدار ما تنعكس عليها من المناطق التي تتركز حدتها فيها. ذلك أن العالم واحد والناس فيه أينما كانوا لا يمكن أن يعزلوا أنفسهم في قوقعة أو برج عاجي، ولا بد أن تتاثر بعض بقاعة بما يجري في بعض بقاعه الأخرى.

كما أن علينا أن ننتبه الى أن هبوط معدل الانجاب في البلاد المتقدمة, فوق أنه مكن لهذه البلاد تحسين مستوى معيشة الناس فيها، جعلها قادرة على الالتفات الى الناحية الكيفية من التكاثر بمعنى زيادة العناية بالصغار وتربيتهم بحيث يؤدي ذلك الى صقل مواهبهم وتطوير امكاناتهم وقدراتهم. وهذا، في اعتقادنا، أهم عوامل تقدم هذه الدول وازدياد هذا التقدم... وتكون النتيجة اتساع الهوة الفاصلى بينها وبين الدول المتخلفة - ذلك أن استثمار القوى البشرية في أي مجتمع استثمارا سليما جيدا هو خير استثمار لاهم مورد من موارد ذلك المجتمع.

نعم الاله على العباد كثيرة واجلهن نجابة الاولاد

وفي هذا المجال قدم البحث العلمي بعض الجهد، غير أن اسهامه بدأ متأخرا. فقد احتكر المربون هذا المجال مدة طويلة جدا، وكانت آراء المربين - كآراء الفلاسفة - هي التي تتحكم في نظم التربية وأساليب التعليم... وحتى عندما اعتمد المربون على علم النفس لم يكن الامر سليما، ولعل أكبر دليل على ذلك كثرة الآراء والمدارس التربوية وتعارضها وتخبطها فيما

مضى من عمر الانسانية. وقد أدى ذلك الى هدر كبير لطاقات بني الانسان، وان اختلف قدرا باختلاف المجتمعات.

وفي اعتقادنا أن هذا التخبط سيستمر بشكل أو بآخر ما استمر عالم الطفولة مجهولا الى حد كبير وما بقي فهمنا للعقل الانساني غير تام. وعلى ذلك فان المنطلق السليم هو مزيد من البحث العلمي في عالم الطفولة - وهو كما ذكرنا مختلف تمام الاختلاف عن عالم الكبار الذين يخططون له - ومزيد من البحث العلمي لفهم الدماغ الانساني، وبالتالي فكر الانسان وعقله وطرق تفكيره واختلاف كل ذلك بين فرد وآخر. فبهذا كمنطلق يمكننا أن نجعل من عملية تربية الصغار عملية استثمار مجزية وذات مردود مادي ومعنوي انساني كبير.

ان الامر أكبر من أن يصرف بالقول بأن ما صلح لمن سبقنا يصلح لنا فالتحدي يطل بقرنه ضخما خطرا... والذي يجب أن ننتبه اليه أن المتغيرات في المستقبل المنظور ستكون من الضخامة والسرعة بحيث لن ينفع معها غير من يكون اعداده على قدر مستواها، والامر بعد يتعلق بمستقبل أبنائنا وأحفادنا بل والانسانية جمعاء.

2 مشكلة الغذاء في العالم

الاصل في الطبيعة أن تتزن البيئة بكل مقوماتها... وعلى ذلك يتوازن عادة عدد الكائنات الحية في بيئة ما مع الغذاء المتوفر وعوامل أخرى كالمرض والموت والازدحام الخ... وهناك أدلة في المملكة الحيوانية على ان معدل الخصب في التناسل يقل تبعا لنقص الغذاء المتوفر.. كما أن عددا من القبائل الانسانية التي تعيش عيشة بدائية في أفريقيا واستراليا وأمريكا الجنوبية تحافظ على أعدادها ثابتة لفترات طويلة من الزمن.

ولكن الانسان في معظم بقاع الارض، نتيجة استعمال عقله ونتيجة للثورة الزراعية والثورة الصناعية تمكن من تخطي العوامل التي تحد من تكاثره.. وهنا بدأ الاخلال بالتوازن البيئي.. وكان أول مظهر من مظاهر هذا الخلل نقص الغذاء... وزاد في حدة المشكلة أن انتاج الغذاء بكل أشكاله يتأثر بعوامل مناخية متعددة أهمها معدل سقوط المطر... وهذه العوامل جميعا عرضة للتغير في فترات... فتصيب بعض المناطق في سنوات معينة حالات محل أو قحط، وقد تحدث فيضانات أو كوارث طبيعية أخرى.

وكانت ردود فعل الانسان في الماضي لمثل هذه الحوادث والحالات مختلفة باختلاف شدتها

وعنفها.. ولعل أقسى رد فعل كان الهجرة من المكان المنكوب. ومع أن الهجرة قاسية بحد ذاتها اذ تخلع الانسان من ارتباطه بالمكان الذي ارتبط به، الا أنها كانت اسهل من اليوم.. فأعداد الناس قديما كانت قليلة نسبيا والارض رحبة متسعة.. فكانت رقاع الارض الخصبة تتسع لموجات من قبائل برمتها تهاجر اليها وتستوطنها.

ولكن الامر في العصر الحاضر مختلف تمام الاختلاف. فالقيود الطبيعية والقانونية الوضعية حدت كثيرا من حرية الهجرة... وهذا الوضع، بالاضافة الى الالتزامات والمسئوليات القومية والوطنية، جعل سكان أية رقعة من الارض ثابتين في رقعتهم يتحركون ضمنها ولكنهم لا يتعدونها الا في حالات قليلة متحكم فيها.

وقد أدى نمو الشعور القومي وتعاظم الكبرياء الوطنية الى تشجيع حكومات الدول بعامة سكانها على التكاثر لتتمكن تلك الجول من ضمان أعداد كافية من البشر لمشاريعها المختلفة ومنها تجهيز الجيوش - رمز تلك الكبرياء، واحدى وسائل اظهارها. وساعد في اكثار أعداد بني البشر في البلاد المختلفة عدم سماح الديانات بشكل عام باقلال النسل والحد منه بالوسائل المعروفة، كما ساعد أيضا أن كثرة عدد البنين في العائلة كان يعتبر وسيلة لاكثار دخل العائلة وضمانا للأبوين عندما يتقدم بهما العمر، وغير ذلك من عوامل تزايد السكان.

وتفاعلت جميع هذه العوامل معا لتخلق المشكلة التي وصلت الى حدود الازمة، والتي تهدد بأن تصبح في المستقبل القريب تحديا مأساويا.

مشكلة الغذاء في العالم حقيقة أم وهم؟

وتقتضينا الامانة العلمية أن نقول أن هناك فريقا من العلماء الذين لا يعتقدون بوجود مشكلة غذاء في العالم وأنها قطعا لن تكون في المستقبل. ومن الامانة أيضا أن نعرض وجهة نظرهم أولا.

يعتقد هؤلاء العلماء أن الاحصاءات والحسابات، التي قادت الفريق الاخر من العلماء الى التصور بأن العالم مقبل على أزمة غذائية، انما بنيت على أساس أن انتاج الغذاء في معظم بلاد العالم محصور فيما يعرف بزراعة الكفاف. أي أن المزارع وعائلته يفلحون قطعة صغيرة من الارض

لانتاج غذائهم طول العام وما يزيد عن ذلك، وهو قليل، يقابض به أو يباع في أسواق قريبة من أرضه لشراء ملابس أو غير ذلك مما يحتاج.

ويقول كولن كلارك، أحد الذين يذهبون الى أن مشكلة الغذاء وهم لا اساس له من الحقيقة، أن نظرة مالثوس الى زراعة الكفاف خاطئة. فمالثوس يقول أن تزايد السكان سيزيد حتما عن معدل نمو الانتاج الزراعي الى أن يصل الامر الى حدود الازمة حتما. وأن هذه الازمة لن تؤدي الا الى (الرذيلة والبؤس) على حد قول مالثوس. (ويمكن ذكر مبدأ مالثوس باختصار كما يلي: يكون تزايد عدد السكان بنسبة هندسية بينما يكون تزايد كميات الغذاء بنسبة حسابية وعلى ذلك فما لم ينقص عدد السكان بكارثة ما تحدث المجاعة).

ويفضل كلارك رأي دوفريز (عام 1900) الذي يذهب الى أنه في زراعة الكفاف يتزايد الانتاج الزراعي بنفس معدل تزايد عدد السكان.. فلو تزايد عدد السكان بمعدل أعلى من تزايد الانتاج الزراعي حصلت مجاعة تقلل من عدد السكان... ولو حدث العكس وتزايد الانتاج الزراعي بمعدل أعلى من معدل تزايد السكان لتراكم الانتاج الزراعي وتلف معظمه لصعوبة تصريفه نظرا لقلة استيعاب الاسواق القريبة من مكانه وعدم وجود امكانات التسويق في أسواق بعيدة لعدم وجود وسائل نقل أو تخزين كافية. ويقول كلارك أن هذا القول، مع أنه قيل عام 1900 الا أنه يصف الحالة في السبعينات من هذا القرن بصدق أكثر من صدقه في وصف الوضع عام 1900.

ويشير كلارك الى أن اعتماد أوروبا مثلا على الانتاج الزراعي في افريقيا وآسيا، كما كانت الحال قبل الحرب العالمية الثانية (أي في فترة الاستعمار) قد تحول الان الى صورة مختلفة. ذلك أن أوروبا أصبحت اليوم تنتج كل حاجاتها الزراعية بنفسها بعد أن كانت تستورد الكثير من مستعمراتها.. وزادت الصورة اختلافا في بعض الدول المتقدمة في أمريكا واستراليا فقد تخطت هذه الدول المرحلة التي وصلت اليها أوروبا وأصبحت تصدر لاسواق العالم - ومنها تلك البلاد التي كانت تصدر لاوروبا - كميات كبيرة من انتاجها الزراعي. وحتى بريطانيا التي كانت تعيش على ما تستورده من مستعمراتها قاربت اليوم مرحلة الاكتفاء الزراعي وستصل في المستقبل القريب الى مرحلة التصدير.

ويتوسع كلارك في ايضاح وجهة النظر هذه بتحليل نبوءة السير وليم كروكس التي قالها عام 1896. والسير وليم كروكس كيماوي شهير في تلك الفترة وقد تنبأ بحدوث مجاعة في العالم عام 1930. وقد استند في نبوءته على حساب تضاعف عدد سكان العالم بين عامي 1896 و 1930 حسب ما كانت مؤشرات التزايد الطبيعي والتقديرات الاحصائية تدل عليه. وكان تقديره في تضاعف عدد السكان صحيحا. وكان تقديره الاخر يتعلق بأن انتاج الفدان من الحبوب، في البلاد التي تزرع الحبوب، سينخفض قليلا عام 1930 عنه عام 1896 وفي أفضل الحالات سيبقى على حاله. ومن جمع هذين التقديرين خرج كروكس بنبوءته بأن المجاعة واقعة لا محالة في عام 1930.

ولكن كروكس وغيره من علماء تلك الايام لم يحسبوا حسابا لتطور العلم وتمكنه من زرع أراضي جديدة بالقمح - كانت قبل ذلك تعتبر اراضي غير صالحة لزراعة القمح. فقد تمكن العلماء من انتاج أنواع جديدة من القمح سريعة النمو والنضج وتقاوم الامراض التي تصيب القمح في مناخات معينة، وكانت نتيجة ذلك أن زادت المساحات المزروعة بالقمح وعوضت النقص المتنبأ به حسب التقديرات الاحصائية. والغريب في الامر أن أكثر عامل أفسد على كروكس الكيماوي نبوءته كان كيميائيا في طبيعته. ذلك أن تقديراته لانتاج الفدان بنيت على أساس الاسمدة التي كانت معروفة في وقته. ولم يستطع، رغم كونه كيماويا، أن يتنبأ بأن زملاءه علماء الكيمياء سيتمكنون من انتاج أسمدة جديدة بطرق صناعية وكميات كبيرة. وكان أول هؤلاء العلماء الالماني هابر الذي تمكن عام 1905 من انتاج سماد نايتروجيني (أزوتي) من نايتروجين الهواء، وتبع ذلك في النرويج ابتداع طريقة السياناميد، وبعد ذلك أدخلت تحسينات وتطويرات مختلفة على صناعة الاسمدة مما جعل الاسمدة النايتروجينة تنتشر في جميع أنحاء العالم فيزداد انتاج الارض المزروعة وبذلك لم تتحقق نبوءة كروكس.

ويزيد كولن كلارك، ممثلا رأي فريق العلماء الذين يقولون قوله، بأن التقدم العلمي والتكنولوجي في ميادين انتاج أصناف جديدة بالتلقيح الصناعي وتغيير العوامل الوراثية وانتاج مواد كيمائية تقتل الاعشاب الضارة من بين الزرع وتبيد الحشرات والآفات وتحسين نسل الحيوانات التي تربى

للحمها واسراع نموها، وكذلك مكننة الزراعة وغير ذلك من الكشوف العلمية، سوف يجعل كل بلد من بلدان العالم في وضع اكتفاء ذاتي من حيث انتاج الغذاء، كما حدث في أوروبا حاليا، ويشير هؤلاء العلماء الى التقدم النسبي الذي حصل في انتاج الغذاء في بعض البلدان النامية كمؤشرات ودلائل تثبت قولهم ورأيهم. ويقول هذا الفريق من العلماء بأن هذا عندما يتم سيقضي على مشكلة الغذاء في العالم ويجعلها وهما من أوهام الماضي. أي أنه لا وجود للمشكلة وأن رأي الفريق الاخر في أن المشكلة حقيقية وموجودة خاطيء وغير صحيح. وفوق ذلك يذهب هؤلاء الى أن تخوف المتخوفين من تزايد المشكلة حتى تصل حد التحدي لوجود الانسان على وجه هذه الكرة الارضية مجرد هراء وأنه حتى لو تضاعف عدد سكان الارض في العقدين القادمين فان العلم سيزيد من الانتاج الغذائي الى حد الاكتفاء الذاتي وأكثر. وبذا يكون القول بوجود مشكلة غذائية ليس الا مجرد لغو ووهم كبير.

وننتقل الآن الى وجهة النظر المضادة.

مشكلة الغذاء حقيقة لا وهم.

يقول العلماء، الذين يعتقدون بوجود مشكلة غذائية عالمية وصلت فعلا الى حد الازمة وتتجه سريعا نحو حد الكارثة أو التحدي الخطر لوجود الانسان، انهم ينطلقون في قولهم من مجموعة حقائق ثابتة نلمسها بوضوح ونلمس اتجاهات تطورها. وفيما يلي ملخص لهذه الحقائق أو المنطلقات:

١- أن الأرض - الصالح منها للزراعة وغير الصالح - رقعة محدودة مساحة وامكانات. وأن في الأرض مساحات محدودة صالحة لحياة الانسان، وهذه المساحات أقل بكثير من المساحات التي لا تصلح لسكنى الانسان.

صحيح أن العلم والتكنولوجيا يحولان مساحات لم تكن قابلة للزرع وانتاج الغذاء الى أراضي مستصلحة أمكن زرعها وانتاج الغذاء منها. ولكنهم يشيرون بالمقابل إلى أن أجزاء من الأراضي الصالحة للزراعة فعلا تغتصب لبناء المدن وشق الطرق وحفر المناجم كما تفقد الزراعة مساحات من الأرض نتيجة انحطاط قدرها وتحولها الى أراضي غير منتجة بسبب اهمال الانسان واساءة استعمالها والكوارث الطبيعية والتحول المناخي في بعض

الحالات.

2- أنه في كل عام يولد 120 مليون طفل جديد أي بمعدل 228 طفلا كل دقيقة، وتحدث الوفيات بمعدل 102 كل دقيقة وعلى ذلك تكون الحصيلة زيادة عدد سكان العالم في المجموع بمعدل 126 نسمة في كل دقيقة أي ما يزيد عن 66 مليون نسمة كل عام. بمعنى أنه حتى لا تحدث مشكلة غذائية يجب أن يزيد إنتاج الغذاء على مستوى العالم سنويا بكميات تكفي لاطعام هذه الاعداد المتزايدة سنة بعد سنة.

ويعترف هؤلاء العلماء بأن اتباع الاساليب العلمية وما يتمخض عن الابحاث العلمية في مجال انتاج الغذاء يزيد من كميات الغذاء المتاحة ولكنهم يذهبون الى أن هذه الزيادة ليست منتظمة ولا متوافقة مع تزايد الافواه التي يجب أن تطعم... وأن الحصيلة النهائية على مستوى العالم ككل هي نقص في الغذاء المتوفر بدلا من أن تكون زيادة فيه.

3- أن العالم مقسم من حيث القدرة على انتاج الغذاء الى فئات عدة: بعضها ينتج أكثر من حاجته وبعضها ينتج قدر حاجته والبعض الآخر ينتج أقل من حاجته بدرجات متفاوتة يصل بعضها الى ما دون الكفاف بكثير.

ونتيجة ذلك نجد تفاوتا واضحا في توفر الغذاء في أنحاء العالم المختلفة. حيث نجد مجتمعات متخمة لدرجة أن فضلات الطعام التي تلقيها كثيرة بشكل مذهل... وفي هذه المجتمعات نجد صناعات كبيرة تقوم على اعداد طعام خاص للكلاب والقطط وغيرها من الحيوانات المدجنة، بل وتتفنن في الحرص على أن يشمل هذا الطعام كل عناصر الغداء المتكامل... بينما هناك على النقيض من ذلك مجتمعات أخرى لا تنتج ولا تجد من الغذاء ما يكفي لبني البشر الذين يعيشون عمرهم وهم يتضورون جوعا ويتمنون لو أمكنهم الحصول على شيء من غذاء الكلاب أو القطط في المجتمعات المتخمة بكثرة الغذاء.

ولعل من الطبيعي أن يشعر الفرد في مثل هذه المجتمعات الموسرة وافرة الغذاء بعدم وجود مشكلة غذائية... وحتى عندما يسمع بأحوال المجتمعات الفقيرة غير المحظوظة لا يكون انفعاله ذا أثر واضح أو مستمرا... ولولا تطور وسائل الاعلام في العصر الحديث لما شعر الكثيرون بوجود المشكلة ولما تحرك ضمير البعض نتيجة رؤيتهم مناظر تقشعر لها الابدان بسبب

الجوع في بعض المجتمعات المذكورة.

وهذا التفاوت في إنتاج الغذاء في المجتعمات المختلفة هو الذي يزيد حدة المشكلة ويبرزها في مناطق معينة في العالم.. اذ لم يقل أحد بأن مشكلة الغذاء ونقصه عامة موجودة في كل صقع من أصقاع العالم... فهي في الواقع محصورة في أماكن ومجتمعات محددة... ولعل انحصارها في تلك البقاع يزيد من حدة مظهرها. ولو كان الناس يعيشون في عالم واحد بكل معنى الكلمة لما كانت هذه المشكلة بالصورة التي تبدو عليها.

4- أنه يندر أن ينتج مجتمع ما، مهما كانت قدرته العلمية والتكنولوجية ومهما كانت درجة ثرائه، كل أنواع الغذاء وعناصره المختلفة.

وهنا لابد من القول بأن الغذاء الانساني حتى يكون غذاء صحيا بالمعنى الصحيح يجب أن يحتوي على عناصر محددة بنسب معينة ولا يجوز اهمال أي عنصر منها.

وعلى هذا فالغذاء الذي لا يحوى البروتينات (الحيوانية والنباتية بما في ذلك البروتينات البحرية) أو الكربوهيدرات أو الدهون أو الفيتامينات بأنواعها المختلفة أو الأملاح المعدنية بعناصرها المتعددة لا يكون غذاء صحيا وكذلك يكون الغذاء الذي يحوي كل هذه الأغذية ولكن بكميات أو نسب أقل من اللازم مصدر اشكالات صحية مختلفة. ولذا فان كان الغذاء كثيرا، ولكنه كثير في الارز والدهون والتوابل قليل في البروتينات والفيتامينات والاملا ح كما يحدث في بعض المجتمعات، فانه غذاء غير متكامل ونتائج الاعتماد عليه ضارة بالصحة.

ونجد المجتمعات المتقدمة التي تنتج زراعيا غذاءها بنفسها تضطر لاستيراد أنواع معينة من الغذاء لانها لا تستطيع انتاجها محليا لاسباب مناخية وزراعية.

ولذا فان القول بامكان اكتفاء كل مجتمع بما ينتج من غذاء ليس صحيحا تماما أو ليس صحيحا دائما... اذ يمكن أن يحدث، في ظروف استثنائية، أن يتعذر على بعض المجتمعات استيراد ما ينقص من غذائه. وعندها، وبرغم وفرة انتاجه، يصبح غذاؤه ناقصا من وجهة صحية، وقد يكون لهذا النقص اثار ضارة واضحة.

5- تعمل الكوارث الطبيعية على اقلال انتاج الغذاء... ولعل تكرر حدوث

مثل هذه الكوارث يجب أن يكون حافزا على أن ندخلها وندخل آثارها في حسابنا لمقدار ما يمكن أن ينتج من غذاء - في بعض بقاع العالم على الأقل.

وليس جديدا القول بأن الخسارة الناتجة عن الكوارث الطبيعية تبلغ عدة مئات من ملايين الدنانير سنويا. وقد تحول مثل هذه الكوارث بلدا ما من مصدر لسلعة غذائية الى مستورد لها لفترة ما.

كما أن هناك اشكالات أخرى تؤدي الى تدهور انتاج الغذاء في بلد ما. ويمكن أن نذكر كمثال على ذلك على ما حدث في الارجنتين. فقد كان انتاج الغذاء في الارجنتين في الثلاثينات من هذا القرن عاليا يوازي انتاج استراليا. وكانت الارجنتين تصدر للعالم كميات كبيرة من اللحوم والمنتجات الزراعية المختلفة. ولكن لاسباب سياسية حزبية حارب القائمون على السلطة (العمال) مالكي الارض الذين كانوا يسيطرون على الانتاج الزراعي دون أن يعدوا البديل المناسب. وكانت النتيجة أن تدهور الانتاج الزراعي ولم يتح لمزارعي الارجنتين فرصة متابعة التطور العلمي والتكنولوجي في هذا الميدان عالميا. وبقي هؤلاء المزارعون يعملون بنفس الاساليب والوسائل التي كانوا يعملون بها... وبذا هبطت الارجنتين من المرتبة التي حققتها في مجال الانتاج الغذائي ولم تعد تعتبر دولة مصدرة بنفس المستوى الذي كانت عليه.

6- يشير العلماء والاقتصاديون الى مؤشرات عديدة تدل على أن الغذاء في تناقص نسبي عالميا. ومن هذه أن أسعار المواد الغذائية ترتفع بشكل مستمر، ويرى هؤلاء أن من أسباب الارتفاع هذا، بالاضافة الى ارتفاع كلفة الانتاج وهبوط قوة النقد الشرائية، ازدياد الطلب وقلة العرض، وصحيح أن أسعار المواد الغذائية كانت دوما متقلبة حسب انتاج المواسم. اذ أنه في المواسم الجيدة يكثر الانتاج ويقل السعر وفي المواسم غير الجيدة يقل المعروض بالنسبة للطلب فيرتفع السعر. ومازالت هذه القاعدة الاقتصادية قائمة، الا أن من الواضح أن الأسعار تتجه، رغم هذه القاعدة، الى الارتفاع المستمر... ولهذا دلالته الواضحة.

7- يرى العلماء أن مبدأ دوفريز في توازن الانتاج الغذائي مع عدد السكان في مجتمعات زراعة الكفاف لا ينطبق على كل الحالات. ففي الهند والباكستان وأندونيسيا والملايو والهند الصينية وغيرها، وهي جميعا من مجتمعات زراعة الكفاف، زاد عدد السكان بمعدل أكثر من زيادة الانتاج

الغذائي. وحسب الأسس العلمية تسقط الفرضية أو النظرية اذا ظهرت أمثلة شاذة لا تستطيع تفسيرها أو تنطبق عليها.

8- هناك حقيقة واقعة لا مفر من مواجهتها والاعتراف بها وهي أنه في بعض بقاع العالم اليوم مجاعة حقيقية تؤدي الى الموت. ويقول نيجل هبي Nigel Hey بأنه يموت كل 24 ساعة أكثر من مائة ألف نسمة جوعا.

ولا يجدي أن نتعلل بأن سبب المجاعة ليس نقص الغذاء الممكن انتاجه بل جهل هؤلاء وتأخرهم الحضاري وعدم افادتهم من الاكتشافات العلمية والأساليب التكنولوجية. اذ تظل الحقيقة السافرة تطل بصورة بشعة.. فهذه الاعداد من البشر تموت جوعا... ويزداد فتك المجاعة بالناس سنة بعد سنة. ومن الانصاف أن نقول أن كل الدول التي تستشري فيها المجاعة تبذل جهدا كبيرا لمحاولة تخفيف أثر المجاعة ويساعدها في ذلك كثير من الدول المتقدمة والمنظمات العالمية... ولكن مازال، كما يبدو، ازدياد عدد السكان يفوق في أثره ما يستطيع العلم والتكنولوجيا أن يزيداه من انتاج الغذاء في تلك البلاد.

وموت انسان بله الآلاف جوعا كل يوم سبة عار في جبين الحضارة الانسانية. وليت الامر يتوقف عند هذا الحد.. ففوق الاعداد التي تموت جوعا بشكل مباشر يموت أيضاً حسب تقديرات نيجل هي، بين ثمانين ألفا ومائة ألف آخرين كل يوم نتيجة مضاعفات سوء التغذية والامراض التي تنشأ عنها.

وفوق هذا وذاك سيقضي ألف مليون آخرين من الرجال والنساء والاطفال حياتهم في بؤس وألم نتيجة اصابتهم بالتخلف العقلي والضعف الجسماني بسبب سوء التغذية المستمر المزمن. وكمثال على ذلك نورد أن أعدادا كبيرة من الاطفال في بعض أرجاء العالم يعانون من مرض كواشيوركور الناجم عن نقص البروتين في غذاء الاطفال - ويتميز هذا المرض بتوقف نمو الطفل المصاب وتوقف تطوره وتتغير صبغة الجلد والشعر وتورم تحت الجلد وانحطاط الكبد نتيجة ترسب الدهن فيه وفقر دم شديد مع عدم رغبة الطفل في أي شيء وعدم اهتمامه بأي شيء.

وليست الأمراض الأخرى التي تنجم عن نقص الفيتامينات أو الاملاح المعدنية من الغذاء بأقل خطار... ويقدر نيجل هي عدد المصابين بالعمى

في الهند وحدها نتيجة نقص فيتامين «أ» بمليون طفل كما يقول بأن نفس السبب يؤدي الى عمى 50 ألف طفل في بنغلادش.

وهكذا يتوصل العلماء الى القناعة بأن مشكلة نقص الغذاء والمجاعة في العالم حقيقة لا وهم.

ولما كان من المنتظر أن يصبح عدد السكان في أواخر هذا القرن ضعف العدد الحالي فانهم يرون أن المشكلة ستتفاقم الى حد أن تصبح تحديا ضخما يهدد حياة الانسان.

وقد ينصرف ذهن البعض الى أن المناطق التي تستشري فيها المجاعة وسوء التغذية محصورة في بعض البلاد القليلة ولكن الحقيقة هي أن تلك البلاد منتشرة في آسيا وأفريقيا ومعظم مناطق أمريكا الجنوبية.. وتمثل في مجموعها 60٪ من مجموع سكان العالم. وفوق ذلك فان معدل تزايد عدد السكان في هذه البلاد يزيد عن ضعف معدل تزايد السكان في الدول الاخرى... ومعنى هذا أن نسبة الذين سيعانون من المجاعة وسوء التغذية في الثلاثين سنة القادمة الى عدد سكان العالم ستزداد من 60٪ الى 65٪ وثم ال 70٪... والتساؤل الذي يطرح نفسه، في رأي هؤلاء العلماء، هو كم ستكون النسبة بعد خمسين أو مائة سنة؟

ويقول هؤلاء العلماء بأن تحدي نقص الغذاء في المستقبل القريب سيكون أخطر ما يواجه الجنس البشري... بل أنه أخطر بكثير من خطر الحروب النووية والكيميائية والبيولوجية.

ويتطلع هؤلاء العلماء لا الى اقناع الفريق الآخر والناس بعامة برأيهم وحسب، بل ويأملون أن يتخذ العالم في الحال خطوات بناءة جادة لمحاولة مجابهة هذا التحدي وتخفيف خطره ان لم يكن ابطاله.

المشكلة في الميزان:-

والان وبعد أن عرضنا لآراء الفريقين لنتدبر ما اذا كانت المشكلة قائمة أم محتملة أم مجرد وهم.

من الواضح اذا أمعنا الفكر في آراء الفريقين ومن دراسة وضع التغذية في بلاد العالم المختلفة أن هناك في بعض البلاد سوء تغذية تصل الى حد المجاعة، وأن أعدادا من البشر تموت سنويا نتيجة هذه المجاعة.

وهذا الأمر لا يتعرض له مباشرة أصحاب الرأي الأول، أي القائلون بأن مشكلة المجاعة وهم، وانما يقولون بأن المجتمعات التي تعاني من سوء التغذية أو المجاعة انما تعاني نتيجة التخلف والجهل. وأن الأرض قادرة على أن تطعم كل الناس لو أنهم اتبعوا الأساليب العلمية والتكنولوجية في زراعتها وأخذوا بأسباب الاقتصاد الحديث في ادارة تلك الزراعة.

ولا ينكر الفريق الثاني فضل اتباع الاساليب العلمية والتكنولوجية والاقتصادية في زيادة انتاج الأرض، كما لا ينكرون أن مناطق متعددة سترتفع مستوى من مرحلة المجاعة الى مرحلة الاكتفاء الذاتي. ولكنهم يعتقدون في نفس الوقت بأن تحسين الانتاج الغذائي باتباع هذه الاساليب والوسائل غير كاف لازالة شبح المجاعة عن رقاع كثيرة من العالم وذلك بسبب تكاثر عدد السكان بمعدل يفوق كثيرا معدل الزيادة في الانتاج الغذائي. وهم بذلك لا يقبلون بنظرية دوفريز التي أشرنا اليها قبلا والتي يستند اليها الفريق الاخر استنادا أساسيا.

والحجة القوية التي لا يمكن نكرانها هي أنه بفرض أن الأساليب العلمية والتكنولوجية والاقتصادية تمكنت من ابعاد شبح المجاعة اليوم فهل ستستطيع ذلك في المستقبل البعيد أي بعد مائة أو خمسمائة سنة؟ علما بأن الأرض محدودة وقدرتها على الاستيعاب والانتاج ليست بغير حدود، وفي نفس الوقت تنصرف جهود علمية جادة الى اطالة عمر الانسان وتقليل وفياته مما يزيد حتتما في الأفواه التي يجب اطعامها بالاضافة الى التزايد الطبيعي في عدد السكان.

ويبدو أن الاجراء الملح الذي يجب تنفيذه بسرعة لايقاف هذه الحلقة المفرغة والتفاعل المتسلسل هو تنظيم النسل عالميا بشكل فعال مع زيادة الجهود العلمية لتحسين انتاج الغذاء. وبذلك تقرب الشقة بين آراء فريقي العلماء فيصبح بالوسع الوصول الى مرحلة الاكتفاء في انتاج الغذاء في العالم كله وبذلك تختفي مشكلة الغذاء حقا.

على أن الأمر ليس بالسهولة التي تبدو ظاهريا اذ أن هناك عوامل متعددة تجعل تحديد النسل أو تنظيمه عملية صعبة متعذرة في كثير من المجتمعات.

فبالاضافة الى معارضة رجال الدين وأثر التقاليد في أية عملية لتحديد

النسل في كثير من المجتمعات في القارات كلها نجد البعض يقاوم تنظيم النسل نتيجة شعور شخصي بأن مثل هذا الاجراء يحد من حريته الشخصية. وفوق ذلك يلاحظ أن عملية تنظيم النسل تلاقي معارضة قوية بل رفضا قاطعا من المجتمعات المتخلفة أو النامية نتيجة احساس هذه المجتمعات بالحاجة الى اكثار عدد سكانها نظرا لافتقارها الى العنصر البشري في التنمية والتطوير.

غير أن النقص الذي تحسه ليس في العنصر البشري بعامة وانما في نوعيات معيشة كالعمال المهرة والفنيين والمهندسين والاطباء والعلماء... وليس من سبيل لاكثار هذه النوعيات دون اكثار العدد بشكل عام.

ويثير هذه المجتمعات والدول أن تطلب منها المجتمعات المتقدمة تحديد النسل، وترى في ذلك محاولة من الدول المتقدمة للاستمرار في السيطرة والبقاء في موضع من لا يستغني عنه. ولا يخفف من هذه المخاوف قول الدول المتقدمة بأنها قد بدأ بنفسها وحددت النسل منذ أمد... اذ أن المجتمعات هذه حددت النسل واستعاضت عن الاعداد الكثيرة في الانتاج الصناعي والزراعي بالمكننة وأجهزة الادارة الآلية والالكترونية... وهذا مالا تستطيعه الدول المتخلفة لأن مثل هذا يحتاج الى مال كثير لا تستطيع توفيره دول نامية كثيرة. وحتى الدول النامية التي أفاء الله عليها بمال وفير ليس لديها الفنيون المتخصصون في عمل هذه الآلات المعقدة وصيانتها.

ولعل تخوف الدول النامية من استمرار سيطرة الدول المتقدمة عليها علميا وتكنولوجيا واحساسها بأن نقص عدد سكانها يهدد أمنها ويقلل من امكانات تطورها وارتقائها وراء هذا الاصرار على عدم اتخاذ أي اجراء في سبيل تحديد النسل.

على أن هناك، زيادة على هذا وعما ذكرناه قبلا، عوامل أخرى تختلف قوة وضعفا في المجتمعات المختلفة تدعم هذا الاصرار وتزيده صلابة...

وان نحن محصنا هذا الموقف نجده منطقيا من وجهة نظر قومية وأنانية ذاتية... ولا يجوز أن نستغرب مثل هذه النظرة في عالم تتتنافس فيه الدول في المجالات القومية والاقتصادية والسياسية ومجالات المصالح والمنافع الذاتية والأنانية وحتى المجالات الرياضية والثقافية.

فهي نظرة مفهومة انسانيا. والناس يحبون ويسعون الى التساوي في

الفرص المتاحة..

ومن ناحية أخرى لا بد لكل انسان ذي مشاعر انسانية أن يستنكر الظروف الغذائية التي تسود في مناطق عديدة من العالم... فليس عدلا، من أية وجهة نظر اليها، أن يتغذى كلب أو قط في مجتمع ما يشكل أفضل كمية ونوعية من انسان في مجتمع غيره... وكيف يكون الوضع ان مات انسان اخر في مجتمع ثالث جوعا؟ أن هذا أمر واقع فعلا وليس مجرد موقف فكري أو فلسفي... فما يأكله كلب عند عائلة في أمريكا أو أوروبا مثلا يبلغ ثلاثة أضعاف ما يأكله انسان في بعض مناحي الهند أو بنغلادش.

وفوق ذلك يكون غذاء الكلب متزنا حاويا جميع عناصر الغذاء بينما غذاء ذلك الانسان، فوق قلة كميته، غير متزن وتنقصه عناصر غذائية هامة.

ويورد نيجل هي في كتابه «كيف نطعم البلايين الجائعة؟» الاحصائيات التالية:-

تنتج الهند وباكستان ومجموعة مماثلة من الدول ما قيمته أقل من (35) دولارا من الغذاء للشخص الواحد في السنة. وفي أفريقيا الاستوائية وجنوب شرق آسيا وغرب أمريكا الجنوبية ومجموعة مماثلة من المناطق ترتفع قيمة ما ينتج من غذاء للشخص الواحد سنويا الى 50 دولارا بينما تصل الى 160 دولارا في الولايات المتحدة وكندا واستراليا ومجموعة مماثلة من الدول.

أما بقية الدول فتتوزع بين هذه المجموعات الثلاث.

وبالاضافة لذلك، فالمعروف أن المهم ليس كمية الغذاء فحسب، بل لعل الاهم هو نوعيته أيضا. ومن أهم عناصر الغذاء البروتين الحيواني لاحتوائه بأنواعه المختلفة، على جميع الاحماض الأمينية الأساسية التي يحتاجها الجسم للنمو. وهذه الاحماض الأمينية لا يعوضها تناول الكربوهيدرات والدهون ويتوفر بعضها فقط في البروتينات النباتية... فاذا أخذنا البروتين الحيواني كمعيار لتوعية الغذاء نجد أن معدل ما يأخذه الفرد منه في الوجبة الواحدة في المتوسط في الدول النامية هو 7ر2 جرام بينما يصل المعدل في الدول المتقدمة الى 38ر8 جرام. أي أن متوسط ما يأخذه الفرد من هذا العنصر الغذائي الهام في الدول المتقدمة يزيد عن خمسة أضعاف

حصة الفرد منه في الدول النامية.

ولابد لنا في هذا المجال من القول بأنه بالاضافة الى ما يضيع من الغذاء بفعل الامراض والآفات والحشرات وسوء الخزن الخ... تهدر كميات من الغذاء في كثير من المجتمعات اذ يلقى بها في القمامة أو تحرق أو تلقى في البحر... وهنا أيضا يحس المرء بكثير من المرارة... اذ أن هدر مثل هذه الكميات في الوقت الذي يموت فيه كثيرون جوعا أمر غير مقبول عقليا وانسانيا.

ولا بد لنا من أن نعترف بأننا نواجه، على صعيد العالم ككل، أزمة غذائية آخذة في التفاقم. وان علينا أن نتخذ اجراءات فورية لعلاج الازمة والا وجدنخا أنفسنا وجها لوجه أمام تحد، أن لم يهدد كياننا فسيأخذ منا جهدا يستنزف امكاناتنا في وقت نكون يه أحوج ما نكون لتلك الامكانات.

ولا بد، في هذا السبيل، أن نتوصل كمواطنين في هذا العالم، الى اتفاق - لا قوانين - نابع عن قناعة عامة غايته تحديد النسل... ومعنى ذلك أن يتغلب الكثيرون على نوازعهم النفسية ومخاوفهم المتوهمة وأن تجد الدول النامية حلولا لمشكلات نقص مواردها البشرية.. وفي اعتقادنا أن التركيز على النوعية في تربية الصغار يعوض عن العدد... وعلينا أن نذكر أن الاهتمام بالنوعية أصلا يستلزم الاقلال من عدد الاطفال في العائلة الواحدة. ولا يجوز أن يكون اقلال النسل وتحديده خاضعا للعامل الاقتصادي بمعنى أن يطبق هذا على الفقير دون الغني... لان مثل هذا يخلق طبقية جديدة لا مبرر لها ولها تأثيرات اجتماعية خطيرة. فالعناية بالصغار عناية مثلى لضمان تربيتهم بحيث تصقل مواهبهم وتنمي قدراتهم الى حدها الاكمل يتطلب أن يكون عدد الاطفال في العائلة قليلا، ولا يجدي الثراء هنا اذ أن العامل البشري هو الاساس في التربية في الطفولة.

وهكذا بانتاج عدد قليل من الاطفال ذوي قدرات عالية ومواهب كبيرة يمكن أن يستعيض المجتمع عن عدد كبير أقل قدرة وامكانات.

اتجاهات العلم لمواجهة مشكلة نقص الغذاء:

ألمحنا الى دور العلم والتكنولوجيا في مجابهة مشكلة نقص الغذاء وعن اقتناع فريق من العلماء بأن هذا الدور سيحل المشكلة ويجعلها وهما لا

حقيقة فيها. فما هي حقيقة جهد العلم في هذا السبيل.

ولا شك أن العلم والتكنولوجيا بذلا جهدا كبيرا متصلا وما زالا وسيظلان كذلك. وقد حققا مستويات طيبة من النجاح وهو أمر لا ينكره أحد.

ومن الحقائق البديهية التي انطلق منها العلم في محاولاته ايجاد حلول لمشكلة نقص الغذاء أن الكرة الأرضية هي موطن الحياة. وأن العوامل التي تجعل الحياة ممكنة هي حجم هذه الكرة وطبيعة تركيبها وكثافتها والتربة والماء والهواء والنبات والحيوان فيها من جهة، وطاقة الشمس - شريطة أن تصل الى سطحها بقدر مناسب من جهة أخرى، وأن التوازن الدقيق بين كل هذه العوامل شرط أساسي من شروط وجود الحياة واستمرارها.

فحجم الكرة الأرضية وكثافتنا جعلا لها جاذبية محددة وهذه بدورها سمحت للكائنات الحية فوقها بحركة تتواءم مع أحجامها وحاجاتها... والحركة لازمة للكائنات الحية لأنها وسيلتها للحصول على الغذاء والحفاظ على الحياة واستمرار النوع.

وطبيعة تركيبها، من يابسة وماء وهواء، جعلت من الممكن ايصال قدر مناسب من طاقة الشمس الى سطحها، كما جعلت من الممكن أن تكون هناك دورة مائية فيتبخر الماء من سطحها ثم يتكثف سحابا يسير بحركة الهواء من جهة لاخرى ثم يهطل مطرا يسيل جداول ويتخلل التربة وينبثق ينابيع تجتمع مياهها ومياه السيول لتكون الانهار والبحيرات ثم تعود الى البحر - وهو اكبر مصدر لهذا الماء. وفوق ذلك كان لتكورها وارتباطها بالشمس ضمن المجموعة الشمسية أثر في تعاقب الفصول عليها... ولهذا ماله من أثر في الدورة الزراعية.

أما التربة، فمع أنها لم تكن موطن الحياة الأول، الا أنها مصدر جميع العناصر الكيماوية اللازمة لتكوين مادة الحياة (البروتوبلازم) في جسم الكائن الحي.

والماء - الذي لا يمكن للحياة أن تكون بدونه - مركب كيماوي مكون من عنصرين غازيين هما الهيدروجين والاكسجين. وهو فذ وفريد في نوعه وخصائصه وهذه الخصائص والمميزات جعلت الماء يدخل في تركيب مادة الحياة الأساسية بأكبر نسبة من مكوناتها كما جعلته الوسط الذي تجري فيه وبوساطته التفاعلات الحيوية في جسم الكائن الحي، فوق أن الماء كان

موطن الحياة الأول مصداقا لقوله تعالى: «وجعلنا من الماء كل شيء حي». صدق الله العظيم.

والهواء، وهو أيضاً عامل لا يمكن للحياة أن تستمر بدونه، ليس مجرد مجموعة من غازات مخلوطة... بل أن أهميته للحياة تكمن في نسب هذه الغازات لبعضها البعض وثبات هذه النسبة واستمرارها، فالهواء يتكون من الغازات التالية:

النايتروجين	ونسبته في الهواء	حوالي 78٪
الاوكسجين	ونسبته في الهواء	حوالي 21٪
الارجون	ونسبته في الهواء	حوالي 9ر0٪
ثاني أكسيد الكربون	ونسبته في الهواء	حوالي 03ر٪
النيون	ونسبته في الهواء	15 جزء في المليون
الهليوم	ونسبته في الهواء	5 أجزاء في المليون
الكريبتون	ونسبته في الهواء	1 جزء في المليون
الزينون	ونسبته في الهواء	01ر جزء في المليون
بخار الماء	ونسبته في الهواء	متغيرة.

والمكونان الفعالان في الهواء بالنسبة للحياة هما الاكسجين وثاني أكسيد الكربون. وبقاؤهما في الهواء بنسبهما أمر هام جدا. اذ لو قل الاكسجين عن نسبته المعينة لتهددت الحياة، كما أنه لو زادت نسبة ثاني أكسيد الكربون في الجو لتعرضت الحياة للخطر.

ومع أن الهواء تولد مع بدء تكوين الأرض قبل أربعة آلاف وخمسماية مليون سنة الا أنه لم يكن في غازاته ونسبها على ما هو عليه الآن أو عندما بدأت الحياة... وقد استغرق تحوله الى هواء صالح للحياة أكثر من ثلاثة أرباع عمر الأرض. وفيما عدا هروب الهيدروجين من جو الارض لخفته أو قلة كثافته وعدم استطاعة جاذبية الارض الاحتفاظ به، واحتراق الميثان (وهو من غازات النفط) في الجو بالاكسجين، كان تحول الهواء الى مكوناته الحالية بنسبها القائمة بفضل النبات. فالنبات، وهو أول أشكال الحياة التي ظهرت ومن أهم عناصر استمرارها، يقوم بصنع الغذاء بنفسه من ثاني أكسيد الكربون (الضار) والماء وبعض أملاح التربة مستعينا بطاقة

ضوء الشمس. وهذه العملية تعرف بعملية البناء الضوئي. وينتج عن هذه العملية أمران هامان الأول انتاج غذاء والثاني انطلاق الاكسجين في الجو مع انقاص كمية ثاني أكسيد الكربون منه. أي أن النبات يقدم للحياة خدمتين: انتاج الغذاء من ثاني أكسيد الكربون الضار وانتاج الاكسجين المفيد للتنفس واللازم للحياة في عملية واحدة. وهذه العملية هي التي تحفظ نسبتي الاكسجين الى ثاني أكسيد الكربون في الجو ثابتتين.

ذلك أن الكائنات الحية في تنفسها تستهلك الاكسجين وتطلق في الجو ثاني أكسيد الكربون، كما أن احتراق الوقود الكربوني ينتج مزيدا من ثاني أكسيد الكربون، ولو استمرت هاتان العمليتان، دون عملية مضادة، لتوقفت الحياة نتيجة تناقص الاكسجين اللازم للحياة وتزايد ثاني أكسيد الكربون الخانق الضار.

أما طاقة الشمس، فقد ألمحنا الى أن ضوءها عامل أساسي في عملية البناء الضوئي الحيوية، كما أن حرارتها توفر الدفء للحياة من ناحية وتجعل دورة الماء ممكنة اذ أنها تبخر الماء وتجعل الدورة الزراعية ممكنة. والشمس فوق كل هذا كانت فعالة في تكوين معظم الوقود المستخدم اليوم. ولابد من القول أن اكتشاف الوقود واستعماله كان المنعطف الأول الذي بدأ بعده الانسان بالسير على طريق الرقي والحضارة.

وطاقة الشمس تتولد من عملية الاندماج النووي في باطنها - وهي العملية التي قلدها العلماء في القنبلة الهيدروجينية الاندماجية - وينتج عن هذه العملية طاقة هائلة تشع في الكون... وتصل بالطبع الى كواكب الشمس التسعة ومنها الارض. وتختلف كمية هذه الطاقة المشعة التي تصل الى أي كوكب باختلاف بعد الكوكب عن الشمس. فما يصل منها الى عطارد والزهرة، وهما أقرب كوكبين للشمس كثير ودرجة حرارة سطح هذين الكوكبين عالية، نتيجة ذلك، لدرجة تمنع وجود الحياة، بينما تصل طاقة الشمس الى نبتون وبلوتو، وهما أبعد كوكبين عنها، بقلة ولذا فان درجة الحرارة هناك متدنية الى حد يمنع وجود الحياة... وحتى الارض، وهي ثالثة كواكب المجموعة الشمسية قربا من الشمس تتلقى قدرا من طاقة الشمس أكبر مما يسمح بالحياة ولكن جو الارض يمتص قدرا كبيرا من هذه الطاقة ويبعثر قدرا آخر بحيث لا يصل الى سطح الارض منها الا كمية محدودة تسمح للحياة

بالنشوء والازدهار باذن الله.

ومن منطلق فهم العلم لعوامل وجود الحياة واستمرارها بدأ البحث العلمي لمحاولة زيادة كميات الغذاء المتاحة للانسان. وأول أساس يعتمده العلماء هو أن النبات عامل حيوي جدا في دورة الحياة على هذه الارض ولذا فان الزراعة هي الميدان الاول والاهم الذي يجب أن يركز البحث العلمي جهده عليه، تماما كما كانت الزراعة أول قفزة حضارية للانسان في تاريخه.

واذا نحن تمعنا في عناصر العملية الزراعية لوجدنا أن الماء يبرز كعامل أكثر أهمية من غيره ولكن لا ييجب أن يغرب عن بالنا أن بقية عناصر هذه العملية مهمة أيضا. فنحن لا نريد أن نكون مثل طاليس الذي جعل الماء مصدر كل شيء عداه. ولكننا نوافق، الى حد ما، السومريين والبابليين في قولهم أن الماء أثمن هدية من الله للانسان.

توفير المياه للزراعة:

الماء في هذه الكرة الأرضية ثابت الكمية الى حد كبير منذ أن لم يبق في جوها هيدروجين، وذلك بعد تكونها بقليل نسبيا. وكل ما يحدث أن الماء، كما ذكرنخا، يدور دورته بشكل مستمر، فيتبخر من سطح الكرة الأرضية ويتكثف ثم ينزل مطرا وهكذا دواليك.

أو ليس مما يدعو للتأمل والتفكر أن يكون كأس الماء الذي نشربه الساعة قد شرب بعضا منه من قبل أناس ماتوا منذ زمن أو كان جزءا من الماء الذي كان يستحم فيه أرخميدس عندما طرأت له فكرة حل مشكلة التاج المشهورة؟

ولعل المشكلة الأولى التي تصادفنا هي أن الماء، على وفرته في الكرة الأرضية غير متوفر كماء عذب الا في مناطق محدودة. فمعظمه ماء مالح لا يصلح للشرب أو الري، وقسم آخر كبير منه محبوس في جليد القطبين والثلوج الدائمة على قمم بعض الجبال، وقسم ثالث ملوث لا يمكن استخدامه دون معالجته بوسائل متعددة. ولو كانت كل المياه عذبة صالحة للشرب لكانت الأرض في كل مناحيها جنة خضراء ممتدة. وأنقى المياه في الطبيعة ما كان ثلجا يليه نقاء ماء المطر الذي يحوى غازات مذابة وغبارا وهباء.

والمطر الذي يمثل أنسب أسلوب طبيعي للري يهطل سنويا على سطح الكرة الأرضية بكميات متفاوتة. ولو توزع المطر بالتساوي على سطح الكرة الأرضية لبلغ معدل هطوله 900 مليمتر في كل بقاع الارض وهي كمية كافية 76ف لطهي رطلما اذه نكلو .ءارضخ ةنج ضرلاا لعجل مناطق بكميات لا تزيد عن بضعة مليمرات ويزداد في مناطق أخرى لينزل بمعدل بضع عشرات من الميلمترات ثم يتزايد الى أن يفوق معدل 900 مليمتر بكثير في مناطق أخرى... وعدم التساوي هذا يخلق المناطق الجدباء القاحلة في جانب والمناطق التي تشكو كثرة المطر والفيضانات في الجانب الاخر... وبين الجانبين يكون معدل سقوط المطر مناسبا للزراعة بدرجات متفاوتة.

ونحن عادة نأخذ فكرة أن المطر أو الماء لازم للزراعة كقضية مسلم بها، وقلما نتعمق في الامر لنعرف كم من الماء يلزم للزراعة؟

ان من الحقائق التي أثبتها البحث العلمي أن انتاج كيلو جرام واحد من القمح يحتاج من 100-220 جالونا من الماء، وانتاج كيلو جرام من البطاطس يحتاج الى 200 جالون من الماء وانتاج كيلو جرام من الخبز يحتاج الى أكثر من 600 جالون من الماء وانتاج بيضة واحدة يحتاج الى 140 جالونا، ويحتاج ربع جالون من اللبن الحليب الى 1040 جالونا من الماء. كما يحتاج انتاج كيلو جرام من اللحم الى أكثر من سبعة آلاف جالون من الماء. وهذه الاحصاءات تعطينا فكرة عن كمية الماء التي نحتاجها لانتاج الغذاء زراعيا.

وقد فطن الانسان منذ القديم الى أهمية الماء فنشأت حضاراته تباعا حيث يتوفر الماء، سواء أكان هذا الماء مطرا أم أنهارا وبحيرات. وكان أول ما لجأ اليه الانسان في حضاراته المختلفة هو زيادة رقعة الارض المستغلة في الزراعة لزيادة انتاج الغذاء. وقد كانت زيادة كمية الغذاء المتاح للناس في الحضارات تهذه مظهرا مشتركا وعاملا ملازما لهذه الحضارات. ذلك أن الانسان عندما يتوفر له الغذاء الكافي يجد متسعا من الوقت لاعمال حضارية أخرى وبالعكس من ذلك لا يمكن أن يكون المجتمع متحضرا اذا كان هم أفراده طول وقتهم توفير الغذاء فقط.

وحتى يزيد الناس رقعة الأرض المزروعة كان من الطبيعي أن يلجأوا الى ابتداع نظم للري... فبدلا من نهر جار يروى ضفافه فقط، حفر الناس قنوات الري تمتد من النهر الى حيث لم تكن تصل مياهه... ونجد نظم

الري في الحضارة المصرية وحضارات ما بين النهرين وحضارات الصين والهند وحضارة الرومان وغيرها من الحضارات القديمة.

وعندما بدأ العلم مستعينا بالتكنولوجيا البحث في زيادة رقاع الارض المزروعة كان أول مجال طرقه هو تطوير نظم الري فلم يكتف بشق الترع والقنوات كما كان الحال في الماضي بل استعان بتكنولوجيا الهيدروديناميكا في ضخ المياه من مجاري الانهار، حتى عبر مرتفعات، الى مسافا تبعيدة لم يكن بالوسع الوصول اليها بالقنوات المفتوحة المعتادة. كما تمكن من الافادة من مياه بعض الانهار التي حفرت في الارض حتى صار مجراها أدنى من مستوى ضفافها بكثير. وزاد على ذلك بأن توسع في بناء السدود وحسن فيها الى حد كبير وهذه السدود كما هو معروف توفر كميات من الماء في وقت يعز فيه الماء طبيعيا فوق الافادة منها في توليد الطاقة.

ويتطور علم المياه الارضية (الهيدروجيولوجيا) استطاع العلم أن يقرر بدقة كبيرة أماكن تجمع المياه الجوفية وأن يحفر اليها مولدا الآبار الارتوازية التي كان ومازال لها دور كبير في الري وانتاج الغذاء.

وحتى يتضح دور العلم والتكنولوجيا في تطور نظم الري نورد الاحصائية التالية (عن نيجل هيي) فبالمقارنة بين وضع الاراضي التي تروى بنظام القنوات في عام 1800 بالوضع عام 1900 نجد أن مقابل كل فدان من الارض كان يخضع لنظام الري بالقنوات عام 1800 صار هناك خمسة أفدنة ونصف الفدان عام 1900 . وقد تضاعفت النسبة هذه حتى منتصف هذا القرن، ومن المنتظر أن تتضاعف مرة أخرى حتى نهايته. ففي عام 1900 كان مجموع مساحات الأراضي التي تروى بنظام الري الصناعي أو قنوات الري حوالي: 000ر500ر112 فدان ويتوقع الخبراء أن يرتفع هذا الرقم حتى يصل الى 600 مليون فدان في عام 2000.

وقد أدخلت الصين وحدها في الخمسينات من هذا القرن نظام الري الى حوالي 100 مليون فدان وهي مساحة توازي مساحة ما يزرع في كل كندا. وفي الفترة من 1951-1963زادت الهند المساحة التي تروى صناعيا بحوالي 12 مليون فدان. ومن الممكن أن تخضع سوريا 100 مليون فدان للري الصناعي، كما أدى بناء السد العالي في مصر الى توفير كمية من الماء تكفي لري حوالي 5 ملايين فدان من الاراضي الزراعية التي لم تكن

تروى من قبل. ومن المنتظر أن تدخل عشرة ملايين فدان اضافية في نظم الري المخطط لها في مشاريع نهري دجلة والفرات. وفي الاردن زيدت الاراضي الخاضعة لنظام الري نتيجة شق قناة الغور الشرقية بملايين الافدنة. كما زيدت المساحة المروية بنظام القنوات في الولايات المتحدة ملايين عديدة من الافدنة. ومثل ذلك كثير في أنحاء مختلفة من العالم.

فاذا أضفنا لذلك مساحات أخرى ستروى من الآبار الارتوازية الجديدة يصبح عندنا صورة تقريبية لما سيكون عليه وضع هذه الأراضي المستزرعة في المستقبل. وفي مجال الآبار الارتوازية يحاول العلماء اليوم تسريب مياه بعض الأنهار والبحيرات الى ما تحت التربة بدلا من اندفاعها نحو البحر وبذلك يرتفع منسوب الماء الارضي وتكثر الآبار الارتوازية.

المطر الصناعي:

ذكرنا أن الدورة المائية تعم الكرة الارضية ولكنها مختلفة كما في الاصقاع المختلفة. وأن معدل سقوط الامطار يتفاوت من مكان لآخر تفاوتا كبيرا. وما زال العلم غير قادر على فهم كيفية سقوط المطر فهما كاملا واضحا.

ولعل في حركة الهواء الجوي التي يصعب حتى الان ضبطها والتنبؤ بها بدقة علمية ما يجعل فهمنا لسقوط المطر محوطا ببعض الغموض. وما لم يفهم العلماء ذلك بدقة علمية لا يمكنهم التحكم بهذه الظاهرة والسيطرة عليها.

غير أن العلماء لا يثبط عزائمهم ضخامة الظاهرة وتعقيدها ولا الصعوبات في دراستها... بل لعل ذلك هو التحدي الذي يحفزهم لمزيد من الجهد ومزيد من البحث. وكان عدم سقوط المطر في المناطق التي تشكو الجفاف، وهطوله في أماكن تشكو من كثرته مثار كثير من التساؤلات الفلسفية والفكرية.

واستطاع العلماء بما يعرف بزرع السحب عن طريق حقن السحب غير الممطرة بكميات صغيرة من مواد كيماوية معينة، تحويل هذه السحب الى سحب رعدية ممطرة في مدى قصير من الزمن لا يتعدى الساعة ونصف الساعة.

غير أن ما يسقط من هذه السحب الرعدية الممطرة التي تولدت بعملية

زرع السحب لم يكن مطرا في جميع الحالات... بل لم يكن بالوسع التحكم في ذلك... فقد تنزل هذه السحب الرعدية البرد بدلا من المطر... والبرد يضر بالمزروعات الى حد كبير. وقد ينتج عن هذه العملية هطول الثلج بدلا من المطر... وفي ذلك أيضا ما فيه من أضرار وبخاصة اذا كانت عملية زرع السحب تجري صيفا. ولكن العلماء لا ييأسون ومازالت الابحاث مستمرة.

وقد بدأت تجارب زرع السحب عام 1946 حين استأجر فنسنت شافر طائرة صغيرة وأخذ معه كمية قليلة من الثلج الجاف (وهو ثاني أكسيد الكربون المتجمد على درجة حرارة 78م تحت الصفر) ثم دخل بطائرته في سحب صيفية غير ممطرة وأطلق الثلج الجاف وسطها... وسرعان ما تجمعت تحول بلورات الثلج الجاف ملايين من بلورات الثلج المائي ما لبثت أن أخذت تسقط ثلجا على الارض.

ثم تحول العلماء من الثلج الجاف الى مركب يوديد الفضة وصاروا يطلقونه من طائرات كما صاروا يطلقونه من مولدات على الارض وقمم الجبال بخاصة تدفع بلوراته الصغيرة بقوة نحو السحب المراد زرعها. واصطدم العلماء بصعوبة جديدة أخرى وهي أن انزال ماء سحب، سواء أكان ذلك على شكل ماء أم على شكل ثلج أو برد، في مكان ما يحرم مكانا آخر من هذه المياه كانت ستنزل فيه لو تركت دون تدخل العلماء. واذا كان كلا المكانين مأهولين وصالحين للزراعة فان الامر يصبح غير قابل للتطبيق. ومع ذلك أو رغما عنه تستمر الابحاث... وقد عودنا العلماء أنهم لا يهدأون حتى يتوصلوا الى نتيجة ترضيهم ولو طال بهم الزمن.

ومع أن النتائج مازالت غير حاسمة الا أنه حدثت بعض التطبيقات المفيدة لعملية زرع السحب. فمثلا في شتاء عام 1960 بكولورادو دلت دراسة سمك طبقات الجليد على الجبال التي تغذي النهر بالماء أن منسوب مياه النهر سيكون منخفضا مما ينذر بالجفاف والقحط... فقام فريق من العلماء بوضع مولدا على قمم الجبال تدفع بلورات دقيقة من يوديد الفضة الى الجو... وقد تبع ذلك سقوط الثلج فعلا بكميات تغزيرة على تلك الجبال مما أدى الى مضاعفة سمك طبقات الجليد في مدى شهر واحد وكانت النتيجة أن كثرت المياه في النهر وتجنبوا وقوع الجفاف.

وفي عام 1967 أدى الجفاف الى جفاف ترع الري والخزانات المائية في

شمال ايران وذبلت المحاصيل الزراعية ونشأت أزمة حادة في مياه الشرب في مدينة طهران.

ولايجاد وسيلة للتغلب على هذه الازمة أقام علماء الارصاد الجوية محطات خاصة مزودة بأجهزة متطورة لالتقاط المعلومات التي تبثها أقمار صناعية خاصة برصد الطقس والجو كانت قد أطلقت من قبل. وكانت الغاية معرفة توزع السحب في منطقة جنوب غرب آسيا كلها. وهكذا استطاع العلماء من متابعة صور توزع هذه السحب رسم خرائط لاماكن تجمع السحب والطرق التي تتبعها في مرورها فوق ايران. ومن دراسة هذه الخرائط كان العلماء يقررون أنسب الاماكن لاطلاق قنابل تتفجر وسط هذه السحب وتطلق بلورات دقيقة من يوديد الفضة. وهذه تعمل على أن تكون كل بلورة منها نواة لقطرة ماء يتجتمع الماء المتكثف عليها ويسقط مطرا. وكانت هذه العملية تجري باستخدام الطائرات لاطلاق القنابل منها على ارتفاع يتراوح بين 17 الف و 22 ألف قدم. وقد أمكن بذلك وخلال شهور قليلة التغلب على أزمة الجفاف الحاد في إيران... ونظرا للنجاح الكبير الذي حققته هذه العملية كررت في عام 1969 وعام 1970 لمعالجة موجتين من الجفاف أحاقتا بايران أيضاً.

تحلية المياه المالحة:

لما كانت أكبر كمية من الماء في الكرة الارضية هي ماء مالح يتجمع معظمه في البحار والمحيطات... ولما كانت هذه الكمية من الماء المالح هي أيضا أكبر مصدر للماء العذب في دورة الماء في الطبيعة، اذ يتبخر الماء من هذه البحار والمحيطات ويتكثف سحبا ثم يهطل مطرا أو ثلجا ينصهر ويسير ماء الى أن ينتهي به المطاف الى البحر مرة أخرى، فقد كان من الطبيعي أن يحاول العلماء تقليد الطبيعة واستخلاص الماء العذب من الماء المالح بالتبخير والتكثيف أو ما يعرف بالتقطير.

وقد عرف العالم مقطرات مياه عديدة مبنية على هذا المبدأ العلمي ولكن معظمها كان لانتاج ماء عذب للشرب بالدرجة الاولى... وفي عام 1968 دخلت هيئة الطاقة النووية الامريكية هذا الميدان بغرض توفير مياه للري، وقامت بتصميم مفاعل نووي زراعي صناعي أمكن بوساطته تحلية

كميات من ماء البحر لتروي مساحات ن الارض تكفي لانتاج غذاء لستة ملايين نسمة. وقد كان لهذا التقرير أثر ضخم اذ كان يبشر بامكان زراعة الاراضي القاحلة وتسميدها بأسمدة كيماوية تنتج من مصانع ملحقة بالمفاعل وتدار بالطاقة الناجمة عن التفاعل النووي.

وقد أقامت الكويت أكبر مجمعات تقطير المياه في العالم حتى الان ولكنها تعتمد في طاقتها على حرق الغاز الطبيعي. ومع أن كلفة هذه المقطرات أقل من كلفة مثيلاتها التي تدار بالطاقة النووية باعتبار أن الكويت تنتج الغاز الطبيعي الا أننا نعتقد أن الأفضل أن تستخدم الطاقة النووية في ادارتها لاسباب رئيسية منها:

ان مقطرة ذات وقود نووي أقل تعرضا للاخطار من أخرى عادية، وأن الغاز الطبيعي أثمن كثيرا من أن يستخدم كوقود فقط، وأنه بالوسع الافادة من الوقود النووي في انتاج نظائر مشعة تشتري الان بكلفة عالية، بالاضافة لاسباب عديدة أخرى.

ومع ارتفاع اسعار المواد الغذائية وازدياد الحاجة اليها سيصبح لزاما على العالم القبول باقامة مقطرات مياه نووية ضخمة وبخاصة في الصحارى المجاورة للبحر كالكويت والمملكة العربية السعودية والصحراء الكبرى وغيرها.

وسيكون بوسع مثل هذه المقطرات ري ملايين جديدة من الافدنة وفي نفس الوقت انتاج السماد اللازم لها وكذلك الطاقة التي تحتاجها المدن والقرى التي لا بد ستنشأ حولها. على أن علينا أن ننتبه الى أن الري العادي بالقنوات المفتوحة فيه هدر لكميات لا بأس بها من المياه اذ أن قسما من هذه المياه يتسرب الى داخل التربة دون أن يفيد منه النبات، كما أن قسما آخر يتبخر ويذهب في الجو... ولما كنا نجهد في سبيل الحصول على الماء بكل هذه الوسائل فقد رأى العلماء أن هدر كميات من الماء الثمين أمر غير جائز وقد تمكنوا من استنباط وسائل للري تتسم بسمات الاقتصاد في استعمال الماء بحيث يذهب معظم ماء الري للنبات نفسه. ولعل أحدث هذه الوسائل وأكثرها اثارة للحماس ما يعرف بوسيلة الري بالتنقيط. وفي هذه الوسيلة تمد على سطح الارض قرب سوق النبات أنبوبة دقيقة من البولي ايثلين (البلاستيك) تثقب ثقوبا دقيقة عند اتصال ساق النبتة بالارض

ويمرر في هذه الانبوبة الماء (وأحيانا بعض أملاح الأسمدة) فيخرج الماء من الثقوب قطرات متتابعة تنزل في التربة ليلقاها الجذر فيمتصها. وبذلك لا يضيع جزء من الماء، كما في أسلوب الري العادي، يذهب في التربة حول النبتة دون ما حاجة اللهم الا تشجيع الاعشاب الضارة على النمو.

على أن من المهم أن ننتبه الى خطر التلويث بالاشعاع من هذه المقطرات النووية وضرورة اتخاذ كل صنوف الحيطة في استعمالها، والا تسببنا في ضرر أشد خطرا على الحياة من مجرد نقص الماء.

استصلاح الأراضي الموات:

ويستتبع توفير كميات من الماء العذب للري ضرورة استصلاح الأراضي الموات. ومثل هذه الأراضي اما أن تكون مالحة أو حمضية أو قلوية أكثر مما ينبغي وقد تكون صخرية وعرة كما قد يكون نسيجها غير مناسب لما يرغب الناس في زراعته، وقد تكون أرضا تتحرر من الجليد والثلج فترة قصيرة نسبيا من العام أو بمعنى آخر أنها قاحلة لقلة المتوفر من الماء السائل فترة طويلة من العام، والنبات بعامة لا يفيد الا من الماء السائل لا المتجمد كثلج أو الغازي كبخار (وهذه حالة تعرف باسم الجفاف الفسيولوجي). الى غير ذلك من أسباب تجعل الارض مواتا.

ويتقدم العلم والتكنولوجيا مع توفير المياه العذبة تمكن الانسان من التغلب على معظم هذه العقبات وأصبح بالوسع زيادة رقعة الأرض المزروعة.

فقد مكن التقدم العلمي والهندسي الفنيين من غسل التربة المالحة بشكل يقلل ملوحتها كثيرا، وكذلك صرف المياه المتجمعة في المستنقعات ومعالجة التربة كيميائيا لتعديل حموضتها أو قلويتها الزائدة... كما صارت المناطق الصخرية الوعرة تزرع بأشجار تستطيع جذورها اختراق الصخر وتفتيته مع الزمن، وأصبحت وسائل منع انجراف التربة متطورة الى مستوى عال... وصار بالوسع تعديل نسيج التربة ميكانيكيا لتناسب المطلوب زراعته... وتمكن البحث العلمي من انتاج سلالات من القمح مثلا تنمو وتنضج في فترة قصيرة من الزمن مما يسمح بزراعتها في مناطق التندرا حيث تزرع وتحصد في فترة مائة يوم وهي الفترة التي تتحرر فيها الارض هناك من الجليد والتجمد.

وهذه الجهود، دون شك، ذات مردود على زيادة كمية الغذاء المتاح لبني البشر. وقد أسهمت مع كثير غيرها في زيادة المساحات القابلة للزراعة وانتاج الغذاء.

استعمال أساليب زراعية غير عادية:

ولم تتوقف جهود العلماء على تحوير الطبيعة واخضاعها لظروف ملائمة للزراعة، بل أخذوا يجربون استعمال أساليب غير عادية في الزراعة ومن ذلك: الزراعة بدون تربة والزراعة في البيوت الزجاجية أو تحت القباب والاغطية البلاستيكية.

وفي الزراعة بدون تربة النباتات في حصى صغير أو حبيبات بلاستيكية بدل التربة وتكون في أماكن خاصة تعمل مائلة وتغطى بالزجاج ويتحكم الزارع بالماء الذي يصب في المكان المرتفع بحيث يسيل الى المكان المنخفض ويذاب في الماء الاملاح المعدنية (السمادية) بالمقادير والنسب التي تلائم نوع المزروعات ونموها. ويمكن جمع الماء بعد مروره على النبات كله واعادة الاملاح التي امتصها النبات منه. وواضح أنه يمكن وضع هذه المزارع بدون تربة في أماكن لا مجال للزراعة فيها وحتى على أسطح العمارات.

وفي المناطق التي تتعرض للصقيع، وغيره من العوامل التي تحد من نمو النبات أو تقتله، تزرع النباتات تحت قباب أو أغطية من البلاستيك لوقايتها من هذه العوامل الضارة.

كما يحدث أن تتزرع النباتات في بيوت زجاجية يمكن التحكم في درجة حرارتها ودرجة رطوبتها وشدة الاضاءة ومدتها. ومع أن هذه البيوت مازالت تستعمل الى حد كبير لاغراض البحث العلمي وانتاج الزهور غالية الثمن الا أن امكان استعمالها في انتاج الغذاء، وبخاصة عند الحاجة، ممكن ومفيد.

تحسين الانتاج الزراعي:

مع زيادة المساحات المزروعة والقابلة للزراعة وزيادة كميات المياه العذبة المتاحة للزراعة، كان لابد للعلم من الانصراف للبحث في ايجاد وسائل وأساليب لتحسين الانتاج كما ونوعا. واتخذت هذه الوسائل والاساليب

أشكالاً متعددة مختلفة منها:

1 - ادخال التكنولوجيا في الزراعة:

تختلف التربة أنواعا وسمكا، وهي بذلك تحتوي كميات مختلفة من الاملاح المعدنية التي تمتصها النباتات بنسب متفاوتة حسب حاجة النبات. وقد كانت أساليب الزراعة في الماضي، ومازالت في بعض البلاد المتخلفة، تستغل الطبقة السطحية من التربة فقط. وهذا يؤدي الى افقار هذه التربة السطحية في مدى موسم أو موسمين زراعيين على الأكثر.

وبدخول التكنولوجيا ميدان الزراعة أصبحت هناك محاريث قوية تقلب الأرض وتخرج للسطح أجزاء من التربة لم تستغل بعد.

كذلك كانت الأساليب القديمة بطيئة بحيث لم يكن بوسع المزارع حرث أكثر من رقعة صغيرة من الارض وبذرها والعناية بها وحصادها. والمعروف أن كل عملية من هذه لها وقت محدد لا يمكن تجاوزه. غير أن ادخال الآلات التكنولوجية المتطورة مكن المزارع من حرث مساحات تبلغ أضعاف ما كان يستطيع حرثه ومكنه من بذرها والعناية بها وحصارها في الفترات المقررة لها طبيعيا. وبذلك تمكن من استثمار مساحات أكبر من الأرض وتضاعف انتاجه.

وأنتجت التكنولوجيا للمزارع زيادة على آلات الحرث آلات تبذر وأخرى تقاوم الحشرات والآفات الزراعية وثالثة تنتقي الثمار بشكل أفضل ولا يؤدي الى تلف أي منها أو ايذاء الشجر ورابعة تحصد المحصول وتتفرزه وتعبئه تمهيدا لنقله بسرعة لم يكن ليحلم بها المزارع القديم.

2- التسميد:

لاحظ الانسان المزارع منذ زمن طويل تأثير استنزاف الاملاح المعدنية من التربة على انتاجه الزراعي... وعالج ذلك بوسيلتين الاولى: ترك الارض التي زرعت موسما أو موسمين زراعيين بورا لسنة من الزمن لتتمكن من استعادة كميات الاملاح المعدنية التي فقدتها وكأنه كان يريح الارض لتستعيد قواها. والثانية: وضع روث الحيوانات وبقايا النباتات فيها كسماد طبيعي لتعويض ما تفقده من أملاح للنبات.

وكان من الطبيعي أن تكون هاتان الوسيلتان غير كافيتين... وأن تتدهور

نتيجة لذلك قدرة الارض الانتاجية... وقد نجم عن ذلك تغيرات كثيرة اجتماعية وحضارية واقتصادية في مجتمعات عديدة عبر التاريخ.

وقد عني العلم بالتسميد منذ زمن وقد أدى تطور علم التعدين في الجيولوجيا الى اكتشاف مناجم للفوسفات في كثير من البلاد كما طور علم الكيمياء الفوسفات الخام الى ما يعرف بالسوبرفوسفات الذي يحوى كمية أكبر من الفوسفات الضروري للنبات. ومنذ أن ابتدع العالم الكيماوي الالماني هابر طريقته في تثبيت نايتروجين الجو وتحويله الى أمونيا (نشادر) ابان الحرب العالمية الاولى ازدادت عناية الكيماويين بالاسمدة وانتاجها. ونجد اليوم مصانع عديدة تتقوم بجوار المصادر النفطية تنتج من بعض غازات النفط اليوريا والامونيا (النشادر) ونيترات الامونيوم الذي يعتبر من أفضل الاسمدة للنبات. ولم يكتف العلم بابتداع أسمدة كيماوية مختلفة بل ازداد، نتيجة البحث العلمي، فهم فسيولوجية النبات وحاجاته وبذا صار التسميد مجموعة عمليات هادفة لكل نوع من السماد فائدته ووظيفته وكميته اللازمة.

3- تكبير مساحة المزارع والعناية بادارتها:

وكذلك ثبت أن زراعة مزارع كبيرة نسبيا أفضل من وجهة اقتصادية من تعدد المزارع الصغيرة. ونتيجة لذلك اتجهت الجهود نحو توفير مساحات كافية في وحدات المزارع بحيث يكون استغلالها بالوسائل الميكانيكية، التي أشرنا اليها قبلا، ذا مردود مريح اقتصاديا. وفي البلاد التي لم يكن بالوسع تكبير المزارع من حيث المساحة، لسبب أو لآخر، قدم الاقتصاديون والعلماء حلولا وسلطا تكمن في انشاء التعاونيات الزراعية بحيث يكون عدد من المزارع صغيرة المساحة وحدة كبيرة المساحة متعاونة وتدار على أساس أنها مزرعة واحدة.

كما ازداد الوعي بأهمية حسن الادارة والتخطيط وأصبح هناك علم خاص بالادارة وفنونها. ويشمل علم الادارة حسن الافادة من جهود العاملين واستخلاص أكبر قدر من امكاناتهم الانتاجية وتعاونهم معا كل في مجاله للوصول الى الاهداف المقررة، وحسن التخطيط والافادة من الاكتشافات العلمية والتكنولوجية وتطبيقها، والنظرة المستقبلية. وصار اختيار من يوكل اليهم أمر الادارة أمرا يحتاج الى كثير من أعمال الفكر نظرا الى ضرورة

تحلي المسئول عن الادارة بصفات ومميزات متعددة في ميادين مخلفة. فعليه أن يكون خبيرا بالتعامل مع مرؤوسيه وزملائه ورؤسائه قادرا على حفز العاملين معه على بذل أقصى جهدهم باخلاص وتعاون، وقادرا على الحصول على ثقة زملائه ورؤسائه ودعمهم في مشاريعه المقترحة. كما يشترط فيه أن يكون على علم بجوانب المشروع الذي يديره وعلى اطلاع مستمر على ما يستجد في ميدانه والميادين ذات الصلة. وتشمل هذه الميادين جميع الميادين الاخرى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية والتربوية وحتى الادبية لا في وطنه فحسب بل وفي العالم أجمع.

4- تحسين نوع ما يزرع وكميته الغذائية:

منذ أن بدأت الثورة الزراعية اهتم الانسان باكثار ما يزرعه..

ولولا الاكثار لما كانت تلك الثورة. وبدأ الانسان تدريجيا يلحظ أن هناك أصنافا من بذور النبا تعطي منتوجا أكثر من غيرها ... كما تعلم أن التزاوج بين أصناف وسلالات مختلفة تنتج أحيانا ما يعطي مردودا أفضل. وفي هذا ما فيه من حوافز اقتصادية يصعب على الانسان أصلا مقاومتها أو مقاومة اغرائها.

وتدخل العلم وبخاصة في هذا القرن بعد تفهمه لاسس الوراثة بشكل سليم في هذا الميدان - ميدان تحسين نوع ما يزرع من نواحي متعددة ليس أقلها ناحية الوفرة والكثرة.

وركز العلم جهوده على ميدان الوراثة. فركز أولا على مزاوجة سلالات وأصناف مختلفة الصفات... ثم ركز جهده على تغيير الصفات الوراثية بتعريض البذور للاشعاع.

ولا بد لنا من القول أن كلا الجهدين ينتج أصنافا وسلالات مختلفة الصفات منها السيىء ومنها نصف الحسن ومنها الحسن.... وحتى الحسن الذي ينتج يكون في الغالب حاويا لصفات أخرى غير حسنو في مجال آخر غير موضوع البحث - كأن يكون النبات وفير الثمار ولكنه سريع الاصابة بفطر عفن ما... مما يستدعي مواصلة الجهد والبحث لكي نصل الى صفات مرغوبة حسنة في مجموعها. وهذا يستغرق وقتا طويلا.

فمثلا استغرقت أبحاث الدكتور نورمان بورلوج ستة وعشرين عاما

حتى توصل الى صنف من القمح وفير الانتاج وقد جرت أبحاثه في المكسيك. فقد كان متوسط انتاج فدان القمح في المكسيك أحد عشر (بوشلا) وعندما أدخلت زراعة الصنف الذي استنبطه بورلوج وصل انتاج الفدان من القمح الى مائة (بوشل) أي ما يقرب من عشرة أضعاف ما كان ينتج... وقد كان لهذا الجهد العلمي أثر اقتصادي ضخم... اذ حول المكسيك من دولة مستوردة جزئيا لحاجتها من القمح الى دولة مصدرة للقمح.

ومن المفيد أن نضيف أن الدكتور بورلوج منح لجهوده هذه جائزة نوبل للسلام.

وقد كانت جهود هذا العالم، التي أدت به الى هذا النجاح الهائل، منصبة على التحكم بالعوامل الوراثية لنبات القمح... وقد تمكن، في مدى هذه الأعوام الطوال باستعمال طريقة التهجين والمزاوجة من الجمع في صنفه الجديد بين الصفات المرغوبة من أصناف متعددة واستبعاد الصفات الرديئة.

ومع أن العلماء يركزون على الحبوب باعتبار أن 80٪ من السعرات الحرارية التي يستهلكها سكان العالم في غذائهم في العام مصدرها مختلف أنواع الحبوب، الا أن جهودهم لم تقتصر عليها... وأهم ثلاثة محاصيل حبوب تستخدم في غذاء بني البشر هي القمح والارز والذرة... ويأتي الشعير في مرتبة تالية. ويشغل القمح حوالي ثلثي المساحة العالمية المخصصة للحبوب ويمتاز بقيمته الغذائية وبامكان زراعته في بيئات مختلفة الطقس وكميات المياه.

وكان لابد للعلماء من الاهتمام بالارز نظرا لان حوالي نصف سكان العالم يأكلون الأرز كمصدر أساسي للتغذية. وأثمرت أول جهود العلماء في تغيير الفكرة التي كانت سائدة عن أن الارز لا تجود زراعته الا في المناطق الاستوائية. فقد امكنت زراعة الارز في مرتفعات جبال الهيمالايا وحقول شيكوسلوفاكيا وايطاليا ومناطق واسعة من أمريكا. ثم التفت العلماء الى تحسين الانتاج فقد كان متوسط محصول الفدان في جنوب شرقي آسيا حتى عام 1962 لا يزيد عن 700 كيلو جرام بينما كان متوسط محصول الفدان في الولايات المتحدة واليابان وأوروبا حوالي 2000 كيلو جرام.

وكان المجال الذي انصبت أبحاثهم عليه هو ميدان المزاوجة والتهجين... وتجمع لدى العلماء الباحثين في المركز الدولي للبحث العلمي في الارز

حوالي 6000 صنف من الارز من جميع أنحاء العالم، وأخذوا في دراسة صفات كل صنف وتحديد أحسن تجمع للصفات الوراثية. وقد قام الدكتور تشانج من تايوان بدور هام في تحديد أهم الصفات اللازمة اذ أدرك وزملاؤه أن المشكلة الرئيسية في قلة الانتاج تكمن في مرض الرقاد. فالنبات ذو الساق الطويلة الذي يحمل عددا كبيرا من الحبوب في سنابله يصاب بمرض الرقاد قبل أن ينضج الحب فيضيع جزء كبير منه.

وكان أهم الباحثين التوصل الى نوع تتميز سوقه بالصلابة والقصر. وتم النهجين أو المزاوجة بين نوعين أولهما ذو ساق قصيرة صلبة وثانيهما ذو انتاج وفير. ومن بين 38 هجينا لم يكن هناك غير هجين واحد مشجع على الاستمرار في المزاوجة... وبعد ثلاث سنوات من الجهد المتصل تمكن العلماء من انتاج صنف جديد من الارز عالي المحصول اذ بلغ متوسط ما ينتجه الفدان منه 3000 كيلوجرام، وككان في نفس الوقت مقاوما لمرض الرقاد وللحشرات، كما كان من صفاته عدم التأثر بطول النهار أو قصره مما جعل من الممكن زراعته في كل مناطق العالم.

ومن المهم أن نذكر أن قصة البحث العلمي في تحسين زراعة الارز لم تنته فصولا بانتاج هذا الصنف الجيد. وهي صفة لازمة من صفات البحث العلمي الذي لا يقنع... فالجهود مستمرة لاضافة صفات جديدة كمقاومة بعض الامراض الفطرية وغيرها وكذلك زيادة نسبة البروتين في حبوب الارز.

وفي مجال البحث العلمي في الذرة تمكن العلماء أيضا من انتاج أصناف ذات نسبة بروتين عالية، وهي خدمة هامة في ميدان الغذاء... ذلك أن الذرة العادية قليلة البروتين... وينتشر مرض كواشيوركور - نقص البروتين - الذي سبق ذكره، بمضاعفاته الخطيرة بين اطفال أمريكا الجنوبية وأفريقيا حيث تكون الذرة الغذاء الرئيسي للسكان.

وتتكرر الصورة في مجالات عديدة أخرى تشمل معظم النباتات التي يستخدمها الانسان للغذاء، فقد زاد انتاج هذه النباتات الغذائية لدرجة أن بعضها أصبح متوفرا كغذاء لعامة الشعب بعد أن كان لندرته متوفرا للخاصة فقط.

كما اهتم العلماء بتغيير الصفات الوراثية لكثير من النباتات مستخدمين

الاشعاع وسيلة وسبيلا لذلك. فالمعروف أن تعريض مراكز الوراثة في أنوية الخلايا للاشعاع يسبب تغييرات فيها وبذلك تنتج صفات جديدة... الكثير منها سيىء ورديء والقليل القليل حسن ذو فائدة غذائية واقتصادية وأكثر غزارة في الناتج. وبعد كثير من التجارب استغرقت وقتا طويلا وكلفت مالا كثيرا تمكن العلماء من عزل بعض الصفات الممتازة بحيث كان النبات الناتج كبير الثمار الى حد يلفت النظر أو كان الطعم متغيرا بشكل أفضل الى آخر ما هنالك من ميزات غذائية.

ويهتم فريق من العلماء بميدان آخر... فالمعروف أن نباتات العائلة البقلية تستضيف في جذورها بكتريا خاصة لها قدرة على تثبيت غاز النايتروجين في البحر وتحويله الى مركبات نايتروجينية.

وكما ذكرنا تكون هذه المركبات أهم الاملاح المعدنية التي يحتاجها النبات لنموه. فهي لذلك سماد ممتاز. وقد عرف المزارعون أثر ذلك منذ زمن وصاروا يزرعون البقول مرى بعد بضع سنوات تزرع فيها الحبوب ويتركون الجذور في التربة لتبقى المواد النايتروجينية في التربة تثريها وترفع من كفاءتها الانتاجية.

وهناك علماء تنصب أبحاثهم على محاولة جعل هذه البتكريا تسكن في جذور نباتات غير بقلية ليس من طبيعتها أن تتعايش معها هذه البكتريا. وبذلك يزداد نموها ويكثر ناتجها. وما زالت هذه الابحاث في بدايتها.

وهناك اتجاه حديث لاكثار النبات بوسائل غير تقليدية. فنحن نعلم أن للنبات دورة حيوية اذ يبدأ بذرة فبادرة فنبتة ثم يزهر ويثمر مكونا البذور مرة أخرى.

ونعلم أيضا أن هذه الدورة تأخذ وقتا محددا يستغرق موسما أو سنة أو أكثر حسب نوع النبات. كما أن عدد البذور الناتجة عن هذه الدورة الحيوية، وان كان أضعاف ما بدأنا به، الا أنه في حدود معينة.

وقد وجد العلماء أن العديد من النبات يتكاثر بطريقة خضرية - أي بدون البذور معتمدا على تكاثر الخلايا العادية فيه. وكان الانسان يلجأ لهذه الوسيلة في اكثار بعض نباتاته كالبطاطس والنخيل والعنب وغيرها.

ويبدأ العلماء هذه العملية اليوم باختيار نبتة ممتازة وأخذ جزء منها، كورقة مثلا، وتقسيم هذه الورقة بعد تطهيرها الى قطع صغيرة ثم وضع

هذه القطع في محاليل غذائية وبالتالي اثارة خلاياها للانقسام والتكاثر. ثم أخذ أجزاء من هذه الخلايا المتكاثرة واعادة وضعها في محاليل غذائية جديدة داخل دوارق معقمة مع تعريضها للضوء والدفء والاكسجين. وتتكرر هذه العملية وتستمر قرابة السنة.

ونتيجة ذلك يتولد عندهم من الورقة التي بدأوا بها حوالي مليون كتلة خلوية كل منها تنتج بادرة أو أكثر وبعد أن تصل الى حجم معين داخل الدوارق تنقل الى الحقل لتكمل دورتها الحيوية.

وهكذا بدلا من أن ينتج عن نبتة برمتها بضع عشرات من البذور يعاد زرعها، يمكن بهذا الاسلوب المستحدث في مدى عام انتاج ما لا يقل عن مليون نبتة من نبتة واحدة ابتديء بها. وفي هذا اكثار يفوق الاكثار الطبيعي بمراحل عديدة جدا.

وفوق ذلك فانه نتيجة لكون كل هذه الاعداد من النبات من أصل واحد اكثر خضريا في جو معقم فان جميع النبتات الناتجة تكون بذات الصفات والخصائص التي كانت للنبتة الام دون تغيير. فاذا كانت تلك النبتة ممتازة الصفات كان جميع النبتات كذلك دونما حاجة للجهد يصرف في مزاوجة النبتات وانتظار نتائج ما ينجم عن ذلك من صفات.

5- مقاومة عوادي البيئة ومعالجة آثارها:

ككل كائن حي يعيش في بيئة ما تتعرض النباتات لعوادي في البيئة تؤثر في حياتها وبالتالي انتاجها. وحتى يكون ناتج النبات المزروع بأقصى امكاناته لا بد من أن يكون النبات في أم صحة وبعيدا عن تأثير عوادي البيئة. كما أن عوادي البيئة هذه تحد من نجاح جهود العلماء التي أشرنا اليها فيما سبق في اكثار الانتاج الغذائي للعالم.

ولذا كان من الطبيعي أن ينصرف بعض جهد العلماء لمقاومة هذه العوادي وعلاج آثارها. ومن عوادي البيئة التي تسبب خسارة هائلى في الغذاء العالمي الكوارث الطبيعية من جفاف غير طبيعي الى فيضانات كاسحة أو أعاصير مدمرة أو حرائق أو هطول البرد كبير الحجم أو الصقيع الى آخر ما هنالك... ويرى العلماء أن أفضل سبيل لتلافي آثار هذه الكوارث الطبيعية يكمن في فهم طبيعتها وأسرارها ومسبباتها. ومن خلال هذا الفهم يمكن

على الاقل الحذر منها واتقاء مخاطرها ان لم يكن بالوسع منعها. وعلى ذلك نجد فريقا لا يستهان به من العلماء يدرسون هذه الظواهر أو بعضها دراسة علمية دقيقة.. ومازلنا نأمل أن ينجح هؤلاء في القريب العاجل في دراساتهم وأن نستطيع أن نطبق نتائج هذه الدراسات للحد من أثر هذه الكوارث على الانسان وغذائه وممتلكاته بشكل ناجع.

ومن عوادي البيئة الاخرى أمراض النباتات. فالنبات ككل كائن حي يمرض، والمرض مظهر من مظاهر الحياة. وأمراض النبات كأمراض الحيوان والانسان تنشأ عن اختلال البيئة الداخلية بسبب تطفل كائنات حية أخرى عليه، أو نقص في الغذاء، أو عدم تمكن النبات من التكيف والتوازن مع البيئة الخارجية وتغيراتها المحتملة.

وكما اهتم العلماء بعلاج أمراض الانسان والحيوان اهتموا أيضا بعلاج أمراض النبات، وأصبح هذا الموضوع ميدان علم قائم بذاته يتسع باستمرار نتيجة البحث العلمي الجاد الهادف.

ولسنا بحاجة الى القول أن أمراض النباتات كانت السبب في هبوط معدل انتاج الغذاء وهبوط المستوى الغذائي لما ينتج. ويقدر العلماء ما يفقده العالم من غذاء نتيجى أمراض النبات بمئات الملايين من الدنانير سنويا. ولذا فان جهد العلماء في معالجة هذه الامراض ومقاومتها يوفر كميات من الغذاء للبشرية تتزايد باستمرار نتيجة نجاح الابحاث العلمية.

ومن عوادي البيئة أيضا الحشرات والآفات والاعشاب عديمة الفائدة. فالحشرات وهي أنجح الفصائل الحيوانية بعد الانسان تعد وريثة الانسان لهذه الارض اذا ما تسبب الانسان بحماقاته في القضاء على جنسه. وقد جهد العلماء كثيرا في محاولة القضاء على الحشرات الضارة ولكنهم فشلوا في ذلك رغم تعدد الوسائل التي حاربوا بها تلك الحشرات. والحشرات الضارة لا تنقل الامراض للانسان والحيوان فحسب، بل وتتغذى على غذائه... ولو تركت وشأنها دون تدخل من العلم وأساليبه الحديثة، لما تركت للانسان من غذاء الا النزر اليسير مما لا يسمن ولا يغني من جوع. وهي مع كل الاساليب العلمية في مكافحتها تستهلك جزءا لا يستهان به من غذاء الانسان في العالم.

وبالطبع تكثر هذه الحشرات وتزدهر في مناطق المجتمعات المتخلفة

حيث الحاجة لمزيد من الغذاء شديدة وملحة.

والجراد من الحشرات الضارة التي تطعي مثلا صارخا لما تستطيع الحشرات أن تسببه من أذى... فكم من موجة جراد حطت في مكان وتركته كعصف مأكول.. وسببت لسكانه المجاعة والاذى. ولم يتمكن العلم من الحد من أذى موجات الجراد الا عندما تكاتفت الدول معا عبر منظمات متخصصة وقامت بجهد مشترك مكثف مستخدمة أحدث الاساليب العلمية. غير أن النجاح النسبي الذي تحقق في محاربة مواطن الجراد معروفة ويمكن محاربته في تلك المواطن التي هي صحراوية لحسن الحظ. أما الحشرات الاخرى فتعيش في بيئات مزدحمة بالنبات والحيوان والانسان ومقاومتها بجهد مكثف يعني ايذاء بقية الكائنات الحية. وفوق ذلك فان من الحشرات أنواعا مفيدة الى حد كبير وأي جهد ضد الحشرات الضارة في مثل هذه البيئات يعني القضاء أيضا على الانواع المفيدة وهذا ما لا يريده أحد فبدون الانواع المفيدة يقل انتاج الغذاء النباتي الى حد كبير. كما أن الحشرات أثبتت قدرتها على التكيف مع السموم التي يبتدعها العلم للقضاء عليها.. بحيث أنها في مدى جيلين أو أكثر قليلا - وهذا يعني بضعة أسابيع تستطيع ان تقاوم هذه السموم. ولعل سرعة تكاثر الحشرات ومعدل هذا التكاثر من أكثر ما يساعد العيش بدون ماء تقريبا يجعلها تعيش في أية بيئة من بيئات هذه الكرة الارضية.

وقد ابتدع البحث العلمي وسائل غير السموم لمقاومة هذه الحشرات منها تعقيم ذكور بعض الانواع بوساطة الاشعاع واطلاقها لتقوم بعملية التزاوج دون انتاج صغار. كما يبحث بعض العلماء في تشجيع بعض الكائنات الحية التي تتطفل على الحشرات فتحد من تكاثرها.

ولكن هذا الاجراء الاخير فيه شيء من التدخل في التوازن البيئي مما يهدد بالاخلال به وقد تكون لهذا التدخل والاخلال الذي يصاحبه آثار وعواقب غير محمودة.

ولا يتوقف الامر عند حد الحشرات على شدة أذاها، بل يشاركها في الايذاء آفات متعددة مختلفة سببت وتسبب للانسان كثيرا من الضرر في غذائه.. وتشمل الآفات فيما تشمل، الحيوانات التي تتغذى على النبات الذي ينميه الانسان لغذائه كالفئران والارانب وبعض أنواع الطيور وغير

ذلك كثير. وهنا أيضا يتحتم على العلم التدخل للحد من أعداد هذه الكائنات التي تعمل كآفات تأكل الزرع دون اخلال بالتوازن البيئي اخلالا خطيرا.

6- اختزان للغذاء:

نظرا لان انتاج الغذاء من الارض يرتبط بمواسم الزراعة فان الغذاء بأنواعه يتوفر في تلك المواسم ويقل في غيرها. وقد وجد الانسان منذ القديم أن سبيله لعلاج ذلك هو اختزان الغذاء عند توفره لاستخدام المخزون عند ندرته طبيعيا... ولعل هذا هو السبب الذي جعل الحبوب الغذاء الرئيسي لسكان العالم... ذلك أنها أسهل أنواع الغذاء اختزانا. فهي لا تتلف بسرعة كما تتلف الفواكه والخضروات ويمكن اختزانها في أماكن متعددة الاشكال والاحجام.

وفي بعض الانواع غير الحبوب، وجد الانسان أن تجفيفها يسمح باختزانها فترات طويلة نسبيا، ولكن ما يمكن تجفيفه من هذه النباتات قليل نسبيا، كما أن قيمته الغذائية تقل بالتجفيف.

وقد اهتم العلم بموضوع اختزان الغذاء وقدم وسائل متعددة لعل أحدثها التبريد، ومن بعده التبريد الشديد. وفي التبريد تستخدم الثلاجات الكهربية التي تجمد المواد الغذائية على درجات أقل من الصفر المئوي بقليل... ولكن التبريد الشديد حيث يستخدم وسائل النايتروجين تصل درجة الحرارة الى أقل من الصفر المئوي بمائة وست وتسعين درجة. وفي التبريد بالثلاجات الكهربية يحدث أن يكون انخفاض درجة الحرارة بطيئا ولذا يتجمد الماء داخل الخلايا عند المرور بدرجة الصفر أو تحتها بقليل وتكون بلورات الثلج الناتج أكبر حجما من الماء الذي كانته ونتيجة لذلك تخرق هذه البلورات جدران الخلايا وعند طبخ الغذاء يتسرب جزء من مادة الخلايا الغذائية من هذه الخروق في جدران الخلايا.. ونتيجة لذلك تفقد المادة الغذائية المجمدة بهذا الاسلوب بعضا من العناصر الغذائية وشيئا من نكهتها. غير أن التجميد بسائل النايتروجين يجعل المادة الموضوعة فيه تمر عبر الصفر المئوي بسرعة كبيرة مما لا يترك مجالا لبلورات الثلج أن تتكون بحجم كبير، وبذا لا تخرق جدران الخلايا وعند طبخ هذا الغذاء لا يفقد أي جزء من مادته الغذائية ولا من نكهته. وبذا يحس من يأكل مثل هذا الغذاء

المجمد بسائل النايتروجين أنه يأكل غذاء طازجا. وقد أصبح، نتيجة استعمال هذه الوسيلة. بوسع الناس في بلاد لم يسبق لهم أن أكلوا فيها بعض الأغذية، أن يتمتعوا بتلك الاغذية وكأنها طازجة من انتاج بلادهم. كما تبشر وسائل الخزن الحديثة بايقاف عمليات اتلاف الفائض من المواد الغذائية التي تجري في بعض البلاد للمحافظة على أسعارها العالمية. وهذه العمليات في اطار المجاعة التي يعاني منها بعض سكان العالم غير انسانية وتبذير أناني غير مقبول.

7- زيادة البروتين الحيواني:

ذكرنا أنه وان كان النبات أصل الغذاء وأكبر مصنع لانتاجه الا أن الانسان لا يستغني عن البروتين الحيواني في غذائه. كما أشرنا الى أهمية هذا البروتين بأنواعه المختلفة للنمو، وكم يؤثر نقصه وخاصة في صحة الاطفال وتطور نموهم.

وليس غريبا والحالة هذه أن تنصرف جهود العلماء الى اكثار البروتين الحيواني. على أن اكثار البروتين الحيواني يعتمد أصلا على اكثار العشب والنبات الذي يتغذى عليه الحيوان.

ومن المفيد أن ننتبه الى أن عشر النبات الذي يأكله الحيوان يختزن كلحم أو كبروتين حيواني.. أما تسعة أعشار ما يؤكل من عشب فيذهب لانتاج الطاقة وغير ذلك.

ولذا كان من الطبيعي أن يهتم العلماء بدراسة غذاء الحيوان كما درسوا غذاء الانسان وأن يبتدعوا خلطات غذائية تحوى غذاء طبيعيا وصناعيا الغاية منه اعطاء الحيوان فرصة بناء بروتينه بسرعة. كما اهتم العلماء بتهجين حيوانات اللحم ومزاوجتها بهدف انتاج أصناف سريعة النمو كثيرة اللحم. وكذلك انتاج أصناف وافرة الحليب أو البيض. وقد نجحوا في ذلك نجاحا كبيرا بحيث انتشرت سلالات وأنواع من هذه الحيوانات المحسنة في جميع أنحاء العالم وأخذت تحل محل السلالات والانواع المحلية أو المعروفة باسم الانواع البلدية.

وقد ساعد التجميد والتثليج في نقل اللحوم المجمدة من حيث تتوفر بكثرة الى حيث تكون الحاجة ماسة لها، وكما ذكرنا من قبل يعتبر التجميد

بالثلج الجاف (ثاني أكسيد الكربون المتجمد) أفضل من التجميد بالطرق التقليدية ويعتبر التجميد بسائل النايتروجين أفضل الجميع. كما صممت وسائل النقل بحيث تعمل بوساطة سائل النايتروجين وبهاتين الوسيلتين أصبح بالوسع نقل اللحم المتجمد واختزانه دون أن يفقد شيئا من عناصره الغذائية أو طعمه ونكهته.

وهناك وسائل أخرى عديدة عني بها العلماء لتوفير البروتين الحيواني في مناطق انتاجها منه قليل، كالحفظ بالاشعاع والتجفيف بوسائل متطورة ولكن هذه الوسائل لم تلق النجاح المرغوب فلم تدخل مجال التصنيع الواسع.

ولعل أكثر ما يحد من نشاط العلماء في هذا المجال هو أن زيادة أعداد حيوانات المزارع تتطلب ازدياد المساحات المخصصة لها في الوقت الذي يحتاج الانسان هذه المساحات لزراعة غذائه. ولا يبدو في الافق حل ناجع لهذه المشكلة حتى الان وان كانت هناك محاولات تبشر بخير.

غير أن الصورة تختلف عندما نبحث في زيادة البروتين الحيواني البحري. فالبحار والمحيطات تغطي حوالي 72٪ من سطح الكرة الارضية. وهي مناطق شاسعة هائلة الحجم. كما أنها كبيئة تعيش فيها الحيوانات البحرية أحنى على الحياة في بيئة الارض. وفوق كل هذا مازالت بيئة لم تستغل استغلالا جديا حتى الان، اذ تدل الاحصائيات العلمية على أن الغذاء المستخرج من البحر عالميا في أوائل السبعينات من هذا القرن لم يزد عن ١٪ من مجموع الغذاء المنتج عالميا.

وقد عني العلماء بتحسين وسائل صيد السمك - الغذاء البحري الاول - دون أن يهملوا وسائل صيد الحيوانات البحرية الاخرى. ومن هذه الوسائل دراسة هجرات أنواع الاسماك المختلفة وتخطيط مسارها حتى يمكن قطع الطريق عليها واصطيادها بكثرة. وكذلك تحسين شباك الصيد وامكانات الصيد بها، وتحسين سفن الصيد وطرق اختزان السمك المصطاد. كما استخدم العلماؤ وسائل حديثة للكشف عن تجمعات الاسماك تحت السطح مثل استخدام الصدى الصوتي (السونار) واستخدام الرادار، وكذلك التصوير من الجو باستخدام الاشعة تحت الحمراء, وبهذه الوسيلة يمكن الكشف عن تجمعات الاسماك تحت السطح بسرعة كبيرة هي سرعة مسح الطائرة لمنطقة من البحر. وفوق ذلك استخدمت مواد كيماوية وغير ذلك لها قدرة

علة اجتذاب السمك وهكذا صارت سفينة الصيد تنزل هذه المادة فتتجمع الاسماك حولها ثم ينزل الصيادون الشباك ويجمعون أعدادا كبيرة من السمك. كما استخدمت الغواصات العلمية في تحديد تجمعات السمك في الأعماق واصطيادها باعداد كبيرة، ودرست التيارات البحرية الصاعدة نظرا لما لوحظ من تكاثر السمك في وجودها. والسبب في ذلك أن السمك يتغذى على البلانكتون وهو دقائق الكائنات الحية النباتية والحيوانية التي تكون هائمة على السطح وقربه. وكلما كان البلانكتون غزيرا كثر السمك، وهو نفس مبدأ تكاثر الاعداد الحيوانية نتيجة وفرة الغذاء. وحيث أن البلانكتون يحتاج الى بعض عناصر من الاملاح المعدنية في نموه وتكاثره فان وفرته في منطقة بحرية ما سرعان ما تنقص كميات هذه العناصر اللازمة له.. فتقل أعداد البلانكتون وتبعا لذلك تقل أعداد الاسماك.

ونظرا لان البلانكتون يعيش في الطبقات السطحية من البحر فان هذه العناصر تقل في تلك الطبقات فقط, وتكون كثيرة في الطبقات العميقة منه. ونحن نعلم أن البحر متحرك دوما بالتيارات المائية.. فاذا ما اصطدم تيار مائي قاعي بيابسة مثل جزيرة أو ساحل فان هذه التيارات ترتفع الى السطح.. وبارتفاعها تثري سطح البحر بعناصر الاملاح المعدنية وبذا يجد البلانكتون كميات كافية منها لتكاثره.. ونتيجة تكاثره تتكاثر الاسماك بالتغذي عليه وهكذا.

ومع كل هذه الوسائل المحسنة والمطورة وصل ما يصطاد من سمك في العالم الى 60 مليون طن... ويقدر العلماء بأن بالوسع زيادة هذا الرقم الى 100 مليون طن في العام فقط.

ويرون أن أية زيادة فوق هذا الرقم تؤدي الى اخلال التوازن في البيئة البحرية.. اذ يجب أن نذكر أن هذه الكميات من الاسماك المصطادة هي في الغالب، من أنواع مختارة معينة، هي التي يحب الناس أكلها، وهذا ما يسبب اخلال التوازن فيما بين الانواع المختلفة من الاسماك.

ولما كانت زيادة 40 مليون طن - الفرق بين ما يصطاد حاليا وبين أقصى ما يمكن أن يصطاد دون اخلال بالتوازن البيئي - ليست زيادة كبيرة بالنسبة لتزايد أعداد السكان والافواه الجائعة، كان لابد للعلماء من علاج هذا الوضع من زاوية مختلفة. وكان من الطبيعي أن ينطلق العلماء من منطلق

محاولة زيادة أعداد السمك المرغوب فيه في البحر. وبمعنى آخر أخذ العلماء يتدخلون في اكثار السمك أو ما يعرف بزراعته. والمعروف أن الاسماك - وبخاصة العظمية منها - تضع اناثها أعدادا كبيرة من البيض ولكن قسما كبيرا منه تأكله الاسماك، كما أن الباقي عندما يفقس الى سمك صغير يكون بطيء الحركة غير قادر على الدفاع عن نفسه ولذا يقع القسم الاكبر منه فريسة للاسماك الأكبر. ومن آلاف البيض الذي تضعه الانثى الواحدة يصل الى حد البلوغ واعادة دورة الحياة ما لا يزيد عن بضع سمكات، يتدخل الانسان ليصطاد بعضها.. وهكذا يبقى مجموع السمك أو يكاد يبقى ثابتا في البحر.

وواضح أن أية معالجة لاكثار السمك يجب أن تنطلق من نقطة الضعف الواضحة وهي افتراس أعداد كبيرة من البيض وصغار السمك قبل أن تصل الى حد معين من النمو يسمح لها بالهرب من أعدائها وحماية نفسها.. ولذا قام العلماء باتقان عملية استخلاص البيض من الاناث البالغة واخصابه بالسائل المنوي من الذكور وتركه ليفقس في حاضنات صناعية وتغذيته الى أن يبلغ حد النمو الذي أشرنا اليه. وعندما يصبح قادرا على حماية نفسه تطلق الآلاف المؤلفة منه الى البحر.. وبذا تعيش أعداد كبيرة منه تزيد الصيد وتكون مصدر غذاء اضافي للانسان.

وكان من الطبيعي أن تتطور هذه الفكرة بعد نجاح العلماء في اخصاب السمك وفقسه صناعيا في حاضنات الى تربية الاسماك في مزارع صناعية. وقد تمكن العلماء من التحكم في العوامل المختلفة التي تؤثر في نمو الاسماك في هذه المزارع.. وأصبح بالوسع تخفيض نسبة الوفيات الى حد كبير.. وصارت مزارع الاسماك تشتمل على مفاقس وحاضنات وأحواض متعددة في كل حوض تعيش الاسماك حتى تبلغ عمرا معينا ثم تنتقل الى حوض تال وهكذا حتى تصل الى الحجم أو الوزن الذي يعطي سعرا ممتازا في السوق. كما جهزت هذه الاحواض بأجهزة لحفظ درجة الحرارة في حدود مرسومة ومقررة وأجهزة لضمان وجود كمية كافية من الاكسجين الذائب في الماء لتتنفس منه تلك الاعداد المزدحمة من الاسماك.

على أن المشكلة الرئيسية كانت توفير الغذاء لهذه الحشود من الأسماك بالقدر الذي يسمح لها بالنمو بالمعدل المطلوب. وكان ولا يزال الغذاء هذا

عبارة عن أعلاف مصنعة ذات عناصر مقننة وواضح أن مثل هذا الغذاء يكلف كثيرا، ولذا اتجه العلماء الى تقليد الطبيعة مرة أخرى بعمل مزارع جانبية خاصة يربي فيها البلانكتون - غذاء السمك الطبيعي. وكما ذكرنا يحتاج البلانكتون لنموه الى عناصر معينة من الاملاح المعدنية الموجودة في البحر. ولما كانت اضافة هذه الاملاح صناعيا تكلف أيضا فقد ابتدع العلماء طريقة ضخ مياه البحر من الاعماق الى أحواض تربية البلانكتون.. وقد علمنا أن مياه البحر القاعية تكون غنية بهذه الاملاح المعدنية.

وتنتشر اليوم مزارع الاسماك المختلفة بما فيها مزارع أسماك المياه العذبة ومزارع أسماك المياه المالحة في معظم بلاد العالم.

وفي البلاد الساحلية ذات الخلجان أو الالسنة البحرية وجد أن من الانسب تربية الأسماك في مثل هذه الخلجان أو الالسنة البحرية بعد وضع حواجز تمنع انتقال السمك وهربه دون أن تمنع حرية مرور الماء.

وقد أمكن انتاج حوالي 600 كيلو جرام من السمك من بركة مساحتها فدان وبالمقارنة لا ينتج من لحوم الماشية التي تربي على فدان أكثر من 375 كيلو جرام. كما أمكن تربية بعض أنواع الاسماك في بحيرات أو خلجان هادئة ومأمونة في اسكتلندا بحيث تصل الى أحجام التسويق في نصف الوقت الذي يستغرقه نموها الى تلك الاحجام في البحار.

كما ثبت أن استعمال المياه الدافئة التي تخرج من محطات الكهرباء النووية في أحواض مزارع الاسماك يزيد من معدل نموها بل ويجعلها تفوق في حجمها البالغ أقصى حجم تصل اليه في الطبيعة.

وقد عني العلماء فوق ذلك بتربية حيوانات البحر غير الاسماك. ومع أن معظمها مازال غذاء للصفوة من القادرين ماليا الا أن اكثارها سيصل حدا يجعلها في متناول العامة من الناس. كما بدأ كثير من العلماء يجربون الافادة من نباتات البحر المختلفة غذائيا. فالنباتات البحرية مثل النباتات البرية تنتج غذاء وبخاصة النشاء وفيها بروتين نباتي. وصار البعض يقول بأننا على أبواب انتاج الخبز من البحر.

8- اللحم الصناعي:

الناس في غذائهم محكومون بالعادة الغذائية ومحكومون بالقدرة

الشرائية. وفي كثير من المناطق يتحكم العاملان في جعل غذاء الناس فقيرا في البروتين اللازم لنمو الجسم. وينتج عن ذلك مضار كثيرة للصحة العامة.

وقد حاول فريق كبير من العلماء ادخال عناصر غذائية فيها نسبة من البروتين في الدقيق الذي يستعمله الناس في هذه المناطق لعمل الخبز. واضطروا الى القيام بحملات دعائية متكررة دون أن يصادفوا قدرا ملحوظا من النجاح.

وأذكر أنه خلال الحرب العالمية الثانية عندما قلت اللحوم وقل البيض والحليب، قامت حملات دعائية مختلفة على الناس يستعملون دقيق البيض ومسحوق الحليب وفول الصويا. وهذا الاخير يحوى نسبة عالية من البروتين.. بل لعله يحوى أعلى نسبة من البروتين في البذور بعامة اذ تصل نسبة البروتين فيه الى 42٪ بالمقارنة بجوز الهند الذي يحوى 8٪ بروتينا والسمسم الذي يحوى 25٪ بروتينا والفول السوداني الذي يحوى 27٪ بروتينا الخ.. ولكن كل الجهود ذهبت أدراج الرياح. والمسحوق الوحيد الذي نجح استعماله فيما بعد هو مسحوق الحليب وذلك لظروف بعض البلاد الخاصة. ومع ذلك فان توفر الحليب الطازج بسعر معقول في أي وقت وأي مكان كاف لجعل الناس يعرضون عن الحليب المجفف.

من هذا المنطلق ومن منطلق ضرورة زيادة البروتين في غذاء الناس في المناطق المحرومة والفقيرة، اتجه العلماء وجهة جديدة جدا. ولا بد من القول بأن التقدم العلمي في ميدان التحليل الكيميائي والتطور التكنولوجي في هذا المجال مكن العلماء من تحليل المواد الغذائية تحليلا دقيقا حتى أن المواد التي تكون موجودة فيها باجزاء قليلة في كل مليون جزء أمكن معرفتها ومعرفة كمياتها.

وقام العلماء، مسلحين بهذه المعرفة وهذه الاجهزة الدقيقة، بتحليل اللحوم الطبيعية ومعرفة مكوناتها ونسب كميات هذه المكونات فيها. وبعد أن اتضحت الصورة تماما ... استخلص العلماء بروتين فول الصويا وعالجوه كيميائيا ثم اضافوا اليه كل المكونات الاخرى التي تضفي على اللحم الطبيعي طعمه ونكهته المميزة. كما وضعوا في الناتج كميات من المواد تعطيه شكل اللحم الطبيعي وتماسكه وخصائصه الاخرى كافة.

وكان الناتج بعد هذا قطعة لحم صناعي يصعب على الذواقة أن يفرق بينها وبين اللحم الطبيعي لا قبل الأكل ولا بعده. وفوق ذلك كان هذا الناتج غنيا بالبروتين... بل كان من الممكن زيادة كمية البروتين فيه اذا دعت لذلك حاجة غذائية أو علاجية خاصة.

وقد قامت شركات كبيرة بتسويق هذه المنتجات وبخاصة في بريطانيا... غير أن تعميم ذلك في البلاد التي تشكو من نقص حاد في البروتين في غذاء سكانها مازال ينتظر انخفاض كلفة الانتاج الى حد يغري الناس بالاقبال عليها.

ولم يكتف العلماء بهذا الانجاز المعتمد على بروتين فول الصويا، بل اغتنموا فرصة كشف عابر في تكنولوجيا النفط للافادة منه في الحصول على بروتين رخيص. فقد لوحظ أن نسبة الشمع في بعض أنواع النفط تكون عالية وأن بعض أنواع الفطريات تتغذى على هذا الشمع وتتكاثر وبذلك تخلص النفط من الشمع المزعج في آلات الاحتراق الداخلي، ونتيجة تغذيها تتكاثر الفطريات ولانها تحوي كمية من البروتين تجمع ويستفاد من هذا البروتين. وكانت المشكلة التي جابهت العلماء في بداية بحثهم في هذا الفطر أن البروتين المستخرج من الفطر المتكاثر كانت به رائحة خفيفة من النفط. وقد أدى هذا الى استبعاد امكان الافادة منه في غذاء الانسان.. ولذا استخدم هذا البروتين في علف الحيوانات. ولكن هذه المشكلة لم تصمد طويلا أمام الكيماويين اذ تمكنوا من ازالة أي أثر لرائحة النفط منه.. وصار الان بالوسع استخدام هذا البروتين كمسحوق في اثراء غذاء الانسان.. كما يمكن استخدامه بدل فول الصويا أو معه في صناعة اللحم الصناعي.

واستمرارا للبحث في هذا الميدان تمكن العلماء من اكتشاف أنواع من البكتريا تتغذى على غاز النفط الطبيعي وتتكاثر نتيجة ذلك الى أعداد ضخمة يمكن استخلاص البروتين منها والافادة منه في تحسين الغذاء الانساني وبخاصة في البلاد التي تشكو نقصا واضحا في هذه المادة الحيوية.

ولا بد لنا من القول بان أبحاث العلماء في هذا الميدان والميادين التي أشرنا اليها في هذه العجالة وغيرها من الميادين التي ستستحدث، لن تتوقف.. وهذه المثابرة الجادة صفة لازمة من صفات العلماء والبحث

العلمي... ويساعدهم في ذلك أن أبحاثهم حتى عند نجاحها تفتح المجال أمام تساؤلات جديدة ومنطلقات أو منعطفات لا يدري أحد الى أين تؤدي ولا ما يمكن أن تكشفه.

الخلاصة:

قد يبدو لمن يتابع جهود العلماء أن مشكلة الغذاء القائمة حاليا في طريق الحل... ولكن الحقيقة أن كل هذه الجهود وما أسفرت عنه من انجازات رغم أنها زادت كميات الغذاء المتاحة فعلا، مازالت غير مثمرة في ازاحة شبح المجاعة عن المجتمعات التي ترزح تحت خطرها. فالواقع المر هو أن هناك مجاعة فعلية تؤثر في حياة أعداد كبيرة من بني البشر وفي صحتهم وسعادتهم. والمتوقع الخطر هو أن تزايد أعداد السكان بالتسارع الذي تتزايده سيجعل المشكلة تتخطى جميع الاجراءات التي تتبع والانجازات العلمية التي تحققت وقد تتحقق في سبيل علاجها.

والعقلاء من بني البشر مدعوون للتفكير الجاد في هذه المشكلة لا على نطاق مجتمعاتهم المحدودة, بل على نطاق العالم كوحدة واحدة.

وواضح أن أمام العلماء والسياسيين والمربين وأهل الاجتماع مهمات صعبة جدا ليس أقلها تثقيف جمهرة الناس بعامة وفي المجتمعات المتخلفة بخاصة بطرق الافادة من الابحاث والكشوف العلمية في مجال زيادة كميات الغذاء وتحسينه وتوفيره للعامة من الناس، مع اقلال النسل الى الحد الكافي لتحديد عدد السكن في العالم في مستوى الانتاج الغذائي.

ولعل ما أشرنا اليه من ضرورة علاج المشكلة على اعتبار العالم وحدة واحدة من أصعب الامور تحقيقا، نظرا لما يحيط بهذا المفهوم من صعوبات نفسية ومادية على كلا الصعيدين الفردي والجماعي.

ان المشكلة القائمة تمثل مأساة انسانية بكل ما في مفهوم المأساة من معان صارخة... وقد وضح لنا أن أشد معاني هذه المأساة عمقا وبشاعة وبعدا عن الانسانية هو أن يموت سنويا ملايين من البشر جوعا في عالم بلغ مستوى عاليا من الحضارة العلمية والتكنولوجية وبسبب ذلك اتصلت أرجاؤه ببعضها اتصالا وثيقا حتى قبل ان حجم الارض قد تقلص لسرعة الانتقال بين أرجائها وسهولته وبسبب الصلة الاعلامية القوية بين بني

البشر جميعا. ورغم بشاعة هذا الوجه من المأساة وأهمية التركيز عليه الا أن الاطلاع على الاوجه الاخرى لهذه المشكلة المأساة يعطي للوجه الاكثر قبحا أعماقا انسانية. ومن هذه الاوجه سوء التغذية الناجم أما عن الجهل بأصول الغذاء والتغذية أو عن الفقر وضيق ذات اليد، في مقابل وجود تخمة وتبذير غذائي... ان نظرة فاحصة عابرة توضح الفرق الهائل بين ما يقدم على بعض الموائد وبخاصة في الولائم والحفلات وبين ما هو متاح لملايين من البشر في غذائهم المعتاد. لا بل أن هناك فرقا بين ما يقدم لحيوانات بعضهم الاليفة وبين ما يتيسر من طعام لكثيرين من بني الانسان الفقراء.

والفقر، أس كثير من المشاكل الانسانية، يجعل معظم بني البشر الفقراء يكدحون كل يوم من أيام حياتهم في سبيل توفير الغذاء وبشكل ناقص لانفسهم وعائلاتهم بحيث لا يبقى لهم وقت للافادة منه في مجالات أو نشاطات انسانية. وبذلك يحط الفقر من قدرهم الى مستوى الحيوان الذي يعيش يومه أو ليله يسعى للحصول على غذاء يكفيه ولا شيء غير ذلك.

والجهل، صنو الفقر في خلق المشكلات الانسانية، يسبب الكثير من سوء التغذية... والحقيقة أن الناس لم يتنبهوا الى أن الغذاء ليس مجرد ابتلاع أي طعام الا في المائة سنة الاخيرة.. وقد كشف العلم عن وجود 45 مادة غذائية أساسية يجب أن يحويها الغذاء حتى يكون غذاء صحيا متكاملا. ومن هذه 17 مادة معدنية كالكالسيوم والكلور والحديد والماغنيسيوم والفوسفور والصوديوم والبوتاسيوم والكبريت والكروم والكوبالت والنحاس والفلور واليود والمنجنيز والموليبدنيوم والسيلينيوم والزنك. ومنها 13 فيتامينا: أ و حـ و د و هـ و ك و 8 أصناف من فيتامين ب.

كما كشف العلم أن مواد الغذاء الاساسية هذه يجب أن تؤخذ بكميات محددة بقدر معين لكل نوع... وعلى ذلك يمكننا القول بأن التغذية، كما يجب أن تكون، ينبغي أن تؤخذ من زاويتين - النوعية والكمية. وكلا هاتين الزاويتين هام جدا ومحدد بوضوح.

ومازال هناك العديدون من بني الانسان الذين يجهلون الكثير عن نوعية الغذاء وعن الكمية المحددة اللازمة منه.

ومن المهم أن نشير الى أن الجهل لا يؤدي الى نقص الغذاء وسوء التغذية فحسب، بل انه في كثير من الحالات، يؤدي أيضا الى اضرار بالصحة نتيجة الاكثار من الطعام بعامة ومن أنواع معينة منه بخاصة. فالسمنة التي تصيب كثيرين نتيجة سوء اختيار نوعية الغذاء وكميته خطر كبير على الصحة والحياة، وكذلك التغذي بغذاء غني ببعض المواد كالكولسترول يؤدي الى تصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم وخطر هذا على الحياة كبير.

وبعد، يتضح لنا من كل ما سبق أن أمامنا جهدا كبيرا ينبغي بذله على مستوى الانسانية جمعاء. وهذا الجهد يجب أن ينطلق، لا من أساس سياسي، بل من منطلق فهم عميق للمشكلة وأبعادها وأسسها مع تصميم انساني علمي على حلها ووضع حد لتفاقمها. واذا لم نقم بهذا الجهد فاننا نسهم بشكل مباشر وغير مباشر في تهديد حياة أبنائنا وأحفادنا على وجه هذه الكرة.

3 ظاهرة المدينَة ومشكلات المــدن

نبذة تاريخية:

عاش الانسان، منذ أن خلقه اللـه قبل مليـون عام، مئات آلاف السنين منفردا في وحدات لم تزد عن وحدة الاسرة... وكان في ذلك شبيها بكثير من الحيوانات كالاسد والثعلب وبعض القردة وغيرها.

غير أن الانسان الصياد البدائي هذا كان يعاني في حياته المنفـردة المستقلة، من احساس عارم بالحاجى للأمن والاستقرار والطمأنينة... وهذا الاحساس القوي هو أساس غريزته الاجتماعية، والدافع لسلوكه الاجتماعي كما نعرفه.

ولعل قلة عدد الناس في تلك الحقبة مضافا اليها مخاطر العيش وصعوبة الصيد لقلة أدواته المتوفرة خلقت منافسة حادة بين أسر الانسان هذا في سبيل الحصول على الغذاء، ومن المحتمل أن تكون هذه المنافسة وراء عدم ظهور الغريزة الاجتماعية وتبلورها في تلك الحقبة من حياة الانسان.

ثم عرف الانسان الزراعة واستقر نسبيا مرتبطا برقعة من الارض... ولعل استقراره الاول كان على

أساس أسري.. ثم تحول بنمو الاسر الطبيعي الى القرى الصغيرة الاولى.. وبعد ذلك حدث تطور هام في تركيب مجتمع هذه القرى بأن قام بعض الافراد فيها بأعمال متخصصة بينما قام آخرون بأعمال أخرى وهكذا توزعت الأعمال الى حد ما بشكل أصبحت القرية معه وحدة وظيفية عضوية، يعتمد فيها سكانها على بعضهم بعضا بأشكال ودرجات متفاوتة.. ومن الطبيعي أن يكون سكان هذه القرى، بحكم ترابطهم الأسري وتعاونهم ووحدة معتقداتهم وتقاليدهم، متوافقين اجتماعيا ونفسيا الى حد ما، فتقبلوا رئاسة رب الاسرة وكبيرها.

واستمر الحال هكذا حقبة طويلة من الزمن ثم كبرت القرى واندمجت وتحولت الى مدن. وبعد ذلك بدأت الحضارات بالظهور الواحدة تلو الاخرى، وهناك ترابط واضح وتسلسل زمني بين نشوء المدينة ونشوء الحضارة فيها. ذلك أن انسان المدينة وحده هو الذي يستطيع، نتيجة التفاعل الانساني ونتيجة الانعتاق من العمل في سبيل الغذاء مباشرة، أن يبتدع الحضارة.

وحتى تنشأ المدينة كان لا بد من وجود الملك أو السلطان المسيطر على الأرض ومن عليها والمؤثر في اتجاه التطور سلبا وإيجابا.

والمدينة - كظاهرة انسانية - تأثرت في انشائها قديما بآراء الملك أو السلطان المعمارية ورغباته وميوله، ونمت حول محور القصر الذي ابتناه لنفسه وكمركز للحكم والسلطة. ونتيجة ذلك كانت المدن الاولى جميعا عواصم. وتعرضت تلك المدن لعاديات الزمن ونوازع الانسان، كما تعرضت لدورة تطور الحضارة التي نشأت فيها: فكانت تنمو وتزدهر وتضمحل تبعا لدورة تطور حضارتها. وهكذا بنيت مدن كبابل وسبأ وأثينا والقسطنطينية وروما والاسكندرية ودمشق وبغداد والبتراء وغيرها كثير.

واستمرت المدن كعواصم أساسا الى ما بعد اضمحلال مجتمع الاقطاع الذي أسهم في اضعاف مراكز المدن. ثم عادت المدن للازدهار بعد القرون الوسطى عندما قامت فكرة الدولة تجسد الفكرة القومية.. ومع ازدياد قوة الدولة ازدادت أهمية المدينة العاصمة بشكل رئيسي. وقد ازدهرت المدن في أوروبا مع بداية القرن السابع عشر والثامن عشر متأثرة بعصر حكم الملوك المطلق في تلك الفترة.. كما مرت المدن في فترة ازدهار أخرى في القرن التاسع عشر نتيجة الثورة الصناعية وتدخل عوامل اقتصادية

وتكنولوجية وسكانية. ورغم نشوء مدن أخرى غير العواصم ظلت العواصم متميزة عن أية مدينة اخرى في الدولة. وهذا أمر طبيعي: فالعاصمة مركز السلطة والناس يتطلعون للسلطة دوما لانها تؤثر في حياتهم. وقد أدى تركيز السلطة في مؤسسات مختلفة في العواصم الى تضخمها باجتذاب النشاطات الانسانية اليها كالمؤسسات التجارية والصناعية وهكذا نجد المدن العواصم تدخل في عصرنا الحاضر أي منذ منتصف القرن العشرين فترة جديدة من التطور والازدهار.

وقد نمت المدن العواصم منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر نموا كبيرا وسريعا. وينطبق هذا القول على المدن القديمة مثل لندن ولشبونة وفينا، كما ينطبق على المدن التي تأسست حديثا مثل مدريد وبرلين وبطرسبورج (لينينغراد). وكان نمو هذه المدن جميعا بواحدة من ثلاث طرق: الاولى نمو متدرج باضافة منازل وأحياء جديدة كلما دعت الحاجة لذلك، والثانية، بتخطيط دقيق مسبق، والثالثة، بالجمع بين الطريقتين السابقتين.

ومع أن المدن جميعها ذات تقسيمات واحدة بمعنى أنها تتألف من احياء وشوارع وساحات ومرافق عامة الا أنه لم توجد ولا توجد مدينتان تتشابهان تماما من جميع الوجوه. اذ أن لكل مدينة طابعا خاصا يميزها عن غيرها - والمدن في ذلك كالانسان.. لا بل نجد بعض دارسي المدن يحبون أن يضفوا على المدن طابع الحياة فيتكلمون عن ولادة المدينة ونموها وتطورها وهرمها ومرضها واختناقها وموتها أحيانا. ومن الواضح أن كل مدينة تتخذ شكلها وخصائصها ومميزاتها العمرانية والجمالية من الفكر الانساني الذي يخطط لها، ومن النزعة الجمالية التي يحاول هذا الفكر اضفاءها عليها، ومن الفن المعماري الذي يسخر في بنائها. وبالطبع تتدخل المعتقدات والتقاليد والبيئة الطبيعية في اعطائها صفاتها المميزة. غير أن الاساس الرئيسي في مفهوم المدينة واحد فيها جميعها. ذلك أن المدن وسيلة مثلى للافادة منها كمتنفس لغريزة الانسان الاجتماعية ورغبته في الأمن والطمأنينة، وهي بعد، سبيل ممتاز للتبادل الاقتصادي والتعاون الحياتي، وبالتالي الاسهام في رفع مستوى الانسان المعاشي وتيسير سبل العيش الكريمة له، كما أنها المكان الامثل لاظهار امكانات الفرد الكامنة وقدراته ومواهبه... ولعل الغرابة، والحالة هذه، أن يتأخر ظهور المدن الى الحد الذي تأخره... وأن يقتصر ظهورها

على المدن العواصم في كل لحضارات التي خلت، وما بعدها حتى القرن السابع عشر.. أو ليس غريبا في بلاد كانجلترا أن يقترب القرن الثامن عشر من نهايته (عام 1783) ولا يكون فيها غير مدينة واحدة عدد سكانها يزيد عن مائة ألف نسمة... وقد كانت لندن عندها مصدر فخر وزهو واعجاب بحجمها ومعمارها وهندستها حتى أن الشاعر وليم كاوبر قال في تلك السنة: (صنع الله البلاد وصنع الانسان المدينة) والمدينة بالطبع كانت تعني عنده لندن.

كيف نمت المدن؟

قلنا ان المدن، غير عواصم الحضارات الماضية، بدأت تنمو وتزدهر في القرنين السابع عشر والثامن عشر نظرا لارتباطها بنشوء الدول. وقد كان ذلك طبيعيا اذ أن تركيز السلطة في يد الملك أو السلطان وكون المدينة مقر هذا الملك جعل عدد السكان فيها يتزايد... فبالاضافة لحاشية الملك وخدمه كان هناك الوزراء والنبلاء ومن يحيط بهم... وتدفق على المدينة خليط من الناس هدفهم الكسب من تقديم الخدمات المختلفة... ومن هؤلاء كان التجار في جميع الميادين والصناع بكل حرفهم وأصحاب المطاعم والحانات والعاملون في تجارة الجياد والعربات وأصحاب الحرف الفنية والشعراء والمغنون والكتبة وفنيو البناء وعماله وغير ذلك كثير... ومع ازدهار عمل هؤلاء وازدياد كسبهم ازدهرت أعمال ثانوية أخرى متفرعة عن الاولى ومكملة لها، ومن هذه تشعبت أعمال أخرى... وهكذا أصبحت العاصمة مركز انتاج ضرورات الحياة اليومية بالاضافة للكماليات وأدوات الترف والزينة.

وسرعان ما أصبح عدد سكان كل من باريس ولندن يفوق نصف مليون نسمة وكانتا تعتبران أكبر مدينتين في أوروبا... اذ أن بقية العواصم في أوروبا لم يزد عدد السكان فيها عن مائة ألف نسمة (بعد أن كان قبلا بضع عشرات من الآلاف فقط).

وكان هذا النمو السريع في عدد سكان المدن العواصم ومساحتها بالمقارنة مع غيرها، مظهرا لميزات واضحة.. ذلك أن تلك العواصم، باعتبارها مراكز للسلطة السياسية، كانت بمثابة الدماغ في الجهاز العصبي المنتشر في جميع أنحاء جسم الدولة. واختلف نشاط العواصم، باعتبارها مراكز

للحياة الاقتصادية، باختلاف مواقعها جغرافيا وبيئيا وبمدى ما توفر لها من وسائط مواصلات وامكانات صناعية، وكذلك درجة تركز السلطة في تلك العواصم.

غير أن من المهم أن ننتبه الى أنه بالاضافة للنمو في المساحة وعدد السكان تغير مفهوم المدينة جذريا عن مفهوم المدن قديما أو القرى الحصون في القرون الوسطى.. فبينما كان العامل الحربي أو الامان من الغزو هو العامل الرئيسي في تصور بناة المدن قديما، لم يعد هذا العامل فعالا بشكل رئيسي في مفهوم المدينة الحديثة، وحل محله، ربما بتأثير أفكار عصر النهضة، مفاهيم الجمال والفن واعتماد قواعد العمارة مع النظرة الشاملة لمظهر المدينة بعامة ومرافقها المختلفة بخاصة. وصحيح أن المدن في الحضارات القديمة اهتمت ببعض المظاهر العمرانية والفنية... ولكن غالبية هذه المظاهر تركزت في الابنية الدينية وقصور الملك وأحيانا في قلة قليلى من المرافق العامة ذات الصبغة السياسية أو الاجتماعية. غير أن الاساس في بناء تلك المدن كان الحماية الحربية أولا وقبل كل شيء. وفي الحضارة المصرية القديمة تركزت هذه المظاهر في القبور والمعابد دون غيرها.. وهكذا نرى المدن القديمة ترتكز الى حاجز مائي يحميها من الغزو ويوفر لسكانها حاجتهم من الماء أو تتعلق فوق قمة جبل منيع أو مثل ذلك من الاعتبارات الحربية وفي جميع الحالات كانت تحيط بها الاسوار... ونظرة واحدة الى القدس والبتراء وأثينا والقسطنطينية وبودابست وغيرها توضح لنا ذلك... ولم تتغير الفكرة عندما بنيت القرى المحصنة في القرون الوسطى، بل لعلها زادت تبلورا ورسوخا... فبالاضافة الى موقعها الحصين وأسوارها جعل حولها خندق مائي زيادة في الحيطة والحذر.

فاذا انتقلنا الى مدن الملوك نجد أن التخطيط المسبق هو الذي قرر الشكل العام لهذه المدن وحدد طرز البناء فيها. فبدلا من الازقة الضيقة والمتعرجة والابنية المتراصة بدون انتظام - وهو ما كان سائدا في «مدن» القرون الوسطى - حل شكل واضح من التنظيم وشيء من التناسق في الطرز، وكان المدينة مبنية حول شخص الملك - فقصره في المركز وتماثيله في الساحات الرئيسية. كما أن مخطط المدينة العام اعتمد أسس التماثل والخطوط المستقيمة في الشوارع، والمربعات في الساحات واتساق أحجام

البنايات وبخاصة المتجاورة منها. وليس هذا الامر غريبا فالشكل الهندسي هو اول ما ينصرف اليه تفكير الانسان المخطط، لان الجمال ينبع من النظام، والنظام يتأثر بالشكل الهندسي من ساحات مربعة الشكل منتظمة الى حدائق ونوافير وأقواس نصر تحيط بأماكن العبادة وقصور الملك. ونجد في ثلاث عواصم، وهي باريس ومدريد وستوكهولم، أمثلة رائعة على اخضاع تخطيط المدن لفكر الملك وقوة شخصيته وآرائه الجمالية والهندسية.

ففي حالة باريس كان الملك هنري الرابع مهتما بأن تكون هندستها صورة للنظام العام الذي كان يريده للدولة.. فأصدر أمره الملكي في سنة 1605 ببنائها مبتدئا بالقصر الملكي... الذي اختار له تصميما مربع الشكل متكاملا من الوجهة الهندسية بحيث يمثل القصر وحدة قائمة بذاتها ومستقلة تمام الاستقلال عما حولها... ثم خطط لبناء المدينة منطلقا من القصر فكانت البيوت المحيطة به اقل ارتفاعا وبالطبع أقل فخامة وجمالا، وفي هذا اشارة واضحة لمفهوم علو شان الملك وعدم امكان تطاول أية سلطة على سلطانه. وفي وسط الساحة الرئيسية مربعة الشكل قام تمثال للملك شامخا وحيدا، كما رفعت تماثيل أقل حجما في الساحات الثانوية التي تلتقي فيها كل الشوارع في تلك الناحية - وكأن الملك الذي يمثله تمثاله مركز كل سلطة واليه تتجه كل الامور. وواضح أن الصورة الهندسية هذه هي انعكاس لمفهوم الملك مطلق الصلاحية ووكيل الله على الارض وهو المفهوم الذي كان سائدا آنذاك.

وعندما بنى لويس الرابع عشر فرساي - وهي بلدة مستقلة متكاملة - كرر نفس الفكرة والاسلوب فجعل شوارع البلدة تتجه نحو القصر الملكي وتنتهي في ساحته... وأقام خلف القصر حديقة يحمل تصميمها نفس المعنى فوق أنها جمعت عناصر جمالية وهندسية كثيرة. ويبدو أن لويس الرابع عشر قصد من بنائه لفرساي توكيد المفهوم بأن الملك هو النجم الذي يضيىء البلدة من ناحية (والبلدة تمثل رعاياه)، ويضيىء الحديقة من ناحية أخرى (وهي تمثل الطبيعة).

وبنفس الاسلوب بنيت مدريد... اذ أنه نتيجة نزوة عابرة طرأت للملك فيليب الثاني كره عاصمته والمدينتين اللتين كانتا عاصمتين من قبل (طليطلة وبرغس وبلد الوليد) وقرر أن يختار قرية صغيرة لا ماضي لها ولا جمال

فيها أو فيما حولها ليعيد بناءها كعاصمة جديدة له. ووقع اختياره على قرية مدريد الصغيرة التي كانت عبارة عن بضعة بيوت وسط كثبان رملية جوار جدول صغير ترتفع حوالي ألفي متر فوق سطح البحر مما يجعل طقسها سيئا لدرجة أن بعضهم وصفه بقوله «الطقس في مدريد عبارة عن تسعة أشهر من الشتاء وثلاثة أشهر من جهنم». كما وصف آخرون الرياح التي تهب عليها بأنها باردة وخفية لدرجة أنها تقتل الانسان دون أن تطفىء شمعة. ولم يكن حولها أراض زراعية خصبة كما أن سبل الاتصال بها كانت صعبة. ويبدو أن فيليب الثاني أراد، كما أراد غيره من قبل، أن يتحدى كل الظروف غير المواتية ويثبت أنه كملك أقوى منها ومن كل الصعاب. وهكذا نشأت مدريد عاصمة لاسبانيا... وفي القرن الثامن عشر جاء الملك شارل الثالث فأعاد تخطيطها بحيث أضاف لفكرة التحدي، عناصر الجمال والهندسة والمفهوم الذي أشرنا اليه عند الكلام عن باريس وفرساي.

اما استوكهولم فقد ارتبطت بالعائلة المالكة - أسرة فاسا - وحدث أثناء حركة الاصلاح الديني أن صودرت اراض شاسعة كانت ملكا للكنيسة. وفي القرن السابع عشر بني على هذه الاراضي مناطق سكنية جديدة بتخطيط هندسي جميل... فكانت الشوارع مستقيمة تتقاطع بزوايا قائمة... وفي عصر السويد الذهبي، أثناء حكم الملك غوستاف أدولف، تضاعف عدد سكان ستوكهولم العاصمة من ثمانية آلاف الى ستة عشر الف نسمة.. ووصل عدد السكان الى أربعين الفا في عام 1663 م وبعد ذلك بمائة عام (1763م) بلغ عدد السكان ثلاثة وسبعين ألفا... وكان قد أعيد بناء القصر الملكي بعد أن احترق القديم فأصبح القصر مركز المدينة وقبلة الانظار بجماله وهندسته وعمارته وطرز الابنية والساحات المحيطة به.

وقد حدث نفس الشيء في روسيا حين أنشأ الملك بطرس مدينة بطرسبورج (لينينجراد حاليا) وكان يريد أن تكون نافذة لروسيا على الغرب ومدخلا للاتصال به... ولكن بطرسبورج لم تنجح تماما في حجب اهمية موسكو العاصمة التاريخية لروسيا ذلك أن موسكو كانت المركز الديني للكنيسة الارثوذكسية الروسية وبلغت في ذلك شأوا جعلها تسمى (روما الثالثة). وفوق ذلك كانت موسكو، ومازالت، تفضل بطرسبورج كعاصمة من حيث موقعها المتوسط في البلاد وبخاصة أن تلك البلاد شاسعة واسعة.

وعقب الثورة الصناعية والثورة السكانية التي صاحبتها، نمت مدن عديدة في أنحاء كل دولة... وكان القسم الكبير منها ينشأ في مواقع تخدم الصناعة أي بالقرب من المناجم أو موارد الطاقة، كما نشأ قسم آخر كموانىء للتصدير والاستيراد والتجارة بعامة... وازداد نمو هذه المدن باطراد... وكان بعضها قد أنشىء حول نواة قرية أو بلدة قديمة كما أنشىء البعض الاخر في مكان لم يسبق أن سكن فيه الناس... ومما يلاحظ في هذه المدن ان العناية بالناحية الجمالية والهندسية الفنية لم تكن، في الغالب، بقدر العناية التي حظيت بها العواصم لاسباب متعددة منها بعدها عن أثر الملك المباشر ومركز السلطة الرئيسي... ومنها ان ما بدىء بها بتصميم جميل وهندسي مدروس تدهور مستواه بعد توافد العمال عليها بأعداد متزايدة وبناء مساكن لهم بسرعة وبشكل تجاري جشع، وهذا أدى الى تدني مستوى الهندسة والجمال بشكل ملحوظ. كما أن تدفق أعداد من الناس من شعوب مختلفة للسكنى في مدينة واحدة انعكس على طرزها العمرانية.. اذ أن لكل شعب طرزه الخاصة به والنابعة من تقاليده وتراثه الثقافي والاجتماعي والحضاري. وقد حدث شيء من هذا لمدينة فينا: فقد تدفق عليها التشيكيون والبولنديون والرومانيوم والمجريون والكرواتيون والسلاف من جميع أنحاء امبراطورية آل هابسبورج فأصبحت المدينة معماريا مزيجا متداخلا من طرز مختلفة وأصبح المجتمع فيها بوتقة قلق وتنافر.

وفي بودابست نجد مظهرا اخر مجسما لخاصية تلازم المدن بدرجات متفاوتة من الوضوح. فهي في الحقيقة مكونة من مدينتين، الاولى بودا وهي مدينة بنيت على أساس أن تكون حصنا على مرتفع والثانية بست وقد بنيت على السهل الممتد على سفح المرتفع. ويمكن تمييز المدينتين من طابع كل منهما المختلف تمام الاختلاف عن الاخر. فبودا مدينة ملكية حصينة حربيا وذات طابع ارستقراطي بأبنيتها وشوارعها وحدائقها الجميلة، بينما بست مدينة صناعية تتشابك فيها الشوارع وخطوط السكك الحديدية وتتزاحم الابنية وترتفع العمارات عالية وسط المصانع والمخازن دون أي اعتبار للنظرة الجمالية. وفي كل مدينة يتميز حي أو أكثر عن بقية الاحياء ويكون هذا الحي مسكن الاغنياء من سكان المدينة وبذا يكتسب طابعا جماليا وهندسيا لا نجده في بقية الاحياء الاخرى.

وفي أمريكا واستراليا تميزت العواصم والمدن بظواهر ثلاث:- الاولى سرعة نموها، والثانية أن بناءها كان على أسس مستقاة من العمارة الاوروبية (وفي الولايات المتحدة استعيرت، في كثير من الحالات، أسماء المدن الاوروبية وجعل أمامها كلمة «الجديدة» فهناك يورك في بريطانيا ونيويورك في الولايات المتحدة، كما استعيرت أسماء كما هي مثل بيت لحم)، والثالثة رغبة مخططي هذه المدن للاخذ بكل حديث وجديد في ميدان تخطيط المدن وهندستها. غير أن هذا لم يمنع بعض المدن مثل بوينس ايرس من أن تشذ عن القاعدة وتنمو نموا عشوائيا تماما كما نمت كثير من المدن في العالم القديم خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فما بين عامي 1870 و 1914 تزايد سكان مدينة بوينس أيرس من 175ر000 نسمة الى مليون ونصف... ونتيجة هذا النمو السريع في عدد السكان تشوه قلب المدينة الذي كان مبنيا أصلا على الطراز الاسباني وتحولت بوينس أيرس الى خليط غريب لا تكاد تجد في أي جزء منه مفهوما هندسيا واضحا أو طرازا معماريا مميزا. وفوق ذلك أحاطت بها أحياء كاملة من الاكواخ المبنية من الصفيح تنضح بالقبح وتدل على تعاسة السكان فيها.

وعلى النقيض من بوينس أيرس - المدينة التي نمت بالصدفة نجد مدينة برازيليا التي تبلور الظواهر الثلاث، فقد وضعت خطط وتصاميم كاملة للمدينة بما في ذلك أدق التفاصيل. وروعي في تخطيطها أن يشمل الجمال الرائع والفن الحديث والهندسة المعمارية والذوق الرفيع. وقد بدىء ببناء برازيليا عام 1956 وتم بناؤها عام 1960 واختير لها موقع بعيد عن المدينتين المتنافستين ريودوجانيرو وساو باولو واعتمد في بنائها أحدث أساليب الهندسة والعمارة وحدد تصميم كل بناء ومرفق فيها بحيث ينسق مع ما يجاوره من جهة ومع الفكرة الهندسية للمدينة برمتها. وقد قال اندريه مالرو عندما شاهد هذه المعجزة الهندسية: «ان برازيليا هي أول عاصمة في الحضارة المعاصرة».

المدن العربية:

لا نريد أن نذهب بعيدا في تاريخ المدن العربية لكثرة ما يتداخل في أصولها من مؤثرات وعوامل بعضها غريب ومقتبس.

ويهمنا في هذه العجالة أن نوضح بعض مميزات المدن العربية والاسلامية، وبذا يصبح من اليسير استنتاج أوجه الشبه والاختلاف بينها وبين المدن الاوروبية.

ويبدو واضحا لكثيرين من دارسي المدن أن العامل الرئيسي الذي أخذ بعين الاعتبار في بناء المدن العربية كان الناحية والدفاعية. وقد أثر توفر الماء في تقرير الموقع، الى حد ما، نظرا لنقص الماء في المنطقة العربية بوجه عام. غير ان مناعة الموقع في المناطق التي يكثر فيها المطر حجبت أهمية مصدر الماء الطبيعي واكتفى الناس عندها بحفر الآبار وتجميع مياه المطر فيها.

كما أن محوري ارتكاز المدن العربية كانا المسجد وقصر الملك أو الحاكم. ومن الواضح أن العوامل الجمالية كانت تؤخذ بكثير من الاعتبار سواء في الموقع أم في التصميم وفي «سر من رأى» وبغداد ودمشق والرباط على الأقل دليل على ذلك.

غير أن عوامل أخرى متعددة تدخلت في جعل شكل المدن العربية مختلفا الى حد ملحوظ من المدن الاوروبية. من هذه العوامل أن تأثير المسجد وباحته في التخطيط العام للمدينة والوظيفة الاجتماعية التي اضطلع بها كان أكبر من تأثير الكنيسة, ومنها عامل الطقس ونوع مادة البناء، على أن أهم هذه كان عامل التقاليد والترابط الاسري والقبلي بهدف التعاون والحماية.

فمن ناحية عامل التقاليد، كان للحجاب الذي فرض على المرأة، وعدم الرغبة في خروجها من المنزل الا في المناسبات الاجتماعية وللضرورة الماسة، أثر في طراز البيت الهندسي، اذ اضطر البناة لجعل البيت مربع الشكل يضم وسطه ساحة خلاء، يمكن أن تكون حديقة اذا سمحت ظروف البيئة بذلك،... وكانت هذه الساحة أو الحديقة الداخلية رئة البيت ومتنفسا للنساء اللواتي يسكن البيت بحيث تعوضهن عن الحاجة للخروج من المنزل، وتشعرهن بشيء من الحرية والانطلاق. وترتب على ذلك أن تكون جميع بيوت الحي على ارتفاع واحد حتى لا تتكشف الساحات الداخلية لمن يبتني بيتا عاليا.

وكذلك أثر المفهوم العربي - في أن بيت الانسان هو قلعته - في تصميم

هذا البيت وهندسته... اذ كان لا بد لبيت العربي من أن يحوي كل ما يملك من متاع وحيوانات الخ... كما كان مخزنا لحاجته من الغذاء.. ونظرا لظروف الطقس واحتمالات حدوث نقص في الغذاء في فترات من السنة، تعود العربي أن يختزن من الغذاء ما يكفيه موسما كاملا على الاقل.

كما أثرت قوانين الوراثة الاسلامية مع قوة الترابط العائلي والقبلي في تجمع منازل العائلة وتقاربها وكذلك تجمع منازل القبيلة فيما عرف بالحي، بحيث تكون هذه المنازل وحدة متقاربة. ولاسباب تتعلق بالأمن والحماية تلاصقت هذه البيوت تلاصقا شديدا بحيث كان بالوسع نجدة أي بيت منها يتعرض لغزو أو هجوم بسرعة كبيرة، كما كان بالوسع الهرب من أي منها عبر ما يجاورها اذا ما دعت الحاجة لذلك.

ونظرا لان بيوت العائلات في القبيلة الواحدة تجمعت في حي، انقسمت المدينة الى أحياء يصعب أن يسكن غريب فيها... وعمدت كل قبيلة، في سبيل قرى الضيف، الى تخصيص مكان غالبا ما يكون في منزل شيخها وزعيمها، هو الديوان. وفيه يستضاف الغريب ويتجمع رجال الحي أو القبيلة لتبادل الرأي والاخبار.

ويتضح من دراسة المدن العربية أن قصر الملك أو الحاكم كان يبتنى غالبا في الناحية الشرقية بينما تمتد المدينة وتنمو باتجاه الغرب. وكان بالقرب من هذا القصر حي خاص بالاقليات أو من عرفوا بأهل الملة. وبالطبع كان سكان هذا الحي في كنف الملك أو الحاكم وحمايته.

ونظرا لارتفاع شأن التجارة في السلم الاجتماعي عند العرب، وتعزيز هذا الشأن في الاسلام فقد عني في تخطيط المدن العربية بالاسواق. وكانت هناك دوما أسواق مستقلة لكل نوع من أنواع التجارة والحرف.

ومع أن الناحية الجمالية كانت دائما أساسا في تخطيط المدن الا أن نمو هذه المدن وتلاصق البيوت وزيادتها لاسكان الابناء عندما يتزوجون كان يتم في كثير من الاحيان على حساب الساحات (أو الحدائق) والشوارع. وبذا كانت الشوارع، مع نمو المدينة، تتقلص عرضا وتتعرج بأجزاء البيوت تزحف عليها من هنا وهناك... وهكذا لا يمر وقت طويل حتى تصبح الشوارع أزقة ضيقة متعرجة تملؤها النتوءات من الجانبين.

ولان هذه العوامل والمفاهيم التي تحكمت في هندسة المدن العربية

وتخطيطها متشابهة في جميع انحاء العالم العربي نظرا لانبعاثها من تراث ثقافي واجتماعي وديني واحد نجد الشبه كبيرا بين المدن العربية... ولو قارن المرء الصور الجوية المأخوذة لعدد من هذه المدن (ولو كانت في قارات مختلفة) لوجدها تتشابه في التخطيط والطرز الى حد بعيد. غير أن هذا لا يعني أننا نجد مدينتين عربيتين متشابهتين تماما.

ولابد لنا في هذا المجال من الاشارة للكويت.. فقد كانت الكويت قديما، في تخطيطها وتصميم أبنيتها، متسقة تماما مع تخطيط أية مدينة عربية أخرى ومتوافقة مع المفهوم الخاص ببناء المدن العربية الذي أشرنا اليه آنفا. كما كانت كثيرة الشبه في شكل بيوتها وطرزها ومادة بنائها بمثيلاتها من المدن في المنطقة الصحراوية من الوطن العربي. وهكذا كانت البيوت المبنية من اللبن وجذوع الشندل متلاصقة وفي كل بيت ساحة داخلية هي متنفس البيت وأهله. وكانت الشوارع ضيقة متعرجة تتجه بشكل أو بآخر نحو الشمال الذي يهب منه الهواء البارد نسبيا. وكان ضيق الشوارع وتعرجها يعطي بعض الظل يحتمي به المار أثناء سيره. وفي البيوت كانت هناك نوافذ صغيرى مرتفعة يخرج منها الهواء الساخن ويدخل من الابواب والنوافذ السفلية هواء أقل حرارة، كما كانت مادة البناء عازلة للحرارة بشكل مقبول.

وكان تخطيط المدينة يعتمد على محورين رئيسيين - قصر السيف حيث تصرف أمور الدولة ومسجد السوق الكبير.. وكانت بينهما ساحة ثم كان قصر الحاكم في الشرق وكانت الاسواق في الوسط. وانقسمت المدينة الى أحياء كانت بيوت الاقارب فيها متقاربة... وباختصار كانت الكويت مدينة عربية تقليدية في تصميمها وطراز بناء بيوتها وتقسيماتها.

ثم جاء التطور الحديث.. فهدمت المدينة القديمة وبني بدلا منها مدينة حديثة بشوارع فسيحة معبدة، واستعيض عن اللبن وجذوع الشندل بالاسمنت وطوبه.. فكانت النتيجة أن فقدت الابنية ميزة العزل الحراري التي كانت في الطرز القديمة فصارت البيوت أشد حرارة مما اضطر الناس الى استعمال أجهزة التكييف ولكن هذه بما تنفثه من هواء حار الى الشوارع زادت من الحرارة المتسربة الى البيوت واضطر الناس لاستعمال مزيد من أجهزة تكييف الهواء... وهكذا تفاقم التلويث الحراري وتصاعد في لولب مفرغ.

أما الطرز المعمارية في الابنية الحديثة فقد اقتبست عن الطرز المستعملة في أوروبا وأمريكا... وصرت ترى الزجاج يحتل مساحات واسعة من جدران البيت رغم أن استعمال الزجاج بكثرة في جو الكويت الحار صيفا خطأ كبير.. ولكنه الاقتباس الاعمى... وكانت النتيجة أن فقدت المدينة طابعها المعماري المميز ولم تستعض عنه الا بخليط غير متناسق ولا متوافق من نظم معمارية أوروبية وشرقية وأمريكية... وفي هذا تضحية بالنظرة الجمالية التناسقية عند من يقدرون تلك النظرة.

ولم تكن الكويت فريدة في هذا التطور... فقد حدث مثل هذا لكثير من المدن العربية بحيث صارت المدينة منها مدينتين: قديمة شرقية عربية وحديثة غربية خليط من نظم وطرز مختلفة.

ويجدر بنا أن نشير هنا الى أن الحكومة الاردنية كانت قد أصدرت قانونا يحظر على سكان مدينة القدس العربية بناء أبنية تتعارض في طرزها العام مع طابع المدينة المعماري التاريخي, وأوكلت تطبيق ذلك لامانة القدس العربية. كما أن الحكومة المغربية سنت قانوا يجبر من يريد بناء منزل، أن يجعل على الاقل غرفى منه على الطراز الاندلسي - وذلك للحفاظ على هذا الطابع والتراث حيا واضحا في المدينة.

مشكلات المدن:-

كان لا بد من التقديم لمشكلات المدن بالمقدمة التاريخية السابقة لان كثيرا من هذه المشكلات له جذور تاريخية.

ونود قبل البحث في هذه المشكلات أن نقول أن المدن - وهي من صنع الانسان - ليست بيئات طبيعية قائمة بذاتها، بل انها بيئات اصطناعية ولها تاثير كبير على الكائنات الحية التي تعيش فيها، اذ اضطرها لتغيير أساليب عيشها والتكيف بالبيئة الاصطناعية. فمثلا لاحظ العلماء أن كثيرا من الطيور التي تتخذ من المدينة مسكنا وبيئة عيش تغير من طرق تغذيها وبناء أعشاشها كأن تصبح بعض آكلات الحبوب من آكلات الفتات والخضروات.. وحتى طير النورس (طير الجنة) الذي يتغذى طبيعيا على السمك وما يصطاد من البحر يتحول، اذا كان مكان تكاثره بالقرب من مدينة، الى التغذي على قمامة تلك المدينة. والقطط التي تأكل اللحوم عادة تصبح في

المدن متعددة أنواع الغذاء، فتأكل بالاضافة الى ما تحصل عليه من اللحوم الخبز وبقايا ما يطبخ الانسان. وقد اكتشف العلماء أن نوعا من الصراصير صار يعيش داخل أجهزة (التلفزيون) وأخذ يتغذى على المطاط الذي يغلف الاسلاك، والغريب أنها تكيفت بذلك لدرجة أنها لا ترضى عن مكانها الجديد أو غذائها غير الطبيعي بديلا. ولا يقتصر الامر على أسلوب التغذي بل يتعداه الى أسلوب العيش فيسكن حمام المدن في فجوات الابنية وعلى رؤوس التماثيل وأعمدة الاضاءة، كما يسكن الخفاش في شقوق بعض الابنية، وتنتقل فئران الحقل والجرذ الى المجاري والاقبية وتحفر لنفسها جحورا في الاسمنت وتقضم في سبيل ذلك حتى الحديد. وقد اكتشف العلماء أن الحيوانات التي كانت تسكن المستنقعات التي بني فوقها مطار كندي (ايد لوايلد) في نيويورك قد تكيفت بالبيئة الاصطناعية الجديدة وتركت أساليب عيشها الطبيعية الى أساليب عيش توائم البيئة الجديدة. ومثل ذلك كثير.

وعلى هذا لا يكون مستغربا أن تغير المدينة من طباع الانسان ومعايير سلوكه وعاداته في الملبس والمأكل والمسكن، وكذلك ما اعتاد عليه من علاقات وارتباطات اجتماعية.

كما أن من المهم أن نذكر أن المدن وبخاصة العواصم كانت دوما قوة جاذبة تستقطب الكفاءات وتثير التنافس بين أصحابها، كما أنها تجتذب المغامرين وذوي الطموح والنشاط، وكانت وما زالت المكان الذي يسعى اليه الكثيرون ليجربوا فيه حظهم يحدوهم الأمل بالنجاح ويدغدغ أحلامهم الأمل بالثراء والشهرة.

وقد كان هذا سببا في اضفاء ميزات واضحة على المدن كتحولها الى مراكز للاشعاع الفكري والفني والعلمي، مما كان له أثر كبير على تقدم الدولة والمجتمع الانساني بشكل عام.

وكذلك كانت المدن وما زال مراكز استهلاك ضخمة للمواد الغذائية والمياه والطاقة.. فهي بحكم تجمع أعداد كبيرة من السكان فيها للعمل في المجالات الصناعية والادبية والفنية والسياسية والتجارية والادارية والخدمات العامة (وكلهم مستهلكون غير منتجين للغذاء) بحاجة إلى توفير الغذاء والماء والطاقة والخدمات بشكل فعال كاف يجعل الناس مطمئنين الى حصولهم على حاجتهم منها - مقابل ثمن طبعا - بشكل تلقائي مستمر

مضمون. وحتى تكون صورة مبلغ استهلاك المدن واضحة نأخذ مدينة نموذجية افتراضية عدد سكانها مليون نسمة ويتبين من الاحصائيات أن هذه المدينة تستهلك كل يوم الكميات التالية أو ما يعادلها:

2000 طن من الغذاء، 1000 طن من وقود السيارات، 2800 طن من الزيت، 2700 طن من الغاز الطبيعي، 3000 طن من الفحم - (أي أن مجموع الوقود المستهلك يوميا 9500 طن)، 625000 طن من الماء.

وبالطبع ينتج عن هذا الاستهلاك فضلات يجب أن تصرف بشكل سليم، وكمية الفضلات التي تخرج من مثل هذه المدينة يوميا هي كما يلي: 500ر000 طن من فضلات المجاري، 2000 طن قمامة، وينفث في الهواء 150 طنا من الدقائق الصلبو و 150 طنا من ثاني أكسيد الكبريت و 100 طن من أكاسيد النايتروجين و 100 طن من الهيدروكربونات و 450 طنا من ثاني أكسيد الكربون وأول أكسيد الكربون.

المشكلة الاولى:-

لاشك أن مشكلات المدن بدأت مع بدء تكون هذه المدن ونموها ... وهي نفس الظاهرة الانسانية التي رأيناها تتكرر والمحن الى أنها من تناقضات الانسان.... فمع كل جهد نحو خير يسعى الانسان لتحقيقه ينبع شر أو هكذا يبدو. ولم تفلت المدن - وهي من صنع الانسان - من هذه الظاهرة ومن هذا التناقض الانساني.

غير أن هذه المشكلات لم تتضح بشكل ملموس الا في نهاية القرن الثامن عشر، ولم تتخذ أبعادا مقلقة الا خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين - أو بعبارة أخرى عندما بدأت الثورة الصناعية وبدأ الانفجار السكاني .

ولعل تزايد السكان كان العامل الفعال في خلق المشكلة الاولى... وقد عرفنا في باب سابق أن تزايد السكان في العالم بأسره سبب مشكلة ضخمة للانسانية... وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا على المدن بشكل عام والعواصم بشكل خاص. وقد يكون من المفيد أن نستعرض بعضا من الاحصائيا تالتي تتعلق بازدياد عدد السكان في المدن: فقد تضاعف عدد سكان لندن أربعة أضعاف في القرن التاسع عشر، ذلك أن عدد سكانها في

نهاية القرن الثامن عشر كان مليون نسمة، وفي نهاية القرن التاسع عشر وصل العدد الى أربعة ملايين نسمة. وحتى منتصف القرن العشرين زاد العدد الى أكثر من ثمانية ملايين نسمة. وصحب ذلك، بالطبع، أن زادت مساحتها حتى أصبحت تغطي 117 ميلا مربعا - اذا قصرنا المساحة على مقاطعة لندن القديمة، أما اذا أخذنا بالاعتبار ما يعرف بمدينة لندن الكبرى فان المساحة تصبح 693 ميلا مربعا. وهذا الاتساع في المساحة مع أنه يبهر المرء الا أنه يخيف أيضا لكثرة المشكلات المترتبة عليه.

وازداد سكان باريس ستة أضعاف خلال القرن التاسع عشر، أي من نصف مليون نسمة سنة 1800 الى ثلاثة ملايين سنة 1900، كما ازداد عدد سكان فينا ثمانية أضعاف في نفس الفترة أي من ربع مليون نسمة الى مليونين وهكذا.

ويمكننا أن نقول أنه يسكن في فينا ربع سكان النمسا ويسكن في كوبنهاجن 28٪ من سكان الدانمارك وفي لندن وباريس يسكن خمس سكان بريطانيا وفرنسا.

ولما كان معظم الناس الذين تدفقوا على المدن فقراء جاؤوا يحاولون تحسين فرص عيشهم ورفع مستوى معيشتهم عما كان عليه في القرية، ونظرا لحاجتهم الطبيعية للسكن، نشأت صناعة جديدة لم تكن معروفة في القرية وهي بناء المساكن وتأجيرها... وقد استغل المشتغلون بهذه الصناعة الجديدة الحاجة الملحة لاسكان هذه الاعداد المتدفقة من البشر فراحوا يبنون أبنية روعي فيها لاحصول على أكبر قدر من الربح والمردود، دون نظر الى الناحية الجمالية والفنية أو ناحية التناسق الهندسي، وبذلك نشأت في المدن أحياء جديدة تتصف بالقبح والشذوذ وأعطت للمدينة طابعا ملؤه التشويه، ولم يقتصر الأمر على تشوه الناحية الجمالية - على أهميتها - بل تعدى الأمر ذلك الى تكدس أعداد كبيرة في أحياء خاصة اتسمت بالقذارة ونقص الاحتياطات الصحية وأسباب الراحة فوق القبح والفقر والبؤس. وصار انتماء الناس الى تلك الاحياء سبو وأمرا يتحاشون أن يعرف عنهم، خجلا. فاذا أضفنا الى ذلك أن تربية الطفل تستلزم تعريضه باستمرار لمناظر الجمال والذوق الرفيع لما في ذلك من أثر على تكوينه الفكري ونظرته الى الحياة، عرفنا الى أي مدى

يظلم الصغار الذين ينشأون في أحياء من هذا النوع، والى أي حد يخسر المجتمع من طاقاتهم المهدورة.

ولم يتوقف الامر عند حد هذه الأحياء على ما بها، بل تعدى ذلك الى اجبار مجموعات من البشر على العيش في أحياء قديمة تكاد تكون مقفلة وكأنهم في عيشهم هناك سجناء في سجن بلا قضبان. وكانت الاوضاع في هذه الاحياء المقفلة متردية الى أقصى الحدود... فلا المساكن تليق ببني البشر ولا وجود لمرافق مناسبة، ولا الحي برمته أهل لانتماء الناس اليه. فهي والحالة هذه تمثل أسوأ تجسيد لهذا الوضع غير الانساني.

وكان لابد لهذا من تأثير نفسي... فكان الأبناء يسارعون الى هجر منازلهم وأحيائهم هذه بمجرد أن يشتد عودهم أو يصبحوا قادرين على الكسب المستقل، وتفاعلت في نفوس من اضطرته ظروفه للبقاء في تلك الأحياء نوازع الحقد على المجتمع كله وكراهية كل ما تمثله الأسرة وارتباطاتتها الاجتماعية والتراث وجذوره وغير ذلك من امتدادات ومضاعفات وصلت ببعض السكان الى حالاتت تمن الرفض والثورة والعنف.

وفوق ذلك، تداعت كثير من الأبنية القديمة الجميلة فنا وهندسة وطراز بفعل الزمن وملوثات الجو وغير ذلك، فهدمت وقامت مكانها عمارات سكنية ضخمة العديد منها غير جميل، ورِوعي في القليل الجمال الهندسي الحديث والذوق الفني... ورغم ذلك ارتفعت هذه كالنغم النشاز وسط الابنية الأصيلة في المدينة.

وكان للقبح والنشاز المعماري أثر عميق على الانسان من وجهة نفسية وتربوية، وهذا بدوره تسبب في كثير من المشكلات السلوكية، وفوق ذلك كان لنمو المدن بهذا الشكل السريع المضطرب أثر في حدوث درجات من الاختناق فيها تبدى في مظاهر متعددة ليس أقلها الازدحام الشديد في بعض مناطقها وعرقلة السير تبعا لذلك وفشل المختصين في تقديم الخدمات اللازمة بالشكل الأمثل ونقص الرقابة الأمنية مما شجع على ازدياد موجات الاخلال بالقانون والنظام بل والاعتداء والاجرام.

وهكذا نرى المدينة منبع الحضارة وموئل الانسان تنحط شكلا ووظيفة ويشعر الانسان فيها وهو صانعها أنها عاجزة عن تلبية حاجاته وقد أنشأها

لكي تلبي هذه الحاجات وتشبعها.

المشكلة الثانية:-

وهذا يقودنا الى المشكلة الثانية... اذ أن الفرد في المدينة يعيش في وحدة وعزلة نفسية وقلق وخوف لا يمكن أن يستشعر بها في القرية، بالرغم من أنه يصادف ويتعامل مع عدد من الناس في المدينة أكثر من أولئك الذين يتصل بهم في القرية... فالامر ليس مجرد عدد.... ذلك أن نسبة من يحتك بهم في المدينة الى مجموع سكانها أقل بكثير من نفس النسبة في القرية... واحساس المرء في القرية بأنه على صلة بمعظم أهلها مهما قل عددهم يعطيه عمقا شعوريا بالانتماء وبالصلة القوية بينه وبين مواطنيه في تلك القرية. أما في المدينة فبالرغم من الاعداد الكبيرة من بني البشر الذين يتصل بهم الفرد، يظل شعوره قويا بأنه وحيد... والوحدة تسبب الكثير من المضاعفات النفسية غير المحمودة. وفي هذا يقول جورج سيمل: «في المدن الكبرى تكون علاقاتنا الحسية قوية ومتصلة بينما تكون علاقاتنا الاجتماعية ضعيفة ومتباعدة».

والحصيلة من ذلك أن يحس الفرد بالعزلة والوحدة وسط هذا العدد الكبير من الناس، وقد حدث كثيرا أن توفى شخص في منزله فلم يكتشف موته الا بعد أيام. والعزلة فوق ذلك تسبب للفرد شعورا بالسأم وهذا له مردود نفسي خطير. وقد استغل كثيرون هذا الشعور بافتتاح ملاه وأماكن تسلية حتى أصبحت هذه من أكثر الصناعات ربحا في المدينة. غير أن هذه المرافق، وان خففت عن بعض الناس شعورهم بالسأم والوحدة فترة من الزمن الا أنها ليست الحل الناجع لهذه المشكلة. فالانسان غالبا ما يفقد اهتمامه بها مع تكرار استعمالها على امتداد فترة من الزمن. وسيعود الى سأمه ووحدته وبخاصة عندما يتقدم به العمر. وفي هذه الحالة، يزداد شعوره هذا حدة نتيجة عدم قدرته على التفاهم مع الجيل الجديد وعدم تقبله لمعدل التغيير السريع الذي يطرأ على الحياة في المدينة.

وليس أسوأ على نفس الانسان من احساسه بالارتباط بغرفة أو الانتماء لمنزل فقط في عمارة سكنية. فهذا قريب من احساس المرء بالسجن، بينما الفرد في القرية يحس بالانطلاق ويحس بالانتماء الى الارض الرحبة، وهو

احساس ذو أثر نفسي بناء.

ومن الآثار النفسية التي تؤثر بشكل خطر على الانسان احساسه بأنه مغمور ومجهول في خضم هذه الاعداد الكبيرة من البشر. وهذا الشعور، فوق أنه يحز في نفس الانسان ويخزه في كرامة ذاته، يفقده الحس بالانتماء للناس من حوله. وينعكس هذا على سلوكه ويبدو في اتيانه أنواعا من السلوك ما كان يمكن أن يأتيها لو كان الناس الذين يعيشون حوله يعرفونه - كما هو الحال في القرية مثلا. وهكذا نجد الفرد في المدينة يحس بأنه مجرد رقم احصائي وأنه في حالة ما اذا تعرض لحادث في الشارع فان تصرف الناس من حوله لن يكون كما لو كانوا يعرفونه شخصيا. واذا لم يكن يحمل ما يثبت شخصيته وعنوانه فان من المحتمل أن تمضي أيام قبل أن يعرف أهله بما أصابه. وهذا لا شك شعور يثير القلق في النفس. وهكذا تكون الحصيلة أن يكون الفرد في المدينة أجرأ تصرفا وأكثر تحللا من القيود الاجتماعية التي تفرضها التقاليد والاعراف. وفوق ذلك يستبدل مجموعة المعايير السلوكية التي عرفها في القرية بمجموعة أخرى تختلف عنها في كثير من أسسها. ولا يقتصر التغيير على أنماط السلوك فقط بل يشمل المأكل والمشرب والعادات المعاشية والعلاقات مع الآخرين الخ... وليس هذا غريبا في ضوء ما سبق أن أشرنا اليه من تكيف الكائنات الحية المختلفة التي تتحول للعيش في المدن بهذه البيئة الصناعية وما ينتج عن ذلك من تغير في أساليب عيشها وتغذيها.

ويرى (لويس ويرث) ومن يرى رأيه أن العلاقات بين الأفراد في المدن علاقات ثانوية بينما هي في القرية علاقات أساسية أولية. ويرجع (ويرث) سبب ذلك الى كثرة الاعداد في المدن. ذلك أن تفاعل عدد كبير من الناس مع بعضهم بعضا تفاعل اعتماد متبادل وتعاون، وصعوبة ذلك، يخلق ما يسميه علماء النفس الحضري بظاهرة انقسام الشخصية الحضرية. ويتفق لويس ويرث مع القائلين بأن العاطفة والتقاليد تؤثر في أساليب حياة الناس في القرى والمجتمعات قليلة العدد. بينما تسود الحسابات العقلية وتبرز كأكبر مؤثر في حياة الناس في المدن. وعلى ذلك يقل في المدن تأثير الضوابط الاجتماعية غير الرسمية السائدة في القرى ويصبح لزاما اعتماد ضوابط من نوع آخر كالقانون والشرطة والمحاكم والسجون وغيرها من

التنظيمات والأوامر.

ولما كانت هذه الضوابط خارجية - أي غير نابعة من ضمير الفرد فان تنفيذها لم يكن ولن يكون كاملا... وهكذا تصبح المدن مراكز لاختلال السلوك ومنابع للمشكلات الاجتماعية بما في ذلك الانحراف والاجرام وتحطم الاسرة وكذلك الاضطرابات العقلية والنفسية وغرس بذور التململ وعدم الرضاء وما يستتبع ذلك، اذا تفاعل، من عنف واضطراب.

المشكلة الثالثة:-

قلنا أن أعدادا كبيرة من الناس تدفقت من الريف الى المدن... وواضح كما ذكرنا أن هؤلاء جميعا كانوا يحلمون بأن يحققوا الشهرة والثراء والنجاح، يحفزهم لهذا قصص من تمكنوا من تحقيق ذلك. وفي نمو المدن السريع كان هنكا مجال لكثيرين لاثبات كفاءاتهم وابراز مواهبهم أو الحصول على ثروات جعلتهم في مصاف الاغنياء.... وقد نجح عدد لا بأس به في الوصول الى ذلك بدرجات متفاوتة، غير أن عدد من تدفق على المدينة ساعيا ومحاولا كان أضعاف أضعاف الناجحين. ومعنى ذلك أن الكثرة الغالبة ممن تدفقوا على المدن حالمين واثقين من أن النجاح والشهرة والثراء قيد أنملة منهم، أصابتهم صدمة مخيبة للآمال فسقطوا تحت وطأة الفشل وتحول قسم منهم تدريجيا الى حطام انساني لا يريد العودة للقرية مجلببا بالخيبة ولا يستطيع العيش بكرامة في المدينة... وتحول القسم الاخر الى العمل في أعمال عادية لم تكن قط ما كانوا يرغبون ويأملون. وفي كلا الحالين كان الشعور بالمرارة يولد أثرا نفسيا له تفاعلا ومضاعفات خطيرة، وبخاصة أن المرء لا يقبل الاعتراف بأن ما أصابه من حظ قليل راجع الى نقص قدراته ومواهبه وامكاناته... فهو يلوم عوامل خارجية في المجتمع نفسه... وحقيقة الأمر مختلطة بين هذا وذاك... فهناك حالات كثيرة من سوء تقدير المرء لقدراته ومواهبه ولكن هناك حالات أخرى ترجع الى تدخل عوامل لا دخل للامكانات والمواهب فيها... اذ أن هناك كثيرين ممن ينالون حظا أكبر بكثير من قدراتهم. وهذا يزيد في تعقيد الأمر نفسيا: ذلك أنه يولد عند غير المحظوظين شعورا بالحسد والمرارة والظلم... مما يولد بدوره انفعالات نفسية غير محمودة العواقب، كانت وما زالت السبب في كثير من الآلام

والمآسي... وهذا ما جعل علماء النفس الاجتماعي يطلقون على هذه الظاهرة اسم الباثولوجيا الحضرية أو حالة المرضى المدني.

المشكلة الرابعة:-

نتيجة العوامل المتعددة التي ألمحنا اليها في ايجاز فيما سبق زادت الهوة بين الاغنياء والفقراء من سكان المدن وظهرت معالم هذه الهوة في المسكن وموقعه والملبس والمأكل ومبلغ ما يصرف والكماليات التي تملك وأسلوب العيش وتعدد فرصه ووسائله. وقد أدى الغنى الى ازدياد قوة أصحابه السياسية والاجتماعية وتمتعهم بمباهج الحياة.

وهكذا أصبح هناك تمييز واضح حتى في أحياء السكن فأحياء الاغنياء منفصلة مستقلة وذات طابع خاص، تصلها الخدمات الممتازة ولا تبخل عليها ادارة المدينة بشيء... حتى سعر الارض في تلك الاحياء وما حواليها ظل أعلى من سعرها في أحياء الفقراء وما حولها بشكل واضح بالرغم من أن الأرض واحدة في مدينة واحدة ولا تفصل بينهما مسافة كبيرة وليس هناك ما يميز واحدة عن الاخرى، سوى ذلك الموقع وتلك الصفة الارستقراطية لاحد الحيين.

وزاد الطين بلة في المدن التي حوت أقليات من جنسيات مختلفة أو من أجناس مختلفة أن جمعت الاقليات في أحياء خاصة كانت في الغالب من الاحياء الفقيرة قليلة الحظ سيئة الطالع. وواضح أن في مثل هذه الاجراءات، سواء أنفذت بأوامر وتعليمات أم بضغوط اقتصادية واجتماعية، بلورة لهذا التمييز بين الاحياء واذكاء لروح التفرقة بين مواطني المدينة الواحدة.

وليس غريبا والحالة هذه أن يتفاعل الشعور بالظلم وعدم الرضاء عند قليلي الحظ والامكانات وأن يكون لذلك أصداء في النفوس غير محمودة الاثر.

ويبدو غريبا أن تكون المدينة، التي تمثل قمة التطور الحضاري والاجتماعي، والتي خلقت أصلا وبنيت على أساس أن تكون موئل جمع من المواطنين يعيشون فيها متكافلين متعاونين، وكأنها السبيل الى تنفير الناس من العيش معا في وئام وتعاون، وفتح باب الصراع الطبقي فيما بينهم على مصراعيه.

وقد تبدى كل هذا في عدد من المظاهر النفسية والسلوكية في المدن بدرجات متفاوتة لعل أبسطها تفشي الاجرام بأشكاله المختلفة وانحطاط القيم الانسانية، كما أدى في الحالات العنيفة الى اضطراب حبل الأمن والنهب والقتل والثورة...

غير أنه لابد من الاشارة الى أن أي اختلال سلوكي لسكان المدن وبخاصة مظاهر العنف الشديد لا يمكن أن تكون نتيجة عامل واحد بل لا بد أن يشترك في اطلاقها من عقالها عدد من العوامل التي تنجم عن المشكلات المختلفة في المدن والتي ألمحنا الى بعضها.

فكرة «الباثولوجيا الحضرية» «Urban Pathology»

قلنا أن بعض علماء النفس الاجتماعي ينظرون الى مشكلات المدن التي ذكرنا بعضها على أنها مظاهر لمرض في المدن نفسها... ومع أن هذه المظاهر متلازمة مع المدينة الا أن هؤلاء العلماء ومن يرى رأيهم ينسون أو يتجاهلون أن للانسان ومجتمعه نصيبا كبيرا في خلق هذه المشكلات والعلل... وأن اللوم لا يقع على المدينة بحد ذاتها بل لعل الجزء الأكبر منه يقع على الناس أنفسهم.

وفي هذا يقول ملفن ويبر أنه لا الجرائم التي ترتكب في شوارع المدينة ولا الفقر أو البطالة ولا الأسر المحطمة ولا العنف أو الادمان ولا الامراض العقلية أو انحراف الاحداث ولا أي مظهر من مظاهر هذه الأمراض والعلل يمكن أن نجد أسبابه أو علاجه في المدينة نفسها... ذلك أنه لا يمكننا أن نخترع علاجا محليا لظروف جذورها ليست محلية، كما لا يمكننا أن نأمل من حكومات أو هيئات سلطتها محدودة اقليميا بأن تعالج بشكل ناجع مشكلات ذات أسباب لا علاقة لها بالحدود الاقليمية أو الجغرافية.

ولعل أبلغ ما يذهب اليه القائلون بمرض المدن أو «الباثولوجيا الحضرية» هو أن كثيرا من المدن الكبيرة اليوم تبدي مظاهر النزع الاخير وكأنها على وشك السقوط والاضمحلال. ويحاولون التشبيه بين ما يحدث للمدن اليوم وما حدث عند سقوط روما... ويقول المؤرخ أدوارد جيبون «أن سقوط روما قبل حوالي 1500 سنة كان نتيجة طبيعية وحتمية لمدى ما بلغته من عظمة». وتتردد أصداء هذا القول في كتابات العديد من المؤرخين النظريين المحدثين

الذين يشيرون الى الشبه الكبير بين انحلال روما خلقيا واجتماعيا قبيل سقوطها وانحلال المجتمعات في المدن الغربية الكبيرة. وهكذا نرى أزوالد شبنجلر يعتقد بأن «الدورة التاريخية - بشكليها الروماني القديم والصناعي الحديث - تنتهي الى المدينة الضخمة جدا. وفي هذا النوع من المدن يمتزج الفرد بشكل غير مستقر أو ثابت بكتل بشرية متغيرة، بحيث يصبح في سكناه في المدينة طفيليا، وبدون تقاليد أو تراث، وواقعيا ماديا الى أقصى الحدود، وبدون عقيدة دينية. كما يصبح ذكيا قليل الانتاج.... الخ».

ونرى أرنولد توينبي في موسوعته «دراسة للتاريخ» يصنف روما والولايات المتحدة الامريكية معا ويحاول لفت الانتباه الى أن أمريكا مرت وتمر الان في دورات مشابهة لتلك التي مرت فيها روما من انتصار فتحلل وتحطم... وفي رأيه أن أمريكا يمكن أن تنتهي، كما انتهت امبراطورية أوغسطوس وطايبريوس، الى «انقسام في الروح». وقد تحدث ريتشارد نيكسون عندما كان رئيسا للولايات المتحدة عن «الحضارات القديمة العظيمة وكيف تأثرت بالانحلال الخلقي الذي حطمها في النهاية»، كما أشار الى أنه يتصور أن «الولايات المتحدة الامريكية تقترب من تلك الفترة في حياتها الحضارية». كما يعتقد هربرت مولر بأن ما يتجه اليه الكثيرون اليوم هو التفكير في أوجه الشبه بين عالم روما وعالمنا الحاضر متوقعين أن يعيد التاريخ نفسه.

والحقيقة أن بعض أوجه الشبه تبدو واضحة، ففي أيام الامبراطورية الرومانية الأخيرة كانت الهزائم العسكرية قد خفضت الروح المعنوية الى أدنى مستوى، وأنضبت الخزينة، وبذا حصل التضخم المالي وكثرت البطالة وصار المواطنون يشكون من عدم عدالة نظام الضرائب.... وكانت النتيجة، حسب رأي المؤرخ مايكل جرانت، أن الآفا من المواطنين - فلاحين وعبيدا - شكلوا في الخفاء فرقا سرية كانت تقوم بما يشبه حرب العصابات. ويرى جرانت أن هؤلاء أشبه ما يكونون بالارهابيين اليوم وعصابات الأجرام في المدن... ثم يستمر جرانت في ايضاح أوجه الشبه فيقول أن الفساد استشرى في الادارة والحكم في روما كما استشرى اليوم... كما أصبحت روما وقتها مدينمة يمارس فيها اللهو غير البريء بدرجة جعل الصفة الغالبة عليها صفة الرذيلة والفحشاء. واستمرأ أهل روما في تلك الفترة الانغماس في الملذات والشهوات ووصل هذا عند الاغنياء حدودا لم تكن تخطر ببال،

ويشير الى أن ما يحدث اليوم في كثير من المدن والعواصم ليس بعيدا عما حدث في روما، لا بل فاق في بعض هذه المدن تبذل روما بمراحل.

وفي روما ملئ فراغ الناس نهارا في تلك الفترة، وبخاصة العاطلين عن العمل الذين كانوا يعيشون على الاعانات والمساعدات التي كانت تصرفها الدولة لهم، بمشاهدة المصارعة (بين الوحوش والسجناء) وسباق العربات وغيرها من مباريات... ويسجل المؤرخون أن عدد الناس الذين كانوا يتزاحمون في الكوليزيوم لمشاهدة مصارعة كان يزيد عن 50ر000 نسمة بينما كان عدد من يتدفقون لمشاهدة السيرك الكبير أكثر من 260ر000 نسمة، وحوالي ذلك كان عدد مشاهدي سباق العربات.

ويقول المؤرخ القديم تاسيتوس أن هذه الألعاب والمسابقات الرياضية في أواخر أيام روما كانت تسلية الكبار وشغل الشباب الشاغل...

فاذا قارنا هذه الأعداد بأعداد الذين يشاهدون مباريات كرة القدم أو المصارعة الحرة أو السيرك اليوم ألا نرى أوجه الشبه كثيرة؟

غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هو أن كان يحق لبعض المؤرخين والمفكرين أن يستنتجوا من هذا الشبه ما يذهبون اليه من أن المدن في العصر الحديث على وشك أن تلاقي مصير روما؟

ففي اعتقاد الكثيرين أن هذا التشابه لا يعدو أن يكون شبها سطحيا. ذلك أنه يجب أن ننتبه الى أن الامبراطورية الرومانية كانت تمثل مجتمعا ضيقا مغلقا. وكان هذا المجتمع محدودا الى حد بعيد من حيث القوة والمواصلات والاتصالات. كما أن الامبراطورية الرومانية عانت كثيرا من سلسلة طويلة من الثورات وحركات العصيان. وكان المجتمع الروماني مشتملا على عدد كبير من الناس الذين لم يكن لهم صوت في الحكم ولا كانت لهم كرامة في العيش، ولذا لم يكن لديهم اهتمام بما يحل بذلك المجتمع... غير أن أهم ما أعاق الامبراطورية الرومانية عن الاستمرار وسبب انحلالها كان عدم قدرتها على مواكبة التغير وتقبله... فقد بقيت جامدة ثابتة وحركة التغير المتوالية تصدمها وتصدمها الى أن تفسخت وانحلت.

أما المجتمعات الحديثة وبخاصة مجتمعاتت المدن الكبرى فليست أي حال من الأحوال مجتمعات ضيقة مغلقة. وهي، على العكس من ذلك، منفتحة على العالم ومتصلة ببعضها اتصالا وثيقا وسريعا. كما أن وجود

أعداد من الناس لا يشاركون في الحكم وكرامتهم مهدورة حكما أمر غير واسع الانتشار ولا يوجد الا في حالات محدودة. ومع أن المدن الحديثة عانت كثيرا من ويلات الحروب وأسلحتها المتطورة ومن عصابات الاجرام التي عاشت فيها فسادا ومن أعمال العنف والشغب الجماعي في بعض الأحيان الا أن هناك اختلافا أساسيا في الوضع بينها وبين مدينة روما القديمة.

وفوق ذلك كله لا تعاني المدن الكبرى الحديثة - بالمقارنة مع روما القديمة - من نقص في القدرة على مواكبة التغير أو تقبله... بل على العكس من ذلك وبالرغم من مقاومة الانسان الطبيعية للتغير، ترحب هذه المدن بالتغير وتسهم به بل وفي كثير من الحالات تكون رائدة في ركوب موكبه.

ومن الجلي أن المؤرخين والمفكرين، الذين رأوا في الشبه بين حالة روما القديمة والمدن الكبرى الحديثة نذيرا بأن الأخيرة سائرة على نفس الدرب الذي سارته الاولى، فاتهم فهم الحضارة العلمية الحديث فهما عميقا وصحيحا - وهي أقوى سلاح في يد المجتمعات الحديثة. فالمعروف أن من أول مميزات هذه الحضارة أنها ديناميكية متحركة دوما لا تعرف الجمود ولا التوقف. فهي تعتمد على العلم بأركانه الثلاثة: الفكر العلمي والبحث العلمي والتطبيق العملي أو ما يعرف بالتكنولوجيا. وكل هذه الأركان ديناميكية لا تعرف التوقف ولا الجمود. فالفكر العلمي لا يكشف عن سر أمر حتى يتطلع الى سر بعده، والبحث العلمي لا يحل من المشكلات قدر ما يخلق منها... والتطبيق التكنولوجي يسارع وراء الاثنين. فمثل هذه الحضارة التي، بالرغم من كل الصعوبات والمشكلات التي تواجهها، ماتزال تفكر في الانطلاق الى كواكب أخرى، وتنظر في أعماق الكون وفي دقائق الذرة، وتنتج العقول الحاسبة والالكترونية وتستخدمها، وتفتح كل يوم فتحا جديدا في ميدان المعرفة، لابد أنها قادرة على مساعدة الانسان على مواجهة مشكلات المدن وحلها... وان التنبؤ بمثير شبيه بمصير روما ضرب من التشاؤم لا مبرر لها ولا سند.

الاتجاهات العلمية لمواجهة التحدي

علينا أن نتذكر أن قسما كبيرا من مشكلات المدن، ان لم تكن كلها،

مرجعها في أساسها للانسان والمجتمع... وعلى ذلك فإن العلاج يقع خارج نطاق مجال العلم بحدوده الدقيقة... غير أن هذا لا يعني اطلاقا أن العلم لا يستطيع تقديم حلول أو مساعدات في سبيل الوصول الى حلول ناجعة.

وفي اعتقادها أن بوسع العلم أن يسهم في حل مشكلات المدن إسهاما كبيرا بإحدى الوسيلتين التاليتين:-

أولا:- باعتماد الاسلوب العلمي في التفكير وأسلوب البحث العلمي يمكن التوصل الى حلول أقرب الى المعقول وبخاصة للمشكلات ذات الطابع النفسي الانساني أو الاجتماعي الانساني.

ثانيا:- باعتماد هذين الاسلوبين مع نتاجهما - التكنولوجيا - يمكن تحسين امكانات الحياة والعيش في المدن والحفاظ عليها كمراكز تنبض بالحيوية وينعكس الجمال من جنباتها وتمتلئ بالمرافق التي تسري عن الانسان وتجعل عيشه هانئا.

ففي المجال الأول يستطيع المرء أن يتلمس الحلول التالية:

ا- اعطاء المواطنين جميعا فرصا متكافئة في مجال اعدادهم للحياة... والحرص على صقل مواهبهم وابراز قدراتهم... ولعل ذلك، فوق المردود الذي يعود على المجتمع، سبيل الى ارضاء غريزة أساسية في الفرد الانساني واعطائه احساسا بكرامته وأشعاره نتيجة ذلك بتقدير المجتمع له. وهذا التقدير خير ما يكافأ به على جهده وأكبر حافز له على بذل المزيد منه.

ب - تقرير الحد الأدنى الذي يسمح به لمستوى البيوت والمنازل من حيث الشكل العام والسعة والمرافق والناحية الصحية والناحية الجمالية، وكذلك التشريع لضمان مستوى مقبول لصيانة هذه البيوت والحفاظ عليها وعلى المناحي الجمالية في بنائها. وليس في هذا، فيما نعتقد، حدا من حرية الفرد، ذلك أنه من المقبول في كل مكان وعلى جميع المستويات أن لا تكون حرية الفرد مطلقة وأن لا تتعارض مع المصلحة العامة أو مصلحة الاخرين، فكيف اذا كان وضع حد أدنى لما يجب أن يكون، ولو أن في ذلك قيدا محدودا على الحرية الفردية، فيه مصلحة شخصية للفرد نفسه.

جـ - جعل مرافق التسلية والرياضة والمرافق الاجتماعية والثقافية والفنية مرافق للدولة أو لمؤسسات خاصة لا تبتغي الربح وللدولة حق الاشراف عليها. على أن تفتح جميع هذه المرافق للراغبين في الافادة منها على قدم

المساواة، وشريطة أن يخطط لهذه المرافق بحيث تخدم الفرد ثقافيا واجتماعيا ونفسيا بشكل ايجابي.

وإذا كان هناك من يعترض على اشراف الدولة أو المؤسسات الخاصة على هذه المرافق تخوفا من انتقاص الحرية الفردية، فبالوسع، بالاضافة اليها، أن تكون هناك مرافق خاصة لمن يشاء أن ينشيء من أمواله مثل ذلك.

د - الحرص على أن تكون الخدمات العامة في المدينة متاحة لجميع المواطنين بقدر مقرر كاف للجميع، على أن يترك المجال مفتوحا لمن يختار أن يتمتع بقدر أكبر مقابل رسم مقرر يدفعه بشكل متناسب مع كمية القدر الذي يختاره.

هـ - زيادة الترابط بين سكان المدينة وزيادة حسهم المدني والاجتماعي، وادخال مفهوم انتمائهم للمدينة منذ نعومة أظفارهم وكذلك جعلهم ايجابيين في العمل الاجتماعي داخل المدينة بحيث يقوم كل منهم بواجب انساني نحو مواطنيه كجزء من واجبه الذي لا مفر منه. ويقول فيليب هاريس في «الانسان المتغير»: «أن الانسان أصبح حساسا للانسان وبالتالي لكل الخليقة ومصدرها ذاته. انه يقوم بتجارب بشكل متزايد على أن يخرج عن طوره ويتخلى عن ذاته لخدمة الاخرين في مجموعته الانسانية».

على أن تنفيذ ذلك يتطلب أن لا يحس أي فريق من المواطنين بالغبن والظلم. فالمواطنة تقتضي أن يكون الفكر العام في المجتمع متسقا في أسسه مع مجموع الأفكار الخاصة للأفراد.

وفي المجال الثاني يتحتم أن يسهم العلم مع الهندسة والتكنولوجيا في تحقيق ما يلي:-

أ- العناية بتخطيط المدن أو بالأحرى نموها وتجديدها، والتشريع لشروط البناء فيها من جميع الوجوه. وكذلك جعل هذا التخطيط خاضعا للدراسة العلمية من احصاء ومسح وبحث علمي في أساليب البناء ومبلغ الخضرة والماء بالنسبة للحجر والاسمنت والاسفلت... ومقدار تلوث الهواء المسموح به ونوعه الى آخر ما هنالك من مجالات. فقد أصبح واضحا الان أن ترك المدن تنمو كيفما اتفق وفي أسهل الاتجاهات وأقلها كلفة قد سبب كثيرا من القبح وكثيرا من الضيق الذي وصل الى حد الاختناق في حالات عديدة. كما أن ترك أصحاب العمارات يبنونها وهدفهم الاول استغلالها واسترداد

رأسمالهم بأسرع وقت قد خلق انعكاسات نفسية واجتماعية ضارة بالفرد والمجتمع، وأساء الى مفهوم البيت والحي والمدينة. وهذا المفهوم ليس جزءا من فكر الفرد وثقافته فقط بل يتدخل في تشكيل حياته وآماله ومستقبله.

وقد ذكرنا أن العربي يعتبر البيت قلعته الحصينة، ويضفي على بيته هالة من الحرمة يدافع عنها في وجه أي اعتداء عليها، وبيته بعد، مخزن ثروته يجمع داخله كل مقتنياته وممتلكاته الثمينة، ويتمتع داخله بروح من الحرية والانطلاق. ويعتبر الياباني منزلة صورة مصغرة للكون من حوله ولذا يحرص بالاضافة الى مكان عيشه ونومه أن تكون فيه حديقة مهما صغرت، ويحرص أن يكون في الحديقة عناصر معينة: كصخرة (أو مجموعة صخور على شكل هندسي) ترمز للجبل وشجرة (أو أشجار) ترمز للغابة وبركة ماء يربى فيها بعض السمك لترمز للبحر أو المحيط، ويجري الماء الى هذه البركة في مجرى يمثل النهر، وهناك بالطبع التراب الذي يمثل السهل، وبذا يجمع رمزيا عناصر الارض (بيئة الكون من حوله) في داخل بيته، ويكون البيت بحديقته مكانا مناسبا للتأمل والتفكر. ومثل هذا المفهوم بالاضافة الى الجمال الذي يضفيه ينعكس على رب البيت وأهله نفسيا ويساعدهم على نسيان هموم الحياة ومتاعبها. وهذا من أهم وظائف البيت التي افتقدها الانسان في المدينة الكبرى حيث تتراص البيوت في عمارات سكنية ضخمة لا يجد الساكن فيها حرية في خلوته فيسمع حركات جيرانه وأصواتهم ويضيق يضجيج أولادهم أو حفلاتهم كما تتأثر الخدمات المتاحة له باستعمالات جيرانه وكثيرا ما تكون استعمالات خاطئة. وهكذا يفقد البيت جزءا كبيرا من أهمية مفهومه ويصبح مصدر ازعاج بدلا من أن يكون مصدر راحة.

وقد ذكرنا أن من الامور الهامة أن يشرع لمستوى بناء البيوت من وجوه عدة. غير أن هذا يجب أن لا يعني أن تصبح البيوت في شارع أو حي ما صورة طبق الاصل من بعضها بعضا كما هي الحال في بعض مناحي لندن وفي الرقة والصباحية في الكويت بل لعل الواجب أن يتخذ كل بيت طابع صاحبه وشخصيته وذوقه في اطار المستوى المقرر قانونا.

ب - في التخطيط للمدينة يجب أن ينتبه الى أنها ليست مجرد بيوت وعمارات سكنية ومرافق متنوعة فقط، فالحدائق والساحات والشوارع

فيها تمثل عناصر بالغة الأهمية.

ذلك أن الحدائق والساحات مجالات انطلاق للصغار والكبار ومتنفس هام وبخاصة لسكان العمارات الذين لا يجدون حولهم في مساكنهم شيئا من الطبيعة. ونجد في المحاولات التي جرت حديثا لتحسين أوضاع بعض المدن اهتماما واضحا بتخصيص مساحات للحدائق العامة والنوافير والشلالات وتمثل مدينة ستوكهولم هذا الاتجاه خير تمثيل. وقد أفاد بعض المهندسين المعماريين من دراستهم لمفهوم البيت العربي والياباني وغيرهما في ادخال الطبيعة الى داخل البيت ونتج عن ذلك بناء بعض الفنادق الضخمة في أمريكا وفي داخلها حديقة وشلال كبير في اطار جميل.

كما اتجه بعض المعماريين الى جعل حدائق صغيرة على مستويات مختلفة من العمارات الضخمة الحديثة.

كما وجد المهتمون بتخطيط المدن أن الساحات في المدن القديمة والقرى تخدم أغراضا اجتماعية... اذ يتعارف فيها الناس ويتعاونون في أفراحهم وأتراحهم ويلهو فيها أطفالهم ويجلس في أركانها الكبار يتبادلون الأحاديث والأخبار والرأي في شئونهم. وقد ارتأى كثير من هؤلاء المهندسي اعادة نظام الساحات الى المدن الجديدة والمدن التي يعاد بناء أجزاء منها بهدف التحسين والتجميل.

أما الشوارع فقد كانت ومازالت أكثر المشكلات في المدينة تعقيدا وتأثيرا على حياة الناس. ولم يخل تشريع سماوي أو وضعي من ضمان حق المرور للناس بعامة. ولا غرو فالشوارع شرايين المدينة وأوردتها - وهي أكثر أجزاء المدينة استعمالا. ولم تبرز مشكلة شوارع المدن في الماضي بشكل واضح لان دفق الحياة فيه كان هادئا بطيئا. ولكن بعد أن تسارعت الحياة في هذا العصر وزاد دفقها وزخمها بدأت مشكلة الشوارع تظهر للعيان وتتفاقم بشكل حاد. فالناس زادوا عددا ومتطلبات الحياة والعمل تضطرهم لاستعمال الشوارع بكثرة وتكرار، وسوء توزيع المرافق العامة وأماكن العمل يضع عبئا ثقيلا على بعض الشوارع أو عليها كلها في أوقات معينة، ودخلت السيارات عنصرا جديدا على الشوارع أعطى استعمال الشارع بعدا جديدا هو السرعة. كما أن نقص الساحات انعكس على مدى استعمال الناس للشوارع.

وقد أدى كل ذلك الى أن أصبح الناس يضيقون بالشوارع ويخشونها

لكثرة الحوادث المؤسفة التي تحدث فيها كل يوم.

وقد حاولت مدن كثيرة حل مشكلة الشوارع ببناء شوارع أرحب وشوارع مرتفعة عن سطح الأرض وأخرى في أنفاق تحت الأرض. وقد أسهمت التكنولوجيا الهندسية في جعل هذه الشوارع قمة في الدقة والفن. ومما لا شك فيه أن هذا الانجاز ساعد على منع اختناق الشوارع بالازدحام الشديد، ولكن تزايد أعداد السيارات المستمر أثار تخوفا من أن لا يكون هذا حلا ناجعا على المدى الطويل.

وفي غمرة هذا وما فيه من مخاطر تميت سنويا من البشر أكثر مما تميته أشد الامراض فتكا، نجد الاولاد يلجأون للشوارع لعدم وجود مرافق كافية يلعبون فيها ويلهون. ومن ينجو بنفسه من الموت أو الاصابة لا ينجو من آثار أخرى نفسية وخلقية لا تقل خطرا... ولعل ما نلمسه اليوم من انتشار الادمان على المخدرات بين أحداث كثير من المدن وغير ذلك من مشكلات خلقية يرجع في جزء من أسبابه الى مشكلة الشوارع في تلك المدن واستعمالها بديلا عن الساحات المفتقدة. وقد نالت الشوارع من جراء ذلك سمعة سيئة ودخلت اللغة مصطلحات جديدة بمدلولات سيئة مثل (أولاد الشوارع) وغير ذلك كما نجد في كثير من المدن لافتات تهيب بالناس أن لا يدعوا أولادهم يلعبون في الشوارع دون أن يقدم لهم البديل المناسب. وكذلك تنعكس مشكلة الشوارع على الاسواق والحركة التجارية ولهذا مضاعفات عديدة في المناحي الاقتصادية والانسانية.

جـ - كما عالج العلم والتكنولوجيا مشكلة تضخم المدن واتساعها، بوسائل مختلفة، لعل أفضلها حاليا هو بناء مدن مستقلة تحيط بالمدينة الأصلية احاطة الاقمار بالكوكب على أن لا تكون هذه المدن مجرد ضواح، كما هو الحال في كثير من المدن حتى الان، بل تكون مستقلة بكل معنى الكلمة بحيث لا يضطر مواطنها الى السفر يوميا الى المدينة لقضاء حاجاته وأعماله.. بل على العكس من ذلك يجد المواطن فيها السكن والمأكل والمتعة والمدارس ومركز العمل وفروعا للادارات والوزارات للرجوع اليها اذا ما احتاج بما في ذلك استخراج جواز السفر وحجز أماكن في الطائرات لسفره، كما يجد فيها العناية الطبية على مستوى عال وفي أسواقها كل ما يحتاج اليه. وباختصار لا تعود هناك حاجة للمواطن في واحدة من هذه المدن

الاقمار للذهاب الى المدينة الكبيرة الاصلية الا في مناسبات قليلة متباعدة.

وبالطبع روعي في هذه المدن أن تكون غاية في التنظيم والجمال، كما روعي فيها أن تحوي أكبر قدر من العناية الصحية والنفسية والتربوية... وهكذا نجد البيوت فيها تتباعد عن بعضها ويكون لكل بيت حديقة مقررة مساحتها، بالاضافة لوجود ساحات وحدائق عامة فيها تجري المياه وتتجمع في برك وبحيرات صغيرة، كما توجد طرق آمنة خاصة بالمشاة وأخرى لسائقي الدراجات وثالثة للسيارات بعيدة عن الاثنتين، وفوق ذلك نجد الأسواق في مجمعات لا تدخلها السيارات، وان كانت كبيرة متسعة فلها سيارات خاصة تسير بالكهرباء، وفي أحيان تكون الاسواق تحت الارض متكاملة وحاوية لكل جديد كما أن الاسعار فيها هي نفس أسعار أسواق المدينة الكبرى والسلع هي نفس السلع المعروضة هناك حتى السيارات والاناث وأحدث طرز ملابس السيدات.

ويعتقد بعض العلماء والمهندسين أن تطور وسائل الاتصالات والمواصلات سيغير في المستقبل الوضع تغييرا كبيرا، فلا تعود هناك حاجة للمدن الكبيرة جدا اذ يبتني الناس بيوتهم في الريف بعيدا عن المدن وتكون، رغم ذلك، صلاتهم بأصدقائهم وأقربائهم صلات قوية بفضل سهولة الاتصال عن طريق الأجهزة المتطورة وبفضل سرعة الانتقال، كما يعتقد اخرون بأنه سيسبق هذه الخطوة أن يكون للفرد بيتان أحدهما في الريف والاخر في المدينة، ونظرا لان أسبوع العمل مستقبلا سيكون حوالي نصف أسبوع فان الفرد سيقضي في بيته في المدينة نصف أسبوعه عاملا وفي بيته الريفي النصف الاخر في راحة واستجمام أو منشغلا بعمل خاص آخر.

وخلاصة الأمر أن هذه المشكلة متشابكة تشابكا معقدا مع العوامل الانسانية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية... فليست المدينة سوى نتاج الانسان نفسه وتحمل في طياتها كل مشكلاته وان كانت كالمرآة تبرز هذه المشكلات وتزيدها تعقيدا... وما لم يستطع الانسان اصلاح ما بنفسه فلن يتمكن من اصلاح مدينته... ولا يمكن للعلماء أو المهندسين أو التكنولوجيين القيام بأي اصلاح بمنأى عن الانسان نفسه.

لقد ماتت ودفنت مدن كثيرة في الماضي... ولكن مدن اليوم في ظل الحضارة العلمية الحديثة لا يبدو أنها قابلة للموت... حتى الحروب الحديثة،

بكل أسلحة الدمار التي استعملتها والتي هدمت القسم الأكبر من هذه المدن، لم تنجح في قتل المدن الحديثة... اذ سرعان ما عادت تلك المدن المهدمة للحياة مرة أخرى بشكل أجمل وأحدث... الا انها عادت وفيها كل المشكلات التي كانت تشكو منها... وهكذا مع أن مدن اليوم لن تلقى مصير روما أو أثينا أو بابل وتدمر وسبأ والبتراء وجرش الرومانية الى آخر المدن الميتة، الا أن المشكلات فيها تتفاقم بشكل يصل الى أن يكون تحديا للانسان وحضارته.

ومن هنا تتخذ السلطات البلدية أهمية خاصة قلما ينتبه إليها. فالسلطات البلدية في معظم مدن اليوم وبخاصة في الدول المتخلفة سلطات خدمات بينما يجب أن تكون سلطات حضارية.... فهي القيمة على منبع حضارة الانسان، أي المدينة، وهي المسئولة تبعا لذلك عن ابقاء هذا النبع فياضا متدفقا. ان هذا يلقى على السلطات البلدية مسئولية ضخمة ويوجب أن يكون المجلس البلدي، منتخبا كان أم معينا، على مستوى المسئولية والكفاءة وبعد النظر واتساع الأفق والحس الحضاري... وأن تكون السلطات البلدية قادرة على التخطيط لا للأبنية والشوارع بذاتها ولكن للانسان الذي سيستعمل هذه. ان هذه السلطات مطالبة بأن يتعدى اهتمامها الوسيلة الى الغاية والشكل الى الوظيفة، دون اهمال للوسيلة أو الشكل. أما تركيز الاهتمام على الوسيلة والشكل دون هدف فأمر لا يؤدي إلى أية نتيجة ذات منفعة دائمة.

4 مشكلة التخلف

منذ أن كان الانسان وحظ بعض الناس من الدنيا أفضل من حظ الاخرين. وهكذا كان في المجتمع الواحد أغنياء وفقراء، منعمون وكادحون... كما كانت الشعوب والمجتمعات تنقسم بالمقارنة مع بعضها الى شعوب أو مجتمعات غنية وأخرى فقيرة... وكان الفقر والغنى مرتبطا في الماضي بثراء البيئة أو مواءمة الموقع أو قوة الشعب وسيطرته على أراضي غيره أو مهارته في حرف يحتاجها الاخرون.

وقد نشأت وازدهرت الحضارات القديمة حيثما توافرت المياه لأنها في غالبيتها اعتمدت على الزراعة أساسا ومصدر ثروة... كما مرت ثروات الشعوب في الماضي في دورات زادت حتى بلغت الاوج ثم انخفضت بفعل عوامل مختلفة منها عوامل بيئية وأخرى إنسانية.

ونسمع اليوم عن تقسيم الشعوب والدول الى غنية وفقيرة وأحيانا تسمى دول الشمال ودول الجنوب وتسميات أخرى مختلفة لعل أكثرها شيوعا الدول المتقدمة والمتخلفة - وأحيانا يستبدل اسم الدول النامية بالمتخلفة.

ولابد لنا من وقفة هنا... اذ يرتبط في أذهان الناس كثيرا مفهوم التقدم بالغنى ومفهوم التخلف

بالفقر قياسا على التقسيم في الماضي... ولكن الامر في الحقيقة مختلف بعض الشيء... ذلك أن التقدم والتخلف صفتان لم تظهرا الا في ظل الحضارة العلمية الحديثة. وصحيح أن بعض الشعوب في الماضي كانت متحضرة بينما كانت شعوب أخرى تعيش في حالة بدائية أو غير متحضرة، الا أنه ندر أن كانت الدول المتحضرة في الماضي غير غنية وندر أن كانت الدول البدائية غير فقيرة. أما صفتا التقدم والتخلف في عصرنا الحاضر فلهما أسباب أخرى غير الغنى والفقر، أو لعل الغنى والفقر لم يعودا العامل الرئيسي فيهما... وعلى ذلك نجد اليوم بعض الدول الغنية ماديا غير متقدمة وبعض الدول الفقيرة في مواردها وثرواتها الطبيعية متقدمة وبعضها متقدم جدا. ويكفي أن نذكر اليابان وبريطانيا وسويسرا كأمثلة على الدول الفقيرة في مواردها الطبيعية المتقدمة حسب معايير التقدم الحديث. من هنا كان لابد من تحديد واضح لمفهوم التقدم والتخلف لا لمجرد البحث الاكاديمي وانما لان التخلف اليوم مشكلة مرعبة تواجه بعض الشعوب وتهدد حياتها وكيانها.

قلنا ان مفهوم التقدم والتخلف نشأ في ظل الحضارة العلمية الحديثة... فلا بد اذا أن يكون هذا المفهوم مرتبطا ارتباطا وثيقا بهذه الحضارة ومنبثقا عنها.

ولقد حاول كثيرون أن يصطلحوا على مقياس يقيسون به التقدم والتخلف... ونجم عن هذه المحاولات مقاييس عديدة لا مقياس واحد... وواضح أن تعدد المقاييس واختلافها لا يؤدي الى قياس دقيق... ومن هذه المقاييس المختلفة كان معدل كمية الماء التي يستهلكها الفرد في المجتمع، أو كمية الصابون المستهلك، وكلا هذين المقياسين يعكس الاهتمام بالسلوك الانساني من الناحية الصحية (مع أن معدل استهلاك الماء يعكس أيضا درجة التصنيع).

ومنها أيضا كان مقياس درجة التصنيع في المجتمع بمعايير مختلفة، ومعدل دخل الفرد في السنة، وكان مقياس ما يستهلكه الفرد من الطاقة في السنة، وكان مقياس مبلغ عناية الفرد والمجتمع بالصغار ومدة هذه العناية، الى آخر المقاييس التي ابتدعها المفكرون... وكل مقياس من هذه يقيس جانبا أو أكثر من جوانب التقدم ولكنه لا يقيسها كلها.

ولعلنا لا نعدو الواقع كثيرا ان نحن قلنا أن التقدم في هذا العصر يقاس أو يجب أن يقاس بمدى ما تأخذ به الشعوب والمجتمعات من الحضارة العلمية ومدى ما تسهم فيها وفي تقدمها.

على أننا نود أن نشير هنا الى أننا نعتقد بأن الحضارة العلمية الحديثة ليست الحضارة الغربية التي نعرف وأن الخلط بين الاثنتين سبب ويسبب كثيرا من الاخطاء في ردود الفعل... وسنوضح هذا فيما بعد.

وفي نفس الوقت أن نؤكد أيضاً اعتقادنا بأن الانسان لا يحيا بالعلم وحده، وأن المناحي الأدبية والموسيقية والفنية أو الوجدانية أمور هامة ولازمة ولكنها ليست ذات أثر مباشر على الحضارة العلمية ولا على التقدم بمفهومه الحديث. ومما لاشك فيه أن هذه المناحي الوجدانية تثري حياة الانسان وترهف حسّه وتصقل عواطفه وبذا يصبح أكثر انسانية... ولكن كل هذا، على أهميته للانسان، لا دخل له بالتقدم حسب المعايير النافذة المؤثرة في حياة الأمم والمجتمعات.

على أنه رغم اعتقادنا بأهمية الجوانب الوجدانية وأثرها في الانسان وحياته نود أن نتوقف عند الاتهامات التي تكال للعلم والتكنولوجيا - أو الحضارة العلمية الحديثة من أنها تجعل الفرد ماديا متجمد الحس بعيدا عن النظرة الجمالية، بعيدا عن الدين والمعايير الخلقية والشعور الانساني النبيل. لا بل أن كثيرين يعزون المشكلات المتعلقة بكل هذا الى أثر العلم والتكنولوجيا المباشر على الانسان المعاصر.

ومع أن هذه المظاهر ازدادت بشكل ملفت للنظر في هذا العصر الذي تسود فيه الحضارة العلمية الحديثة، الا أن ذلك لا يعني أن هذه الحضارة هي بالذات هي السبب في هذه المظاهر... بل لعل الانسان واجد السبب في نفسه لو بحث بموضوعية وتجرد... فهذه المظاهر موجودة منذ أن كان الانسان بدرجات متفاوتة... ولعل هذه المظاهر نفسها كانت وما زالت ضمن المواضيع التي حاول الادب والفن عبر العصور ابرازها ومعالجتها.

وهناك أيضا من يزعم أن العلم بحد ذاته والتكنولوجيا الناجمة عنه يخلوان من قيم الجمال والتناغم والفن. ورغم أننا نعترف بأن أساليب التفكير العلمية والتكنولوجية تختلف اختلافا جوهريا وجذريا عن أساليب التفكير الأدبية والفنية الا أن ذلك لا ينفي أن في العلم جمالا وتناغما

وتناسقا يطرب الانسان (والعالم بشكل خاص) ويصقل حسّه، كما أن في الآلة التي تبتدعها التكنولوجيا جمالا وفنا كبيرين يتضحان لمن يتمعن فيها... والجمال، بعد، في عين المشاهد. بل أن العالم الرياضي، مثلا الذي يتوصل عبر معادلاته الرياضية ورموزها وأرقامها الى حل لمشكلة ما يشعر، بالاضافة لشعور الرضاء بالنجاح، بمبلغ الجمال والتناسق والتناغم في الاسلوب الرياضي وفي النتيجة التي أوصله اليها. وكذلك العالم الذي يتوصل الى فرضية تفسر ظواهر مختلطة لم يكن يعلم لها تفسيرا يحس في أعماقه بنشوة تشابه الى حد كبير نشوة الموسيقى عندما يقع على لحن جميل أو نشوة الشاعر عندما تنتظم في نفسه الكلمات المبرة عن شعور دفين. وهذا الشعور يعلمه كل من عانى العلم على أصوله الصحيحة أو راقب عالما يعانيه. ولا نجد داعيا للتمثيل على ذلك فكل كشف علمي أثار في نفس العالم الذي توصل اليه هذا الشعور وأحدث فيه نشوة التناغم الفكري مع الكون فوق نشوة النجاح. ثم من قال أن الآلة عبارة عن هدير وضجيج وخطر ماثل وشكل قبيح اوليس في الآلة - أية آلة وحتى آلات والدمار - جمال مظهر وتناسق أجزاء لمن يريد أن يرى ذلك؟ أوليس القبح في استعمالها لا فيها هي؟

ومنذ أن بدأت الحضارة العلمية الحديثة تسيطر على حياة الناس في منتصف القرن التاسع عشر ظهرت للعيان مشكلة انقسام الشعوب والمجتمعات الى متقدمة ومتخلفة.... وصاحب ذلك سيطرة الدول المتقدمة على الدول المتخلفة سيطرة أوثق وأشد من سيطرة الاستعمار المباشر الذي كان معروفا من قبل... وحتى في يومنا هذا وقد انتهى عهد الاستعمار المباشر ونعمت الشعوب بالاستقلال والحرية، مازالت الدول المتخلفة تعتمد اعتمادا كبيرا على الدول المتقدمة في جميع مناحي الحياة. وحتى عندما تتحول الدول المتخلفة للتصنيع نجدها معتتمدة في آلات صناعاتها وقطع غيارها على الدول المتقدمة... وقد رأينا أمثلة من اعتماد الدول المتخلفة على الدول المتقدمة في السلاح وقطع غياره، وكيف كان بوسع الدول المتقدمة التحكم في قوة الدول المتخلفة بمجرد الامساك عن تزويدها بقطع غيار السلاح.

أوَلَيس هذا التحكم نوعا من الاستعمار؟ ولعله أشد وأقسى من الاستعمار

المباشر... ثم ان التخلف اليوم ليس مجرد مشكلة تواجه بعض الدول والشعوب... بل انه يتعدى ذلك ليصبح تحديا لوجود تلك الدول ومستقبلها. فازدياد التقدم العلمي والتكنولوجي عند الدول المتقدمة بشكل متسارع يجعل الهوة بينها وبين الدول المتخلفة تتسع وتعمق الى درجة أن هناك تهديدا حقيقيا بأن يكون هناك نوعان من السكان في العالم يخلفان عن بعضهما اختلافا بينا اذ هما يعيشان على الارض في فترة زمنية واحدة ولكنهما غير متعاصرين.

وقد حاولت كثير من الدول المتخلفة، بعد أن أفاقت على هذا الواقع المرير، أن تأخذ بالحضارة العلمية الحديثة كسبيل للوصول الى مرتبة الدول المتقدمة. غير أن كثيرا من هذه الدول أعاقتها عوائق عدة، لعل أهمها عدم فهم هذه الشعوب حقيقة مفهوم العلم وبالتالي الحضارة العلمية... وكان عدم فهم العلم فهما صحيحا وراء الفكرة الشائعة بأن الحضارة العلمية يمكن أن تستورد، اذا توفر المال، وبذلك يحدث التقدم وتنتفي مظاهر التخلف... وهذا بعيد عن الصواب والواقع بعدا شديدا. فالحضارة ليست مظاهر تقتبس أو تشترى، والتقدم لا يأتي من الخارج... بل لا بد أن ينبع من داخل الفرد والمجتمع حتى يكون قوة دافعة مستمرة ومتزايدة على المدى.

وعلينا أن نعي أن العلم غريب عن الطبيعة الانسانية. ذلك أن الانسان عاطفي بطبعه ويكره التغيير ويقاومه، بينما العلم بأسلوبه الفكري لا يستخدم العاطفة بل ويبعدها بعيدا. ثم أن التغيير ناتج طبيعي للعلم وتطبيقاته التكنولوجية... فاذا فهمنا أن العلم غريب عن الطبيعة الانسانية عرفنا أن الانسان لا يولد عالما، ولابد، حتى يصبح كذلك، من تدريبه منذ نعومة أظفاره على أساليب الفكر العلمي والبحث العلمي والتطبيق التكنولوجي.

وهناك أمر آخر، لا يقل عن سابقه أهمية... اذ يتحتم على الدول المتخلفة أن تعي وعيا أكيدا طبيعة الحضارة العلمية الحديثة وأثرها في ميزان القوى في العالم. فبدون ذلك تظل الجهود المبذولة في اتجاه التقدم جهودا فردية لا تؤدي الى شيء، وتظل في حالات أخرى محاولات لا تدعمها روح عزم وتصميم، ولا يدفعها اصرار ذوي الرؤية الواضحة والهدف المبين المبتغى، وهذا أيضا لا يؤدي الى شيء. فالهوة المتزايدة تحجب أثر كل تقدم

محدود يمكن أن تحققه هذه الجهود والمحاولات. وبذا تكون الحصيلة النسبية النهائية تأخرا لا تقدما.

وخشية أن يظن بعض الناس أن القوة التي تسببها الحضارة العلمية في شعب أو مجتمع ما هي الا قوة حربية فقط نود أن نوضح أن الصورة أكثر تعقيدا من ذلك. فكثير من شعوب العالم ومجتمعاته المتقدمة ليست ذات حول أو قوة حربية كبيرة رغم أنها حتما أقوى من مثيلاتها المتخلفة. ان التقدم يشمل بالاضافة للقوة المادية القوة الاقتصادية والاتزان المستقبلي والعزة والسبق الدولي والاحساس بأن الدولة ملاذ وموئل وذات امكانات لعيش الرفاه.

أين نحن من هذا الصراع الحضاري؟

ألمحنا الى أنه تتجلى في العالم اليوم معالم صراع حضاري لعله أعنف صراع تشهده أمم العالم وشعوبه، ومع أن الناس خبروا كثيرا من الصراعات الحضارية في الماضي، الا أن أيا منها لم يتخذ الابعاد التي تبدت في العصر الحديث.

ولعل أسوأ ما في هذا الصراع بالنسبة لنا في العالم العربي غموض فهمنا لحقيقته. وقد سبب هذا الغموض بلبلة فكرية تهدد امكاناتنا في اقتسام النصر والمشاركة فيه. وذلك أنه من البديهيات المسلم بها أن يكون المرء متفهما لحقيقة الصراع الذي يخوضه اذا كان يريد أن يكون له حظ من النصر. ومن مظاهر البلبلة الفكرية هذه التيارات المتعارضة والآراء المتضاربة التي تعنف في تضادها الى حد غير معقول... فهناك من يرفض الحضارة الحديثة، صراحة أو تلميحا، مطالبا بالانكفاء الى حضارتنا العربية التي ازدهرت، أكثر ما ازدهرت، مع انتشار الاسلام. وهم يريدون أن يكون تراثنا السلاح الذي نتسلح به في هذا الصراع الحضاري... وهناك من يعارض هذا الرأي تماما، ويذهب الى أن سبيلنا الى كسب شيء من هذا الصراع يكمن في أن نتمثل الحضارة الغربية ونأخذها سلاحا أساسيا في هذا الصراع.... ويرون أنه بدون ذلك لن يكتب لنا النصر أو أي نصر... وكالعادة هناك اخرون يختطون خطا وسطا... فينادون بنوع من الدمج بين حضارتنا الماضية وما نجم عنها من تراث والحضارة «الغربية» بحيث يخرج

من المزيج حضارة جديدة مشتركة السمات... وليس غريبا أن يختلف هؤلاء فيما بينهم... اذ نجد من يريد المزيج الناتج عربي السمات غربي المحتوى، بينما اخرون يريدونه غربي السمات عربي المحتوى، واخرون غيرهم يريدون المزيج أشد تتلاحما... واذا أنت سألت أيا منهم عن خطة واضحة لتنفيذ ما يريدون، اتضح لك أنهم لا يملكون خطة ولا تصورا لخطة بل لعلهم لا يدرون حقيقة ما يريدون.

والسر في كل ذلك يرجع الى عدم وضوح مفهوم الحضارة الحديثة ومقوماتها، واختلاط معالمها في أذهانهم بصورة الحضارة الغربية «الليبرالية»... وهي الحضارة التي عرفها العالم العربي وظن أنها الحضارة التي مكنت الغرب من السيطرة والقوة والرفاه والغنى.

وحتى لا يختلط الأمر علينا ونتكلم في مفاهيم تحمل معاني مختلفة عند الناس لا بد لنا من إيضاح الفرق في رأينا بين مفهومي الحضارة الغربية والحضارة العلمية الحديثة.

اننا نرى أن هناك حضارتين مختلفتين وان لم تكونا منفصلتين تماما: فهناك الحضارة الغربية (الليبرالية) التي بدأت تطلق جذورها بعد انتشار المسيحية وظهرت بوادرها في أعقاب القرون الوسطى وترعرعت وازدهرت في عصر النهضة واستمرت حية نامية الى اليوم، وهناك الحضارة العلمية الحديثة التي انبثقت من الحضارة الغربية سالفة الذكر ولكنها اختلفت عنها اختلافا بينا يراه المدقق بوضوح وجلاء... ولم يزد، في هذا الشأن، دور الحضارة الغربية عن دور الأم التي تلد ابنة لا تشبهها بالضرورة.

ذلك أن الحضارة الغربية (الليبرالية) لها جذور دينية وفلسفية واضحة، ولها بيئة محددة ومناخ فكري مميز، شأنها في ذلك شأن كل الحضارات التي سبقتها. وهي حضارة تتبع دورة حيوية معروفة تنشأ وتنمو وتزدهر ثم تأخذ بالاضمحلال أو التحول.

أما الحضارة العلمية الحديثة فانها تختلف جذريا عن أي من الحضارات التي سبقتها اختلافها عن الحضارة الغربية (الليبرالية) رغم أنها نشأت عنها ومن جوها ومناخها... ولعل أهم مظاهر اختلافها كونها عالمية غير مرتبطة ببيئة محددة أو بوطن أو بأمة. وكذلك كونها لا تتبع الدورة الحيوية في الحضارات السابقة... فهي حضارة الانسان شئنا أم أبينا منذ أن

نشأت والى أن يشاء الله. وهناك اختلاف اخر هو أنها لم تنشأ برفق وتنمو وتزدهر... بل لعلها في طبيعتها أقرب الى الثورة المتضاعفة منها الى الوليد النامي... وهي بذلك ليست حضارة تؤخذ أو تترك دون أن يؤثر ذلك في المجتمع الانساني، فمثلا عاشت شعوب كثيرة دون أن تتأثر أو تسمع بحضارة الصين القديمة أو الهند أو الانكا ولم يضرها ذلك كثيرا.

أما الحضارة العلمية الحديثة فلا مجال للهرب من تأثيرها ولو حاول مجتمع ما التقوقع واعتزال العالم... اذ أن موجات آثارها تتخطى الحدود وتدك الأبواب وتجتاح الحدود فاذا بالمتقوقع المعتزل يجد نفسه في مواجهتها ومواجهة آثارها ونتاجاتها... وقلما يكون مثل هذا الموقف في مصلحته، بل لعله يمثل تهديدا خطيرا لكيانه وبقائه.

وهناك كثيرون منا، حتى من الذين نعتبرهم مفكرين، لا يقدرون ضخامة الثورة العلمية التكنولوجية حق قدرها، ولا يتصورون أنه لا يوجد اليوم أي عامل له من الأثر ما يقارب أثر العلم في تغيير أسس حياتنا ومعالمها. فالعلم ونتاجه التكنولوجي يؤثران في تفكيرنا وأساليبه ويقرران اقتصادنا ويسيطران على صناعاتنا ويؤثران في صحتنا ورفاهنا ويغيران علاقاتنا بالدول الاخرى ويفرضان ظروف الحرب والسلم، لا بل ان كل من وما يتنفس يتأثر بهما ولا يمكن أن يبقى بعيدا عن التفاعل بهما... وفوق ذلك يمكننا القول أنه حتى الجماد يتأثر بهما ويغيران فيه بشكل أو بآخر... وكم من جبل أحالته التكنولوجيا بعد أن اكتشف العلم فيه معدنا الى سهل منبسط أو حفرة عميقة، وغير ذلك كثير.

قلنا أن كثيرين من مفكرينا لا يتفهمون كنه الثورة الصناعية العلمية ولا ضخامتها، بالرغم من تعدد دعواتهم للاهتمام بالعلم والأخذ بأسبابه، اذ كثيرا ما نسمع القادة والزعماء والمفكرين في خطبهم وكتاباتهم يدعون بحرارة للاتجاه نحو العلم والتمكن من التكنولوجيا... ولكن أغلب ذلك لا يعدو، في حقيقة الأمر، أن يكون كلاما يقال ليسمع وينسى... ولدينا شك كبير في أن هؤلاء، عندما يدعون للأخذ بالعلم، يعلمون تماما ما هو العلم وما هو السبيل للتمكن منه وبالتالي للتمكن من التكنولوجيا والاسهام في الحضارة العلمية...

ولقد ألمحنا الى أن العلم بطبيعته غريب عن طبيعة الفكر الانساني

المعتاد، بالرغم من وجود غريزة حب الاستطلاع في الانسان وهي احدى ركائز العلم والقوى الدافعة المحركة له.

ومن الواضح أنه لا يمكن أن يكون الانسان عالما بالفطرة ولا أن يصبح عالما بدون مران شاق وتدريب متصل، شريطة أن يكون ذلك في مناخ علمي يوفره المجتمع والدولة ويحرصان على تنميته. ومن المهم أن نتفهم أن قوتنا وحياتنا ورفاهنا معتمدة اعتمادا كبيرا على العلم والتكنولوجيا... كما أن من المهم أن نتفهم السر في أن الحضارة العلمية الحديثة لن تندثر أو تضمحل كما حدث للحضارات القديمة، فالعلم بحكم طبيعته ديناميكي مستمر، وهو أيضا تراكمي. وبسبب ذلك لن يتمكن الانسان من ايقاف ديناميكية العلم المستمرة، ولن تتمكن الكوارث من حرمان البشرية من النتاج العلمي الذي تراكم عبر العصور. كما أن العلم ونتاجه التكنولوجي أصبح جزءا أساسيا لا يتجزأ من حياة الانسان لا يمكنه الاستغناء عن أي منها. ولو فرضنا أن حربا عالمية نووية مدمرة حدثت فسينجو عدد كاف من العلماء والتكنولوجيين وستبقى حصيلة العلم الانسانية بحيث ستتمكن البشرية من اعادة ادارة العجلة والانطلاق بها، من النقطة التي توقفت عندها. ولايضاح ذلك نود أن نقول أن المجتمعات التي جاءت عقب اضمحلال حضارة قديمة كثيرا ما عانت من ردة حضارية فكان الناس وهم من نسل الذين صنعوا الحضارة غرباء عنها وجاهلين بها وغير قادرين على مجاراتها... وهكذا نجد ورثة حضارات ما بين النهرين ينحدرون الى عدم القدرة على الابقاء على أنظمة الري التي كانت موجودة مثلا ويرتد ورثة حضارة الانكا والمايا من الابنية الجميلة المشيدة بالحجر بشكل فني الى السكنى في أكواخ، ومثل هذا كثير. أما في الحضارة العلمية الحديثة فيصعب جدا أن تحصل ردة من هذا النوع لان الاساس في المنجزات التي تمت هو الفكرة العلمية التي توصل اليها العلماء وأسلوب العمل التكنولوجي وهذا كله مكتوب ومحفوظ في أنحاء عديدة من العالم... أما في الحضارات القديمة فالمنجزات كانت تعتمد على المهارة الفردية وهذه ان لم تعلم للاخرين كانت تضيع وتندثر.

والحضارة العلمية الحديثة كما أوضحنا تؤثر في حياة الانسان من جميع وجوهها تأثيرا كبيرا فتغيرها تغييرا واضحا ومستمرا ومتتابعا بالرغم

من المقاومة الشديدة للتغيير التي يبديها الانسان والمجتمعات الانسانية.

ويقول ماجنوس بايك في كتابه «قرن العلم»: «تختلف الفترة التاريخية التي نعيشها عن كل ما سبقها. فالعالم «أصغر» من ذي قبل وأكثر ازدحاما. وبوسع المرء أن يطير بملابسه التي يلبسها في بيته من أوربا الى غرب الولايات المتحدة عبر القطب الشمالي في ساعات قليلة. ونجد بجانب هذا من أمثلة التكنولوجية الحديثة دلائل على حدوث تغييرات موازية في نظام المجتمع... وتحدث هذه التغييرات لان الابتكارات العلمية التكنولوجية تغير أفكار الناس وآرائهم حول الحياة والمرض والموت وأساليب الحرب وانتاج الغذاء والثروة. وقد تمت معظم هذه التغيرات خلال الفترة ما بين سنة 1851 والوقت الحاضر».

ويقول دافيد تومسون في كتابه «أوروبا بعد نابليون»: «ما أن أطل منتصف القرن العشرين حتى بدا أن الحضارة الأوروبية قد تشربت الآراء والاساليب والنظرة العلمية وما يتصل بها من تطبيقات مادية لدرجة أن العلاقة بين العلم والحضارة قد تغيرت تغيرا كليا وحدث تحول واضح في الاهمية النسبية بينهما... فبدلا من أن يكون رجل العلم واحدا من عديدين يشاركون في النشاط الفكري في المجتمع، أصبح هذا العالم مسيطرا على مجال النشاط الخلاق في مجتمعه، (بل وتعداه الى مجتمعات أخرى)، كما أصبحت الحضارة، الى درجة كبيرة لم تعهد من قبل، عبدا للعلم والبحث العلمي والوسائل التي تسخر بها فوائد العلم التكنولوجية لخدمة الانسانية».

ونحب هنا أن نذكر أننا نختلف مع تومسون في مفهومه للحضارة الحديثة التي أسماها بالحضارة الأوروبية. فنحن نعتقد أن العلم لم يصبغ تلك الحضارة بصبغته فقط، بل أنه أنشأ حضارة علمية تختلف عن تلك الحضارة، كما أوضحنا، اختلافا بينا وأن تعايشت معها... والا فكيف نفسر الحضارة الحديثة في اليابان مثلا؟ وكيف نفسر خصائص هذه الحضارة العالمية؟

ويعتقد شايلد بأن التاريخ الحضاري الانساني مر بمنعطفين هامين: الأول عندما اخترع الانسان الكتابة، والثاني عندما أصبح العلم، كفلسفة تفكير، وأصبحت الآلات التي تسير بطاقة غير حيوانية، عناصر أساسية في الحضارة الانسانية.

فاذا كان الأمر كما صورنا يحق لنا أن نتساءل: «أين نحن من ذلك؟»

وللاجابة على هذا التساؤل أحب أن أقدم عرضا مبسطا جدا من وجهة تاريخية لعلاقتنا كشرقيين بالغرب حيث نشأت الحضارة العلمية وازدهرت.

فعندما اتصلت شعوب العالم القديم ببعضها بعضا وضح اختلاف توزع الثروات في أراضي كل منها، كما اتضح ما بينها من تباين في المستوى الثقافي والحضاري... ذلك أنه منذ أن تقسم العالم في أذهان الناس الى شرق وغرب وأهل «الغرب» يحسدون أهل «الشرق» على النعم المتعددة التي أفاءها الله عليهم على شكل ثروات نباتية وحيوانية وثروات معدنية ومناخية. وفوق ذلك أنشأ أهل الشرق حضارات متعددة متعاقبة في مقابل حضارتين اثنتين (اليونانية والرومانية) لأهل الغرب. وتوج كل ما سبق أن الشرق كان مهد الديانات السماوية كلها.

وكان من الطبيعي والحالة هذه، أن تنشأ نزاعات مستمرة في فترات متعاقبة بين الشرق والغرب هدفها الأساسي سيطرة أي من الاثنين على الاخر... وكان الاقتتال يتم بأسلحة متكافئة تقريبا... وكانت الغلبة في جانب الشرق مرات أكثر مما كانته في الجانب الآخر. ولعل للروح المعنوية العالية التي قاتل بها الشرق أثرا واضحا في تفوقه هذا... غير أن هناك أثرا، غير مدروس تاريخيا بدقة، لاستخدام الاساليب والعدد المطورة في التأثير على نتائج هذه الحروب... فصلاح الدين استخدم الخيل العربية السريعة (وقد أنتج نوعها السريع المعروف حاليا في حوالي ذلك الزمن) ضد الخيل التي كان يستخدمها الصليبيون والتي كانت بطيئة الحركة أصلا وفوق ذلك أثقلت بالدروع... وكان لسرعة حركة الفرسان العرب والمسلمين في المعركة أثر واضح في النصر الذي تحقق. كما أن استخدام نابليون للمدفع المحمول على عجلتين أعطاه ميزة الحركة وساعده كثيرا في تحقيق الانتصارات التي حققها. وهناك أمثلة عديدة أخرى.

واستمر النزاع والصراع واستمرت النتائج تتأرجح كما أسلفنا الى أن رجحت كفة الغرب فجأة وبشكل حاسم... وكان ذلك عقب الثورة الصناعية ونتيجة تطوير المخترعات التكنولوجية وتطويعها للاستعمال الحربي... وهكذا تغلب الغرب على الشرق وبدأت عهود الاستعمار المباشر ثم الاستعمار الاقتصادي، واتخذ الاستعمار خلال هذه العهود أشكالا مختلفة الى أن طلع علينا بوجه جديد هو الاستعمار العلمي.... ويختلف هذا الوجه الجديد

للاستعمار بشكل واضح عن الأنواع السابقة.... فمع أن الاستعمار بأشكاله السابقة المختلفة ظل مخيف يخيم على حياة من يقع تحت ظله الا أنه بطبيعته كان مؤقتا والى زوال... ونشهد اليوم تقلص ظله عن اخر معاقله... أما الاستعمار العلمي فلا مجال للثورة عليه ولا الى ازالته طالما كان المجتمع متخلفا علميا وحضاريا... اذ أنه في تلك الحالة، يكون دوما بحاجة اليه غير قادر على الاستغناء عنه... وكلما زادت الهوة بين المجتمعات المتقدمة والمتخلفة اتساعا زاد اعتماد الثانية على الاولى، وبذا يزداد تحكم الاولى بالثانية تحكما يشمل معظم مناحي الحياة.

وقد سبق الصراع والاقتتال بين الشرق والغرب وصاحبه اتصالات بين الشعوب وتبع ذلك تأثر الحضارات ببعضها وتفاعلها تفاعل الآخذ المعطي والمتأثر المؤثر. وهذا أمر طبيعي في كل الحضارات السابقة. غير أن ما كانت تأخذه حضارة من أخرى كان أمرا اختياريا بمعنى أن الآخذ كان يقرر ما يريد أخذه، وكان يترك ما لا يريد... فالحضارة العربية الاسلامية عند اتصالها بالحضارة اليونانية والرومانية أخذت عنهما العلم والفلسفة وتاثرت بهما ولكنها رفضت أخذ الشعر والأدب. والسبب واضح لان الادب والشعر اليوناني بصفة خاصة اعتمد أو بني على الدين اليوناني... ووجد العرب هذا الادب وذاك الشعر مليئا بذكر الآلهة وأساطيرها... ولما كان هذا متعارضا كلية مع عقيدتهم رفضوه ولم يلمحوا اليه لا من قريب ولا من بعيد. وقد يكون من الادلة ذات المغزى ان الالياذة لم تترجم الى العربية الا في القرن العشرين. وكذلك لم يأخذ العرب المسلمون من التشريع الروماني لانهم رأوا في تشريعهم الاسلامي القانون الافضل لتنظيم شئونهم الدنيوية.

وبعد كل هذه الاتصالات، العنيفة تارة والهادئة تارة أخرى، جاء عهد فقدت فيه الحضارة العربية الاسلامية زخمها وازدهارها... فراح العرب يغطون في سبات حضاري عميق استمر قرونا.

وفجأة دهمتهم صدمة أيقظتهم من هذا السبات... وبينما هم يغالبون السبات ويهمون بالصحو، كان الغرب قد سيطر عليهم وعلى مقدراتهم سيطرة كاملة.

ولا بد أنه كان واضحا للعرب أن سر قوة الغرب المفاجئة كان أمرا حضاريا... وكان أمرا جديدا لم يعهدوه من قبل، ذلك أنهم اكتشفوا بعد

ثورات ومحاولات عديدة أنه لا قبل لهم به. وكان لا بد من وجود بعض الزعماء الذين لاثارهم هذا الامر فحاولوا الانفتاح عليه والاقتباس منه. ولعل أول وأوضح هذه المحاولات محاولة محمد علي في مصر، ولكنها لم تكن المحاولة الوحيدة. ثم تتابعت المحاولات في أرجاء العالم العربي في تعاقب زمني معروف.

الا أن هذه المحاولات في غالبيتها الساحقة تركزت على اقتباس الحضارة الغربية (الليبرالية) وغفلت عن الحضارة العلمية التكنولوجية.. ولئن كان للمحاولات الاولى بعض العذر - لا كله - فانا لا نستطيع أن نفهم كيف استمرت الغفلة هذة مدة طويلة من الزمن.

وهكذا نرى زعماء الفكر العربي المتفتح وقد غرقوا في بحار الحضارة الغربية (الليبرالية) يترجمون تراثها ونتاجها الثقافي وبشكل خاص الادبي والفني منه... بل وارتد بعضهم الى أصولها اليونانية والرومانية... وكل هذا جميل لو أنه كان جهدا ثانويا أو لم يستنفد كل الطاقات الفعالة في ذلك الزمن. ولكن ما نأخذه على هؤلاء المفكرين في تلك الحقبة وعلى مفكرينا حتى يومنا هذا أنهم لم يميزوا بين الحضارة الغربية والحضارة العلمية، لا بل أنهم عموا عن الحضارة العلمية كلية... ووجهوا جهد الامة العربية سنوات طوالا توجيها خاطئا، وكانت الامة مطمئنة خلالها الى أنها سائرة على الدرب فاذا بها تكتشف أنها كانت تحث الخطى في درب آخر مختلف ولا يؤدي الى نفس الهدف المبتغى.

ان كثيرا من زعماء الفكر العربي حتى في هذا القرن... وحتى الى يومنا هذا ... مازالوا غير واضحي الرؤية فيما يتعلق بأبعاد سر قوة الغرب... وعلى هذا فليس من المتوقع أن يكون تخطيطهم سليما في محاولة الاخذ بيد هذه الامة لتتبوأ المكانة اللائقة بها.

وقد كانت وما زالت الستراتيجية التي تسعى اليها الامة العربية وهي التسلح بسلاح الغرب الذي مكنه من السيطرة على العالم هي استراتيجية سليمة وصحيحة ومجدية... غير أن تنفيذها كان خاطئا والاسلوب كان بعيدا عن أن يوصل للهدف.

ذلك أن سر قوة الامم الغربية المتقدمة لا يكمن في حضاراتها - الغربية الليبرالية... فهي حضارة ككل الحضارات التي سلفت (مع أنها كحضارة،

أفادت من العلم والتكنولوجيا)... بل أن سر هذه القوة يكمن، في الحقيقة، في حضارتها العلمية التكنولوجية... وكلما استمر تجاهلنا لهذه الحقيقة الصارخة أو جهلنا بها، ازداد هذا التخبط الذي نتخبطه وازداد شعورنا بالنقص واليأس وحاجتنا الى الاخرين المتقدمين علميا وتكنولوجيا نرجو عونهم أو نشتريه منهم. ومن الواضح أننا نكون بدون هذا العون العلمي والتكنولوجي ضعافا مكشوفي المقاتل.

واستمرت الخدعة تعمل فينا ونزيدها بخداع أنفسنا حتى بتنا نتوهم أننا لسنا بأقل قوة وحضارة من الغرب لمجرد أننا قلدناه في كل مظاهر حياته وأساليب معاشه وفنه وأدبه. ففوق الابنية والشوارع والحدائق والساحات أنشأنا الجامعات والمسارح وأغدقنا على الفنانين ومعارضهم والموسيقيين وانتاجهم وفتحنا عقولنا لنتاج أدبي تدفق كطوفان يحمل الغث مع السمين والزبد مع الماء، الى اخر ما هنالك من أوجه التقليد. وبعدها قلنا نحن مثلهم ولا فرق بيننا وبينهم... ولكننا في كل هذا كنا نقلد الحضارة الغربية (الليبرالية) دون الحضارة العلمية الحديثة.

وقد نجد بعض العذر للرود الاوائل الذين بدأوا الاتصال بالحضارة الغربية، كما أسلفنا، فنقلوا حضارته الليبرالية ولم يتنبهوا الى حضارته العلمية، ولكننا لا نكاد نجد عذرا لمن استمر في هذا الاتجاه منذ نصف قرن... أما الذين مازالوا حتى يومنا هذا يعمون عن الحضارة العلمية التكنولوجية ويستمرون في اختطاط نفس المنحى فلسنا ندري أي عذر يمكن أن يعتذروا به ولا نملك الا أن نقول «سامحهم الله».

ومن الامور المضحكة، وشر البلية ما يضحك، أن جهود زعماء الفكر العربي تلاقت مع جهود الاستعمار الذي كان يجثم على صدر الامة العربية... فقد سعى الاستعمار بجهد وجد كبيرين لاستمرار هذا المنحى وتشجيع هذا الاتجاه واستعمل في سبيل ذلك سبلا ووسائل شتى... منها تشجيع الشباب النابه على دراسة الثقافة الليبرالية وأصولها وأبعادها بكل قوة عن دراسة العلم والتكنولوجيا... فكانت فرص الترقي في الوظائف العامة وفرص الوصول الى مراكز القيادة والتأثير معقودة لمن يتخصص فيما يعرف بالانسانيات أو اللاتينية واليونانية ودراسة القانون وبقي دور من يتخصص في العلوم ثانويا أو مهملا وبخاصة من ناحية تحقيق الذات واعتراف

المجتمع به وبقدره. فهل يستغرب والحالة هذه أن يبتعد النابهون الطموحون عن دراسة العلم والتكنولوجيا؟

أليس غريبا الافتراض بأن الذي يصلح لمنصب الوزارة أو السلك الدبلوماسي أو الزعامة أو النيابة هو، في الغالبية الساحقة من الحالات، من غير العلماء والتكنولوجيين؟ والامثلة في هذا المجال كثيرة جدا.

كل هذا أدى الى تعميق الهوة بيننا وبين الحضارة العلمية وأبعدنا عن تيارها وصرنا ندور في حلقة مفرغة. فقد كانت ظواهر الاشياء تخدعنا وتبدي لنا أننا نسير في الطريق القويم ولكننا لا نلبث أن نواجه بواقع مرير أليم كان سببه تخلفنا الحضاري العلمي... ولكننا عن جهل أو تجاهل كنا دوما في مثل هذه المواقف نتهرب من مواجهة الحقيقة وتلجأ للتبرير فنختلق كبش فداء نحمله أسباب فشلنا أو هزيمتنا... وأسوأ ما في الامر أننا كنا باستمرار نصدق تبريراتنا... وبالطبع كان هذا سببا في أننا لم نعالج العلة وبقينا لا نخرج من فشل الا لنقع في كارثة.

ولعل خير سبيل لانارة الطريق أمامنا وتسليط الضوء على العلة الحقيقية هو في دراسة الامثولة الحية. وليس هناك من أمثولة حية أوضح من أمثولة اليابان... وأغرب ما يستغرب هو كيف عمينا عن هذه الامثولة الواضحة والعبر التي يمكن استخلاصها منهما.

لقد كانت اليابان تغط في سبات أعمق من سباتنا أثناء عهود التخلف والانحطاط، لا بل كانت فوق ذلك في عزلة تامة لا تكاد تدري عن العالم من حولها شيئا. وفي نفس الوقت الذي انفتحنا فيه على العالم الغربي اتصلت به اليابان أيضا... ولكن اليابان تمكنت بسرعة مذهلة من تبين الفرق بين الحضارة الغربية (الليبرالية) والحضارة العلمية التكنولوجية... كما تبينت بوضوح أن سر قوة الغرب تكمن في الحضارة العلمية التكنولوجية لا الليبرالية... ونتيجة لوضوح هذه الرؤية نجد أن الثقافة اليابانية لم تتأثر بشكل يذكر بالحضارة الغربية الليبرالية، بينما أخذت تعب من الحضارة العلمية التكنولوجية عبا وتتمثلها، كما يتمثل الجسم الطعام المهضوم الممتص، بل وتتبناها... فاذا بها اليوم تشارك الدول الغربية المتقدمة علميا وتكنولوجيا تبوأ القمة والصدراة، لا بل وتسبقها في ميادين عدة. أوليست هذه الامثولة واضحة لكل ذي عينين؟ أوليس السبيل الذي اختطته اليابان سبيلا يمكننا

أن نختطه دون عناء البحث المضني وتلمس السبل الاخرى واحدا بعد الاخر؟

لقد أوضحنا الفرق بين الحضارة الغربية (الليبرالية) والحضارة العلمية التكنولوجية وذكرنا بعضا من المميزات التي تميز الاخيرة عن الاولى وعن غيرها مما سبقها من حضارات... ونحب أن نؤكد هنا ميزة أخرى من ميزات الحضارة العلمية وهي أنها ليست متضادة مع أية حضارة أخرى، بل على العكس من ذلك يمكن للحضارة العلمية التعايش مع كل حضارة أخرى، فالاخذ بها لا يعني بالضرورة الغاء حضارة المجتمع الذي أخذ بها. فهي كحضارة عالمية لا تجب وجود حضارة ثانية بجانبها سواء أكانت هذه الاخيرة غربية أو عربية اسلامية أو يابانية الخ... ولكن التعايش بين الحضارة العلمية وأية حضارة أخرى، حتى يكون ناجحا وموصلا الى الهدف، يشترط أن لا تتدخل الحضارة القديمة، أيا كانت، في اسلوب فكر أو عمل أو انجازات الحضارة العلمية. فليس صحيحا أن تحاول أية حضارة قديمة صبغ الحضارة العلمية بصبغتها، كما لا يمكن للحضارة العلمية أن تعمل بأسلوب غير أسلوبها في التفكير والبحث والتطبيق. ومحاولة المزاوجة هذه عبث لا جدوى منه. وفرق كبير بين التعايش والمزاوجة.

وليس في هذا التعايش أية ازدواجية لو أن الحضارة القديمة توافقت وانسجمت مع الحضارة العلمية... ولعل دعوة «سنو C.P.Snow» في كتابه «ثقافتان» تؤكد ضرورة هذا التوافق والانسجام لمصلحة المجتمع نفسه.

ونعود، في هذا المجال الى امثولتنا الحية - اليابان - لندلل على امكان التعايش وديا بين الحضارة القديمة والحضارة العلمية فقد استطاعت اليابان تحقيق هذا التعايش والتوافق رغم الاختلاف الهائل بين حضارة اليابان القديمة والحضارة العلمية الحديثة.

وعلى ذلك نرى، كأمر عادي، العالم أو التكنولوجي الياباني يعيش نهاره منغمسا في العلم والبحث العلمي وأسلوب التفكير العلمي حتى اذا ما عاد في المساء الى بيته انقلب الى أساليب العيش في القرن الثامن عشر وسط جو ديني ومناخ حضاري ياباني بحت.

وليس في ذلك، كما يتوهم البعض، أي انقسام في شخصية العالم الياباني طالما استطاع منع تراثه الثقافي من التدخل في تفكيره العلمي،

وأعطى كلا حظه في وقت منفصل عن وقت الاخر.

وهنا لا بد من الاشارة الى موضوع هام يشغلنا كثيرا ويزيد في بلبلتنا الفكرية... فنحن بدلا من أن نعايش بين الحضارة العلمية ومعتقداتنا الدينية نحاول أن نطوع الواحدة للاخرى... فنجد الكثيرين من علمائنا ورجال الدين يحاولون اثبات الحقائق الدينية بالفرضيات والنظريات العلمية القائمة حاليا... ويذهبون في ذلك مذاهب شتى معتقدين أنهم بذلك يخدمون الدين ويعلون شأنه. وهنا في رأينا يكمن الخطأ الكبير. وهو خطأ منبعث من سوء فهم معنى العلم أصلا. ذلك أن الحقائق العلمية، كما يعرف كل مشتغل بالعلوم، حقائق نسبية قابلة للتحوير والتغيير والنقد - وهي في أساسها ليست حقائق بالمعنى الفلسفي بل تفسيرات لظواهر طبيعية أو غير طبيعية بحيث تنتظم هذه الظواهر تحت التفسير... وعلى ذلك تظل هذه «الحقائق العلمية» قابلة للاستخدام الى أن يظهر مزيد من هذه الظواهر تعجز عن تفسيره أو يشذ بعضها عن ذلك التفسير... وعندها تحور أو تعدل أو تنقض أساسا ويؤتى بغيرها.

أما الحقائق الدينية فهي، على العكس من ذلك، حقائق مطلقة تعتمد على الايمان ولا تقبل الجدل أو البحث والتجريب وما ينشأن عن ذلك من تعديل وتطوير وتغيير.

من هذا التناقض الكامل بين مفهوم الحقيقة الدينية والحقيقة العلمية ومن محاولة هؤلاء رغم ذلك تطويع الاولى للثانية ينبع الخطأ الذي يقعون فيه. ان محاولة اثبات حقائق الدين المطلقة بحقائق العلم النسبية المتغيرة خطأ فادح... والخطأ هنا ديني قبل أن يكون علميا. اذ كيف يحاول أي من هؤلاء اثبات ما يؤمنون بأنه من عند الله سبحانه وتعالى برأي فلان أو تجارب علان أو بنظرية قائمة؟ وهنا أيضا نحب أن نؤكد أن لا تعارض بين أن يؤمن الفرد دينيا بأمر وأن ينعكس ايمانه به على أخلاقه وسلوكه الاجتماعي والانساني وبين أن يفكر علميا في أمور أخرى وأن يبحث بأسلوب علمي ويطبق نتائج الابحاث تطبيقات تكنولوجية وطبية وزراعية وغير ذلك لخير الانسانية جمعاء... اذ أن المهم الا يدخل المرء الدين في العلم ولا أسلوبه الفكري... فأساس العلم التشكيك وأساس الدين الايمان... وقد سئل أينشتاين مرة كيف توصلت الى نظرية النسبية؟ فأجاب «بتحدي الواقع

الذي كان العلماء مجتمعين عليه» والمهم أن لا يدخل المرء العلم في الدين لان في ذلك اساءة بالغة للدين. وكل ما في الامر أن يسير الاثنان جنبا لجنب كل يعمل في مجاله وميدانه.

وهناك سوء فهم آخر شائع بالنسبة للحضارة العلمية التكنولوجية يتبدى في الفصل فصلا تاما بين العلم كأسلوب تفكير وطرق بحث من ناحية وبين التطبيق التكنولوجي لنتاج العلم والبحث العلمي. ونرى نماذج من هذا الفصل في المجتمعات النامية وبخاصة المجتمعات العربية.

وقد يكون مفيدا أن نعيد القول بأن العلم يعمل بأركان ثلاثة: أسلوب التفكير العلمي، وطرق البحث العلمي والتطبيق التكنولوجي أو العلمي. ويبدو واضحا أن الركنين الاول والثاني متلازمان ويجب أن يكونا كذلك، اذ أن أهم جزء في أسلوب التفكير العلمي هو البحث والتجريب العلمي. وليس عالما بالمعنى الصحيح من يفصل بينهما. ويعمل هذان الركنان على تطوير فهم الانسان لبيئته بأوسع معانيها ولطبيعة الظواهر التي تتجلى فيها والقوى المتفاعلة خلالها. ولابد لنا من القول بأن كل الثقافات، وبالتالي الحضارات القديمة, حاولت تفسير هذه البيئة وما فيها، الا أن كل واحدة منها اعتمدت تفسيرا يختلف عن تفسير غيرها بدرجات متفاوتة.

ولذا كان فهم الانسان للكون المحيط به عن طريق هذه الثقافات والحضارات المتعاقبة مختلفا ومتناقضا أحيانا. أما فهم الانسان للكون وما فيه عن طريق العلم فهو فهم موحد يتخطى الفواصل الجغرافية والعرقية واللغوية والدينية.

أما الركن الثالث فيعمل على أن يستخدم الانسان الفهم والمعرفة، اللذين حصل عليهما من الركنين الاولين، في صنع تطبيقات تكنولوجية لرفاه الانسان وفائدته المادية ولزيادة امكاناته في البحث عن المعرفة العلمية بشكل أفضل.

ويجب أن يكون واضحا أن الحضارة العلمية لا تقوم الا بأركانها الثلاثة متعاقبة ومتلازمة في كل منحى من مناحيها. من هذا المنطلق يكون الفصل بين هذه الاركان خطأ كبيرا... كما أن الاهتمام بأي منها بدرجة زائدة على حساب الاخرين خطأ كبير أيضا. وفي المجتمعات العربية اهمال كبير للركن الثالث - التطبيق التكنولوجي - يفوق اهمال الركنين الاولين. ولعل

ذلك راجع، فوق انعدام المناخ العلمي في المجتمع كله، الى استمرار عزوف الناس بعامة عن العمل اليدوي واعتبار من يعمل به أقل مستوى من وجهة اجتماعية، حتى ولو كان دخله منه أكبر بكثير من دخل ذوي «الياقات البيضاء» حسب ما اصطلح عليه.

وقد أدى هذا في مجتمعاتنا العربية الى أمرين هامين: الاول تعطيل اقتباس الحضارة العلمية نتيجة هذا الاهمال والثاني ملل الشباب الذين يعدون علميا من قلة جدوى ما يعملون بسبب هذا التعطل مما أدى الى تحولهم بسرعة عن ميدان تخصصهم الى ميادين أخرى, وبذا ضاع جهد واستثمار بشري هام على المجتمع.

ونحب أن نلقي بعض الضوء على زوايا مما ذهبنا اليه بايراد أمثولة حية أخرى من تاريخ الحضارة الحديثة:-

كانت بريطانيا أول دولة اهتمت بالعلم بأركانه الثلاثة. وكان ذلك في القرن الثامن عشر واتخذ مظهر الثورة الصناعية كما تسمى تاريخيا. وعلى ذلك يمكن أن نحدد بداية الحضارة العلمية الحديثة أساسا بهذا الاهتمام وبدء تلك الثورة.

وقد اتخذ اهتمام بريطانيا بالعلم مظهرين هامين:

الاول: هو الاهتمام الرسمي بالعلم وقد تمثل بصدور ارادة ملكية بانشاء الجمعية الملكية في لندن في القرن السابع عشر - وكان من بين أعضائها آنئذ نيوتن وآخرون من علماء ذلك الزمان. وواضح أن في تبني الدولة على أعلى المستويات انشاء الجمعية العلمية الملكية واعتبار عضويتها شرفا كبيرا دلالات واضحة على الاهتمام بالعلم في ذلك الوقت بينما لم تكن عندها أية دولة اخرى تفكر بمثل ذلك.

والثاني: أنه بسبب تعدد الحروب في أوروبا، في نفس تلك الفترة، هاجر عدد كبير من الصناع المهرة من أوروبا المضطربة الى بريطانيا المستقرة.. وفتح البريطانيون المجال لهؤلاء للعيش بأمان والعمل في مهمتهم وحرفهم بحرية. وهكذا انتشرت أصول هذه الصناعات والحرف وتكونت في المجتمع البريطاني قاعدة تكنولوجية استطاعت التجاوب مع الافكار العلمية التي كان العلماء يخرجون بها من أبحاثهم ومختبراتهم العلمية، وبذا اكتملت أركان الحضارة العلمية وبدأت بالنمو والازدهار.

ويسجل التاريخ الحديث أن بريطانيا، بأخذها بالحضارة العلمية بكل أركانها، وعدم مقاومة أثرها في المجتمع، رغم أن البريطانيين مشهورون بالمحافظة، سرعان ما أصبحت أكبر دولة صناعية في العالم خلال القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر، وجنت ثمار ذلك قوة وسيطرة وثروة، كما ارتفعت الى مستوى حضاري رفيع. وفي اعتقادنا أن انتصارات بريطانيا الحربية في تلك الفترة على قوى أوروبية أقوى منها عدة وأكثر عددا لم تكن انتصارات حربية فقط بل كانت انتصارات حضارية أيضا من وجهة نظر الحضارة العلمية الحديثة, بمعنى أن عنصر الحضارة العلمية الحديثة كان فعالا في هذه الانتصارات أكثر من أي عامل آخر.

ولعلنا، في ضوء هذا الاعتبار، نستطيع أن نفهم بعمق أكثر سر الموجة الاستعمارية التي انطلقت من أوروبا الآخذة بأسباب الحضارة العلمية الحديثة - وفي مقدمتها - بريطانيا - والتي كان من نتائجها أن استعمرت هذه الدول معظم أجزاء العالم المتخلف. وبنفس القياس يمكن الشك في أن تركيا العثمانية أو الرجل المريض كما كانوا يسمونها، كانت تشكو من قلة في الرجال أو السلاح أو المال أو الشجاعة قدر شكواها من التخلف الحضاري بمفهوم الحضارة العلمية الحديثة.

وكانت الدولة الثانية، بعد بريطانيا، التي تفهمت أبعاد الحضارة العلمية الحديثة... هي ألمانيا... فقد كان الالمان أكثر الاوربيين فهما لسر المعجزة التي تمت في بريطانيا، وأكثرهم اصرارا على الاخذ بأسبابها بجد وحسن تنفيذ. وبذا انسابت الديناميكية الحضارية الى ألمانيا. وكان اهتمام الدولة والمجتمع بالعلم والتكنولوجيا السبب الرئيسي في ذلك، كما ساعد عليه دقة الالماني في عمله وحبه لاتقان ما يعمل. ويظهر الاهتمام الذي أشرنا اليه في أن مديري المؤسسات الصناعية في ألمانيا في تلك الرحلة كانوا علماء (Herr Doktor).. فتحسنت مستويات الصناعة وصارت تدخل التطويرات والاختراعات والمكتشفات بسرعة الى أساليبها، وانعكس ذلك على الامة قوة وعزة وسؤددا. وقد ترك هؤلاء المديرون العلماء أسماؤهم محفورة في ميادين العلم والاختراع والصناعة، بما قدموه من اكتشافات علمية وتطويرات تكنولوجية. وهكذا نرى أسماء لامعة مثل رودلف ديزل وكارل جاوس وفيرنر سيمنس ويوستن فون ليبيج، وروبرت بنسن وكلها

اسماء مخلدة في الآلات والاجهزة والمبادىء العلمية.

واليوم نجد الاهتمام بالعلم والتكنولوجيا يصل حدودا لم يصلها من قبل في الولايات المتحدة وروسيا واليابان وفرنسا ودول العالم المتقدم. وقد قامت الولايات المتحدة، عن سبق عمد وتخطيط، باغراء العلماء النابهين من أية دولة كانت على الهجرة اليها والعمل فيها.. حتى أن هذه الهجرة أصبحت، لما بلغته من مدى، تمثل ظاهرة جديدة أطلق عليها اسم الاستنزاف العقلي. وقد خدمت هذه الهجرة الولايات المتحدة خدمات جلى كما أسهمت في تمكينها من تبوأ مركز مرموق في الحضارة العلمية الحديثة. وقد ترجم ذلك الى مركز مرموق من حيث القوة والسيطرة في ميادين عدة. وفي نفس الوقت لم تبخل الولايات المتحدة في الانفاق على الاعداد العلمي والبحث العلمي والتطبيقات التكنولوجية.

وكذلك اهتمت روسيا بالعلم اهتماما كبيرا وخططت لاكثار المعاهد العلمية وتحويل الطلبة النابهين لدراسة العلوم والتكنولوجيا.

الخلاصة:

من الواضح مما سبق اننا مازلنا بعيدين عن أن نعتبر أنفسنا من الآخذين بالحضارة العلمية، المسهمين في اعلاء صرحها. وواضح كل الوضوح أنه ما لم نتفهم حقيقة هذه الحضارة العلمية ونتقبل نتاجها وتأثيرها، أو بمعنى اخر، ما لم نتمثل هذه الحضارة تمثل فهم حقيقي ووعي عميق فسنظل في حالة تخلف بالنسبة لهذا العالم والصراع الحضاري المستعر أواره.

وتخلفنا - في هذا المضمار - حقيقة واضحة لكل ذي عينين، مهما حاولنا تغليفه بأسماء نبتدعها.

ونحب أن نوضح أن تخلفنا هذا ليس ناجما عن كون حضارتنا الماضية أو تراثنا أقل أو أكثر، أدنى أو أفضل من الحضارة الغربية (الليبرالية)... فذلك أمر غير وارد في حسبان التخلف أو التقدم في هذا العصر. ولعل مقارنة الحضارات الماضية ببعضها أمر تاريخي يهم بعض الباحثين في تاريخ الحضارة... ولكنه لا يعكس أي فضل على الناس في العصر الحاضر... واذا وعينا هذه الحقيقة وعيا صحيحا نبدأ السير على الطريق القويم، ولا يعود جهدنا منصرفا الى اظهار ميزات حضارتنا الماضية وحسناتها مقارنة

بهذه الحضارة أو تلك. كما لا يصبح همنا التغني بتراثنا وأمجاد الافذاذ من أجدادنا ومفاخر ماضينا.

ان ذلك كله أشبه ما يكون بالمعارك الدون كيشوتية التي لا طائل تحتها ولا جدوى منها.. فالصراع الحضاري اليوم، والى أن يشاء الله، عبارة عن سباق علمي.. ولقد كان رد الفعل الامريكي على السبق الروسي في اطلاق قمر صناعي الى مدار حول الارض نموذجا يحتذى في هذا المجال... ولو أن رد فعل الولايات المتحدة على «سبوتنك» كان التغني بما قدمه أديسون وجراهام بل وغيرهما لبقيت الولايات المتحدة متخلفة عن الاتحاد السوفيتي تخلفا يتزايد باستمرار.

وفي عام 1963 عقدت هيئة الامم المتحدة مؤتمرا كبيرا في جنيف موضوعه العلم والتكنولوجيا في خدمة الدول المتخلفة. وقد جرت مناقشات مفيدة جدا في هذا المؤتمر. ولكننا نعتقد أن السبيل الى طرح التخلف والوصول الى مرحلة التقدم لا يكون بتسخير العلم والتكنولوجيا لمنفعة الدول المتخلفة فقط. بل يجب أن تنبع رغبة التقدم من داخل المجتمع المتخلف وأن تتضح الرؤية في تبني العلم والتكنولوجيا أسلوب تفكير وحياة، وليس مجرد استخدام لهما. وبسبب غموض هذا المفهوم عند بعض الوفود التي شاركت في المؤتمر عادت الى بلادها دون أن تستفيد كثيرا.

وكان مما توصل العلماء اليه في هذا المؤتمر اعتبار الدولة متخلفة اذا كان عدد العلماء فيها أقل من أربعين في كل ألف نسمة من السكان. ومع أن هذه النسبة تعتبر متدنية اليوم، الا أن أفضل الدول العربية حالا لا تصل فيها النسبة الى أقل من ذلك بكثير. ان نظرة متفحصة الى ذلك تعطينا مؤشرات واضحة لمدى تخلفنا في ميدان الحضارة العلمية.

وننتقل أخيرا الى نقطة هامة لا يكاد يعطيها أحد الاهمية التي تستحق... وهي مسألة المناخ العلمي في المجتمع... اذ بدون مناخ علمي يغمر المجتمع ويتخلله لا يمكن لعالم أن يبدع أو يصل الى المستوى العالمي... والمناخ العلمي.. أمر بحاجة الى جهد يبذل باستمرار في مجالات متعددة في المجتمع وعلى مستويات مختلفة. وعلى ذلك فليس غريبا أن فشلت محاولات في العالم العربي لاجتذاب الادمغة العلمية في بلدة خاصة والطلب منهم أن يبدعوا علميا... أن مثل هذا لا يمكن أن يكون مناخا علميا وقد يكون معتقلا

علميا... ومنها محاولة اغرائهم برواتب أعلى مما يحصلون عليه في المهجر. وهذا أيضا جهد ساذج يعكس عدم فهم لمتطلبات العالم والمناخ العلمي الذي يجب أن يعيش فيه. فالمناخ العلمي في المجتمع يحتم وجود انسجام وتوافق وتبادل ايجابي بين العالم ومجتمعه. وهذا لن يتأتى اذا شعر العالم أنه غريب، فكريا على الاقل، وسط مجتمعه. وحتى يكون هناك مناخ علمي في مجتمعاتنا يتحتم أن تكون للعلم مكانته المرموقة في نفوس الناس، ويجب أن يحس كل فرد في المجتمع، وعلى جميع درجات المسئولية، بأهمية العلم وخطره، وأن يكون هناك استعداد نفسي وفعلي لتقبل نتاج البحث العلمي وتأثيراته في حياة الناس من جميع وجوهها.

وكيف نطلب أن يبدع علماؤنا وهم يرون في كل يوم ويسمعون كيف يمثل بأسلوب التفكير العلمي تمثيلا بشعا في كل ما يصدر عنا من قول وفكر وكتابة؟ لا بل وسياسة أيضا.

ويجب أن لا يخدعنا اهتمام العالم بنا بسبب ما نملك من مصادر الثروات الطبيعية... فذلك ليس اهتمام النظير بنظير، بل اهتمام المستغل بمصدر ربحه وفائدته... ولعله أقرب الى اهتمام الجزار بالمشاة.

ان الامر أخطر مما يتصور الكثيرون... وهذه المشكلة تتفاقم بسرعة الى درجة أنها تكاد تصل الى حجم التحدي لوجودنا ووجود كل الدول المتخلفة.

العلم في العالم الغربي:

قد يكون من المفيد، بعد أن عرضنا لموقعنا من العلم والحضارة العلمية، أن نستعرض الوضع في العالم الغربي محاولين استخلاص ما يمكننا من عبر ودروس تفيدنا في جهودنا الرامية للحاق بالركب والاسهام في الحضارة العلمية الحديثة.

بالوسع أن نقول أنه كان هناك علماء منذ أن كان الانسان بمعنى أنه كان دوما هناك أفراد، وان كانوا قلة، يتحدون المالوف وما يتعارف عليه الناس. وهذه الظاهرة تنبع من غريزة حب الاستطلاع الموجودة في الانسان والتي يكبتها الكثيرون جريا وراء السهولة والتطابق مع المالوف وكرها في التغيير. كما تنبع من رغبة أكيدة في أن يسيطر الانسان على بيئته وأن يسخرها

كسيد قادر على ذلك.

ولعل اكتشاف الانسان للنار واستخدامها، وكذلك اكتشافه للنحاس واستخلاصه واكتشاف العجل الدائري وكثير من مثل ذلك لم يكن ليتم لولا وجود مثل هؤلاء الافراد الموهوبين الذين تحدوا المالوف وسمحوا لعقولهم بالانطلاق وراء الجديد - وهؤلاء يمكن اعتبارهم علماء بفضل هذه الميزات، وأن كانوا يختلفون عن مفهوم العالم في استعدادهم وامكاناتهم.

وقد برز في التاريخ كثير من العلماء الذين أدوا بعلمهم خدمات واضحة للمجتمع وأضافوا لبنات الى صرح العلم المتنامي والمتزايج باستمرار، الى جوار اخرين أكثر عددا لم يحفظ التاريخ لهم ذكرا. ومن بين الذين يذكرهم التاريخ أرخميدس الذي عمل، بالاضافة لعلمه، مستشارا لحاكم سرقسة Syracuse وروي عنه غير حكاية التاج الذهبي المعروفة أنه استسخدم عدسات جمع بوساطتها طاقة حرارة الشمس وسلطها على أشرعة اسطول الاعداء الذي كان يحاصر الميناء فأحرقها وأنقذ بلده. ومنهم هيرو في الاسكندرية والرازي وابن سينا والخيام وليوناردو دافينشي وكثيرون غيرهم. وكلهم عملوا بالاضافة لاهتمامهم بالعلم كمستشارين للحكام وقاموا بخدمات اجتماعية أو حربية جليلة.

غير ان مركز العالم تدهور عندما أصبحت الكنيسة قوية ومتسلطة على مقادير الامور وصارت تنظر الى نتاج ابحاث العلماء نظرة الشك والريبة وترى فيها هرطقة وكفرا. ولعل محاكمة جاليليو بتهمة الهرطقة لابحاثه الفلكية التي أثبت فيها نظريات كوبر نيكوس في أن الارض ليست مركز الكون وأنها مجرد كوكب يدور حول الشمس، تمثل وجها من أوجه هذا الصراع.

على أن هجوم الكنيسة على العلم والعلماء لم يكن المعركة الوحيدة التي خاضها هؤلاء في مسيرة تطور العلم... فقد كانت هناك أيضا مسألة انفصال العلم من الفلسفة التي كانت تحتويه.

وواضح أن احتواء الفلسفة للعلم كان يؤثر عليه كثيرا نظرا لاختلاف أسلوب التفكير في الاثنين اختلافا كبيرا. ومع أن الفيلسوف ديكارت قام بأبحاث وتجارب جيدة في البصريات الا أن نظرته الفلسفية ما كانت لتسمح له بالتطوير العلمي الممكن من شخص ذي عقلية فذة كعقليته. ومثل

ذلك حدث لكثير من علماء العرب والاسلام الذين كانوا فلاسفة قبل أن يكونوا علماء.

والحقيقة أن كلمة «عالم» Scientist لم تدخل اللغات الغربية حتى عام 1830م وكان يطلق على «العلماء» قبلها اسم «الفلاسفة الطبيعيين». وكانت غالبيتهم كذلك فكانوا وبخاصة في انجلترا يستخدمون علمهم ونتاج تجاربهم في اثبات أمور دينية أو الجدل في مواضيع فلسفية. وكان هؤلاء يتطلعون الى الطبيعة والفلسفة والدين معا للتوصل الى استنتاجاتهم العلمية.

والمعركة الاخرى التي خاضها العلم والعلماء في القرون الوسطى كانت معركتهم مع السحر والتنجيم. فقد أشرنا الى أن الانسان كان ومازال يبغي السيطرة على بيئته بكل مقوماتها.. وكان من الطبيعي أن يتصور الانسان قديما وجود قوى خفية وراء كل مظهر من مظاهر الطبيعة.. وقد عبد في البداية هذه القوى التي كان يخشاها لجهله بها ثم حاول السيطرة عليها بالسحر والتنجيم. وتصور أنه بهذه الوسائل يمكنه التحكم في بيئته واخضاعها لسلطانه. وقد بلغ اهتمام الانسان الغربي بالسحر والتنجيم أوجه في القرن الخامس عشر وتوج ذلك في عام 1463 عندما ترجم مارسيليو فيشينو كتب السحر اليونانية والمصرية وقدمها لأحد أفراد أسرة ميديشي الحاكمة في فلورنسا. وكان من الطبيعي، والعلم يحبو في ذلك الزمن، أن يطغى السحر والتنجيم وينتشر انتشارا واسعا... وهكذا نجد في مطلع القرن السابع عشر السحر المتمثل بأشخاص مثل باراسيلوس وديلابورتا وبرونو، وفلود يقف منافسا لعلم كبلر وبيكون وجاليليو... وبقيت المعركة محتدمة بين السحر والعلم حتى أواخر القرن السابع عشر عندما بدا واضحا للعيان أن العلم التجريبي والعلم المبني على الرياضيات ينتج نتاجا وينجح في ميدانه بينما السحر والتنجيم لا ينتج شيئا سوى الفشل الذريع.. وهكذا بدأت هزيمة قوى السحر والتنجيم وانتصار العلم والعلماء... ومع أننا رأينا ونرى بروز اهتمامات بعض الناس بالسحر والتنجيم الا أن ذلك ظل وسيظل نشاطات فردية وحركات محدودة لا تلبث الا كما يلبث الزبد الذي يذهب جفاء.

وكان العلم قبل عام 1600 في معظمه عمليا يهدف لمنافع محددة وبذا كان علما مجتزأ تنقصه النظرة الشاملة التي ميزت العلم فيما بعد.. فعلم

النبات كان يدرس من أجل تحضير العقاقير من النبات وعلم الحيوان لم يكن ليهتم به الا من زاوية منفعته في الطب وهكذا . وواضح أن العلم الحديث كما نعرفه بدأ بالانفصال عن المناحي العملية والاتجاه لان يكون رياضيا في اسسه وبنيانه. على أن أهم خطوة خطاها العلم نحو تصحيح مفهومه لكي يصبح كما نعرفه اليوم هي ما أعلنه بيكون من أن العالم يجب أن لا يجمع كل ما يراه كما تفعل النملة، ولا أن ينسج من ذاته وفكرة كما تنسج العنكبوت بينها، بل يجب أن يكون كالنحلة يجمع الرحيق وبحوله الى شهد .

ويمكن القول بأن العلم بشكل عام بقي حتى القرن السابع عشر مسألة رأي لا مسألة حقيقة. وحتى محاولات بيكون وديكارت لاضفاء شيء من اليقين على ما كان يبحثه العلماء لم تكن ناجحة. وبالعكس من ذلك، كانت الرياضيات على درجة كبيرة من الدقة واليقين. ولذا كان من الطبيعي أن يحاول العلماء تطويع العلوم للرياضيات... وهكذا حاول ديكارت، وهو رياضي كبير ذو أفكار واضحة ومحددة، اضفاء يقين الرياضيات على الفيزياء وكان جاليليو، قبل ذلك بقليل، قد سار على خطى ارخميدس في تناول الفيزياء كرياضيات تطبيقية. ومما يؤثر عن جاليليو قوله أن الرياضيات هي لغة الطبيعة، وأن مهمة العلماء هي ايجاد قوانين رياضية بسيطة تفسر الظواهر. وجاء بعد جاليليو نيوتن الذي استمر في هذا الاتجاه... لا بل أن تابعيه في القرن الثامن عشر والتاسع عشر كانوا يرون أن اكتشاف القوانين الرياضية التي تربط بين الظواهر الطبيعية وتفسرها وتجعل من الممكن التنبؤ بغيرها هو لب العلم وأساسه.

وحتى في هذه الفترة وبعد أن انتصر العلم في معاركه جميعها لم يصادف القبول والرضاء المنتظر، بل على العكس من ذلك كثيرا ما جابه العلماء السخرية والاستهزاء. ويروى أن الملك شارل الثاني ضحك كثيرا على مساعدي «بويل» لمحاولتهم وزن الهواء - رغم أن تجاربهم أدت الى القدور الكاتمة والآلة البخارية فيما بعد. كما صدر في ذلك الوقت كتاب «رحلة جاليفر الى لابوتا» وهو عبارة عن سخرية واستهزاء بأعمال الجمعية الملكية. ومثل ذلك كثير، كما نجد نقدا لكثير مما كان يمثله العلم في كتابات «كانت وجوته وشيلنج وكولريدج ويكتس» .

وكان العلم في الغالب حتى انتهاء القرن الثامن عشر نشاطا يقوم به المهتمون به كهواية الى جانب عملهم أو أعمالهم الرسمية الاخرى. فالكثيرون من علماء تلك الفترة كانوا أطباء أو نبلاء أغنياء، أو قساوسة الى آخر ما هنالك... وفي بداية القرن التاسع عشر أصبح العلم مهنة يتخصص بها ويمتهنها العلماء. وبدأت الجامعات تخصص مراكز أكثر وأكثر لتدريس فروع العلوم. وكان هذا الاتجاه قد بدأ في فرنسا ومن ثم انتشر الى ألمانيا وبريطانيا. وأخذ العلماء ينقسمون الى علماء نبات وعلماء حيوان وكيماويين وفيزيائيين وفلكيين. كما انقسمت الجمعيات العلمية الى جمعيات منفصلة لكل فرع من فروع العلوم.

وفي عام 1831 أنشىء الاتحاد البريطاني لتقدم العلوم (وكان الاتحاد الالماني لتقدم العلوم قد أنشىء قبل ذلك ببضع سنوات). وكان هذا الاتحاد يجتمع كل سنة، ومازال كذلك، في بلدة غير التي اجتمع فيها السنة السابقة. وقد ساعد ذلك على نشر الوعي العلمي والاسلوب العلمي في التفكير في جميع انحاء بريطانيا. كما زاد اهتمام الناس بعامة وخاصتهم بخاصة بالمكتشفات العلمية.

وتدريجيا أدخلت دراسة العلوم الى برامج مدارس التعليم العام بعد أن كانت قد دخلت الى برامج الجامعات. على أن ألمانيا والولايات المتحدة كانتا أسبق من بريطانيا في ذلك.

وحوالي هذا الوقت ولد علم طبقات الارض أو الجيولوجيا وكان قبلها مجرد معلومات متفرقة عن خامات المعادن ومصادرها.

وفي عام 1859 نشر داروين كتابه «أصل الانواع» وكان هذا أحد معالم مسيرة العلم. ولكنه، كما يقول دافيد نايت، من الخطأ أن نفترض أن بعض معالم مسيرة العلم ونتائجها، مثل نظرية داروين وغيرها، كان لها أثر وأهمية أكبر من نشر الوعي العلمي وتدريب الناس على الاسلوب العلمي في التفكير وخلق اتجاه عقلي علمي عندهم.

ولعل أهمية انتشار الوعي والاسلوب العلمي، غير الفائدة المباشرة في التقدم العلمي، تكمن في استعمال هذا الاسلوب في مجالات ونشاطات انسانية أخرى كالسياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها، مما سبب فتح آفاق جديدة في هذه المجالات، وغير كثيرا من مفاهيمها.

وكنا قد أشرنا الى معركة العلم مع الفلسفة والى أنها انتهت بانفصال العلم عن الفلسفة انفصالا تاما. ويقول دافيد نايت أن المعركة انتهت بانتصار العلم ممثلا بالاسلوب العلمي في التفكير وانهزام الفلسفة هزيمة ساحقة. ويستشهد بكتاب ج.هـ. لويس «تاريخ حياة الفلسفة» الذي نشره سنة 1840 والذي يعتبر مرثاة للفلسفة. كما يشير الى ما يعتقده الفيلسوف الفرنسي أوغوست كونت من أن الانسان مر بثلاث مراحل فكرية رئيسية: أولاها الفكر الديني وبعدها مر بالفكر الميتافيزيقي وأخيرا بالمرحلة الايجابية للمعرفة - وهي مرحلة العلم. ويلاحظ أن المسائل الفلسفية لم تكن في القرن التاسع عشر أقرب الى الحل مما كانته في زمن أفلاطون. ويرى أن العلم قد أخذ دور الفلسفة بأسلوبه في التفكير والوصول الى الحقائق.

الآلة والانسان في العالم الغربي:

الآلة امتداد لقدرات الانسان وامكاناته... فهي أما امتداد لحاسة من حواسه أو لعمل عضو أو أعضاء منه. وهي أولا تزيد من قدرة الانسان على أداء عمل ما وتسهل له القيام به، ثم انها ثانيا من صنع الانسان نفسه يبتدعها بعقله وفكره ويصنعها بيديه... وعقل الانسان وقدرته على العمل الدقيق بأصابع يديه من ميزاته التي تميزه عن الحيوان كافة. وعلى ذلك فان الآلة أو بالاحرى صنع الآلة من المميزات التي لا توجد الا عند الانسان.

ونتيجة ذلك كان من الطبيعي أن يعتز الانسان بالآلة، باعتبارها امتدادا لذاته ومدعمة لميزاته وقدراته. ولم يكن اعتزاز صانع الآلة بها بأقل من اعتزاز النحات بتمثاله والرسام بلوحته والاديب بنتاجه والموسيقي بمقطوعته.. غير أن الآلة تميزت عن نتاج الاديب والفنان بأن أثرها على الناس بعامة كان أشد وأشمل وأعمق. لا بل امتد أثرها الى حياتهم وبنيتهم الاجتماعية واقتصادهم فغير فيها تغييرات شاملة.

ولما كان الناس يخشون التغيير ويقاومونه انعكس هذا على بعض الآلات المخترعة فكرهها الناس وقاوموها بشدة واصرار... غير أن ميزة العلم والتكنولوجيا، في أنهما لا يمكن أن يعودا القهقرى ولا يمكن أن يتوقفا، كانت السبب دوما في التغلب على هذه المقاومة، بحيث أنها لم تكن تؤدي الا الى بعض التأخير في تعميم استعمال الآلة موضوع الشكوى والمقاومة.

وقد زادت الشكوى والمقاومة بعد أن عمت الثورة الصناعية أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر. ويقول جون بار بأن اثورة الصناعية أدخلت في حياة الناس آلات كثيرة بسرعة هائلة. وكان لذلك أثر عميق في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع لدرجة أن المقاومة الانسانية الطبيعية للتغيير استثيرت، وهكذا انطلقت صيحات المثقفين والعمال بشكل متزايد تحمل على الآلة وتهاجمها. ففي عام 1795 كتب الشاعر والمسرحي الالماني فريدريش فون شيلر عن الآلة بأنها «بصوتها الرتيب وعجلاتها الدائرة باستمرار انما هي وسيلة لانحطاط الثقافة«، وكان يعتبر ان الانسانية في خطر أن تفقد استقلالها وتصبح عبدا للآلة التي وان كانت مبتكرة الا أنها منحطة وغير مشذبة. وفي عام 1829 هاجم توماس كارليل الكاتب والمؤرخ الاسكتلندي الآلة بشدة وحذر من أنها تكاد تصبح رمز السيطرة في تلك الفترة. وكان أول من أشار الى ان الآلة تطرد العمال من أعمالهم وتقضي على فرص العيش عندهم.

وبعد ذلك انضم الى مهاجمي الآلة كارل ماركس الذي أشار الى أن الانسان أصبح غريبا في المجتمع الصناعي، وأن العامل انحط قدره نتيجة استعماله الآلة. وكان ماركس يشعر بأن الآلة تتطور الى أن تصبح عدوا للانسان ومصدر نقمة له بدلا من أن تكون مصدر نعمة له. وكانت حجته أنه رغم حياد الآلة الا أنها تحول العامل الى مجرد سلعة تباع وتشترى في سوق العمالة وتجعل عمله ميكانيكيا رتيبا عديم المعنى والاهمية.

وفي أواخر القرن الثامن عشر، ويعنف حاد ما بين عامي 1811 و 1817، ظهرت، في بريطانيا بشكل خاص، حركة اللوديين The Luddites التي حاولت اثارة العمال ودفعهم الى تحطيم المخترعات الحديثة والآلات المبتكرة ومنع ادخال التكنولوجيا المستجدة الى الصناعات القائمة، وكذلك الاعتداء على المخترعين والعلماء أنفسهم. واستمرت هذه الحركة نشطة، رغم العقوبات الصارمة التي فرضتها الحكومة عليهم، حتى جاء عام 1840 عندما تقبل أنصار هذه الحركة الآلة وحولوا جهدهم الى محاولة تحسين أحوال العمال من حيث تقليل ساعات العمل وزيادة الاجور مرة أخرى، بالرغم من استمرار ارتفاع بعض الاصوات المتفرقة بين الفينة والفينة منددة بالآلة والتكنولوجيا كما فعل ساميول بتلر وجون مارتين وآخرون.

والحقيقة التاريخية التي لا مراء فيها أن بؤسا شديدا صاحب الثورة الصناعية في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية وكان ذلك نتيجة ازدحام العمال وتزايد أعدادهم مع عائلاتهم واضطرارهم للسكنى في بيوت غير صحية لا تصلح لسكنى الانسان لعدم احتوائها على مرافق مناسبة، ونتيجة للمضاعفات التي نجمت عن ذلك في الميادين النفسية والاقتصادية والاجتماعية ولاستغلال أرباب العمل للعمال وتحكمهم في أرزاقهم وحياتهم.

ويرى كثيرون أن ازدياد أعداد الآلات المتاحة لخدمة الانسان وتعدد أنواعها، وأن أدت الى زيادة دخله وثرائه المادي الا أنها لم تعطه بالضرورة ما كان يأمل من رضاء وقناعة نفسية.

وزاد الطين بلة، أن آلات الحرب والدمار - وهي آلات تكنولوجية - تسببت في تدمير المدن والمجتمعات وموت الملايين من بني الانسان فوق ما سببته من أسى ويأس وخسارة لا يمكن وصفها وتقويم مداها.

وبعد انتهاء الحرب العالمية والحروب المحدودة التي تفرعت عنها ورغم تحول التكنولوجيا الى جعل الآلات مسخرة لخدمة الانسان واصلاح ما أفسدته الحرب بدأت اعداد متزايدة من المفكرين والكتاب بمهاجمة الآلة من جديد.

فالسيارة مثلا التي تطورت بفعل التكنولوجيا الى أن تصبح في جميع أنحاء الارض المعمورة سلعة ضرورية لا كمالية، وأعطت الانسان حرية حركة خاصة لم يكن يتمتع بها من قبل، وجدت الكثيرين ممن ينحون عليها باللائمة لكثرة حوادث الطرق ويشيرون الى أن عدد الوفيات بسبب حوادث السيارات في العالم يبلغ 150ر000 وفاة سنويا وأن هذا العدد اكبر من وفيات أي مرض أو وباء يصيب الناس.

ولم تنج الطائرات من مثل هذا الهجوم أو التهجم وحتى التلفزيون والاذاعة برغم الخدمة الهائلة التي قدماها ويقدمانها للانسانية لم ينجوا من مثل هذا النقد المرير بسبب بعض البرامج التي تقدم ونوعيتها وأثرها على الناشئة من زوايا سلوكية واجتماعية ونفسية، وصار كثيرون ينعتون التلفزيون بانه صندوق الغباء أو صندوق الاغبياء الى آخر ما هنالك من تهجمات.

ثم جاء عصر العقول الحاسبة الالكترونية - التي تمثل امتدادا للعقل

الانساني. وعملت هذه العقول الحاسبة الالكترونية ثورة في جميع مناحي الحياة الانسانية وصارت آلات وأجهزة لا يمكن الاستغناء عنها. ومع ذلك وجدت من يهاجمها هجوما مريرا لأنها تهدد بغزو حرية الانسان الخاصة وتجعل أسراره التي يجهد لاخفائها في متناول من يريد من العاملين بهذه الاجهزة... وحتى لو تمكنت هذه الاجهزة من كشف أسرار المجرمين ومنع جرائمهم فان هؤلاء يهاجمونها باعتبار أن اسرار الناس حرمات يجب أن تحفظ وأن معرفة كل شيء عن أي فرد أمر غير جائز خلقيا.

وتبع العقول الحاسبة الالكترونية - ولعله كان نتيجة لها - تسيير المصانع وتشغيلها بالاجهزة الالكترونية الذاتية... وهنا أيضا عادت مخاوف العمال من البطالة على اعتبار أن أجهزة التشغيل الذاتية ستحل محلهم وتطردهم من أعمالهم... وهذه هي نفس المخاوف التي نشأت عند العمال في القرن الثامن عشر والتاسع عشر عندما بدأت الآلة تحل محل العمل اليدوي في الحرب الصناعية المختلفة.

وزاد في تضخيم تخوف العمال بخاصة اتجاه الصناعات الى الكبر الى أحجام هائلة... وهذا أمر اقتضته المصلحة الاقتصادية حيث أن المصانع الكبيرة ذات الانتاج الضخم تتميز عن الصغيرة بتدني كلفة الانتاج فيها، وبذلك تستطيع أن تسوّق منتجاتها بسعر لا يمكن لانتاج المصانع الصغيرة منافسته. ونتيجة هذا التضخم في الآلات والمصانع تولد عند البعض خوف حقيقي من الآلات الضخمة بشكل خاص... وزاد الشعور بأن العصر الذي تصبح فيه الآلة سيدة للانسان قريب، واستعاد الكثيرون قول ساميول بتلر في أن الانسان سيصبح بالنسبة للآلة في نفس وضع الحصان والكلب بالنسبة للانسان الان.

ومع أن الهجوم والتهجم بدأ على الآلة نفسها الا أنه سرعان ما تخطاها الى التكنولوجيا ومنها الى العلم والحضارة العلمية... وصرت ترى في المجتمعات الغربية أعدادا متزايدة من الناس ترفض الحضارة العلمية وتدعوا من خلال رفضها الى العودة الى الطبيعة والماضي البعيد. وبدأت موجة الرفض هذه بالموجة الهيبية وتبعتها موجات متعددة منها ما أحيا ديانات شرقية قديمة ومنها ما جدد طقوسا أقرب الى السحر وخزعبلاته وهكذا. غير أن ما يهمنا هنا هو أن عددا من المفكرين أخذ ينحو هذا المنحى ويصب

جام غضبه ونقده على الحضارة العلمية الحديثة...

وقفة تأمل وتفكر:

إن الوضع الذي وصفنا باختصار في الفقرات السابقة يستدعي وقفة تأمل وتفكر لا لخشية من انتشار هذه الموجات الرافضة وإمكان تأثيرها في مسيرة العلم والحضارة العلمية، بل لمناقشتها في ضوء المنطق الذي تعتمد عليه ولايضاح حقيقة الامر. وهناك عدة ركائز أساسية في مناقشتنا نرجو أن نجملها بوضوح فيما يلي:

الركيزة الأولى: هي أن الآلة، كما أوضحنا، امتداد لذات الانسان وقواه وقدراته وهي تمثل نتاج فكره ومن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ. والآلة بهذا المفهوم محايدة من حيث الخير والشر. فالخير والشر ليسا في الآلة نفسها ولكنهما في استعمالها... وهذا راجع للانسان... ومن هنا نعود الى الاصل فنقول ان الخير أو الشر هما صفتان انسانيتان بالدرجة الأولى وسحبهما على الأشياء والجماد فيه شيء من السذاجة البدائية. وحتى في أجهزة القتل والحرب ورغم أن تصميمها يهدف إلى أن تكون أداة شر الا أنها تبقى محايدة (لا خير فيها ولا شر) الى أن يستعملها الانسان. وغريب أن نجد مفكرين يذهبون الى أن الآلة وان لم يصل الامر بعد الى أن تخرج عن سيطرة الانسان العملية قد خرجت عن سيطرته الخلقية. ويذهبون الى أن الآلة بحد ذاتها لا خلقية وأن هذه الصفة تنسحب أيضا على مصمميها وصانعيها والدافعين لصنعها. بينما يذهب آخرون منهم الى أن العلة تكمن في قصر نظر الانسان فهو يصمم ويصنع آلاته لاهداف واضحة، ولكنه يفشل في أن يرى في المدى الطويل النتائج المتشعبة والاهداف الثانوية للآلة التي اخترع.

ان خطأ هؤلاء وأولئك يكمن في أنهم يضفون على الآلة الصماء الجامدة صفات انسانية ليست فيها... واذا كان من الممكن الموافقة على أن مصمم الآلة التي لا تستخدم الا للشر والموت وصانعها وممول صنعها يرتكبون اثما خلقيا، فانه من الصعب أن نتصور كيف يمكن للمصنوع أن يتحمل وزر الصانع؟ ويبقى أن الشر في الآلة لا يمكن أن يظهر ويتبلور الا بالاستعمال... والاستعمال وزره على الانسان... فلسنا ندري كيف يمكن أن تلام السيارة

مثلا على مآسي حوادث الطرق بينما السائق هو المتسبب فيها. لا بل كيف يمكن أن يلام جهاز التلفزيون على البرامج السخيفة أو الضارة التي تقدم أحيانا - وهذه البرامج من بنات أفكار بعض الناس وعملهم. وكيف يمكن أن تلام أية آلة اذا اختار الانسان أن يسيئ استعمالها؟؟ والمرء المحق لا يصب جام غضبه على المسدس الذي انطلقت منه الرصاصة القاتلة ولكنه يلوم الانسان الذي ضغط على الزناد... والقاتل الشرير سيقتل سواء أكان ذلك بمسدس أم بالسم أم بيديه. والانسان يقتل أخاه الانسان منذ هابيل وقابيل. وقد تكون التكنولوجيا قد ساعدت على انتاج آلات تجعل القتل وتحمي الانسان... فالمسألة هي في ارادة الانسان وفكره فهو الذي يقرر ويخطط لقتل فرد أو أعداد كبيرة من البشر. ومن وجهة عدالة مطلقة يتساوى المرء الذي يتعمد قتل فرد بمن يتعمد قتل عدد كبير من الناس. ولسنا مع ستالين في قوله بأن قتل فرد جريمة وقتل مليون نسمة مسألة احصائية - اذ أن «من قتل نفسا عامدا متعمدا فكأنما قتل الناس جميعا» صدق الرسول الكريم. وكذلك هناك الاخرون الذين يلومون الانسان لقصر نظره في عدم تصور نتائج استخدام أية آلة مخترعة على المدى البعيد، وبذا يذهبون الى أن على الانسان عدم صنع أية آلة يمكن أن تكون لها استعمالات خطرة مستقبلا. وهؤلاء أيضاً يحملون الآلة ومفهومها فوق ما تحتمل... فالآلة ليست ذات استعمالات آنية وأخرى تالية... وانما هو الانسان الذي يحدد طبيعة استعمالها... فحتى قضيب الحديد يمكن أن يستخدم مخلا يساعد الانسان على رفع الصخور من الارض مثلا ويمكن أن يستخدمه الانسان أداة لقتل آخر اذا ما قرر الانسان نفسه ذلك.

والركيزة الثانية: التي يجب أن ننطلق منها والتي يحاول البعض عدم فهمها ووعيها هي أن العلم والتكنولوجيا لا يمكن أن تعود القهقرى. وحتى في عهد اللوديين لم يجد تحطيم الآلات المخترعة والاعتداء على مخترعيها في إيقاف صنعها وصنع غيرها وادخالها للصناعة وانتشار استعمالها. ومكاسب الانسان في ميدان العلم والتكنولوجيا ليست كمنجزاته الفنية والادبية... اذ أن الاولى تراكمية: فما يكتشف اليوم يأتي على قمة ما اكتشف بالامس في ترابط هرمي واضح... وغير ممكن اقتطاع جزء من رأس الهرم واخفاؤه أو اهماله... والعلماء يعرفون جيدا أن ما تحتفظ به

بعض الحكومات من منجزات العلم والتكنولوجيا سرا لا يمكن أن يبقى سرا مدة طويلة... وتاريخ العلم حافل بحوادث توصل فيها علماء مختلفون في مناطق متباعدة الى نفس النتائج العلمية دون علم أي منهم بأن الآخر يعمل في نفس الميدان ولنفس الغاية.

وفي اعتقادنا أن العلم والتكنولوجيا لن يتوقفا حتى لو حدث حرب نووية مدمرة. وقد يبطء سيرهما بعض الوقت ولكنهما لن يتوقفا وبالتأكيد لن يعودا الى الوراء.

وصحيح أن التكنولوجيا والآلات التي تنتج عنها تؤدي الى تغييرات جوهرية في كيان المجتمع وبنيته وجميع مناحي حياته. وقد تكون بعض هذه التغيرات سيئة وإن كانت الغالبية حسنة مفيدة. ويمكن لعلماء الاجتماع والنفس والسياسة أن يحاولوا تلافي الآثار السيئة التي تنجم عن هذا التطور التكنولوجي. وفي اعتقادنا أن الجزء الأكبر من اللوم يقع على عاتق هؤلاء الذين لم يقوموا الا بجهد يسير في هذا السبيل في مقابل الجهد الهائل الذي يبذله العلماء والتكنولوجيون والتقدم المذهل الذي يتحقق بفضل هذا الجهد... وعلى ذلك فالمسألة أيضا تعود للانسان.

والركيزة الثالثة: هي التخوف من أن يؤدي انتشار الآلات وبخاصة الآلات الالكترونية المسيرة للمصانع ذاتيا الى تفاقم البطالة بين العمال. وكما أشرنا، فيما سبق، لم يكن هذا أول تخوف ن نوعه، فقد سبق أن ثار مثل هذا التخوف في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. ثم زال ذلك التخوف عندما لمس العمال أن الآلات الجديدة أدت الى العكس مما كانوا يتخوفون منه... فبدلا من تفاقم البطالة بينهم زادت الاعمال وزاد كسبهم وتحسن مستوى معيشتهم... واذا نحن استعرضنا سيل الآلات التي طورت واخرعت منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا لما وجدنا أي دليل على أن أيا منها كان سببا في ازدياد البطالة بين العمال. وليس هناك أي دليل على أن العقول الحاسبة الالكترونية وأجهزة التسيير والمراقبة الذاتية في المصانع الحديثة ستكون من هذه الزاوية غير ما كانته الآلات التكنولوجية التي سبقتها.

على أنه يلاحظ أن ادخال آلات معقدة تكنولوجية يستدعي من العمال الذين يصنعونها ويشغلونها ويقومون بصيانتها مستوى أعلى من الثقافة

العلمية والخبرة التكنولوجية والدقة في العمل. ويبدو أن الغالبية من العمال لا يرغبون في اجهاد أنفسهم في محاولة تحسين مستواهم العلمي والتكنولوجي... وهؤلاء لا يمكن استخدامهم في صنع هذه الآلات المعقدة أو صيانتها أو تشغيلها... ومع ذلك فقلما يكون مصيرهم البطالة... اذ يتحول عدد كبير منهم الى أعمال أخرى. وعلى كل حال فإنه ليس غريبا أن تتطلب المتغيرات العديدة والتطور المتسارع في العلم والتكنولوجيا مستوى ثقافيا وعلميا أعلى من العمال... وقد أسهم العلم موالتكنولوجيا في تيسير ذلك على الناشئة والعمال بوسائل التعليم والتدريب الحديثة. ومن الطبيعي أن يكون حظ المتقاعسين أقل من حظ المجتهدين.

ولو أن العمال وعوا هذه الحقيقة وأن عليهم أن يتابعوا، في دورات دراسية على فترات، التطور التكنولوجي والعلمي ليكونوا أقدر على التحول من المهن التي يعملون فيها الى مهن مستجدة ومتطورة لزالت أسباب مخاوفهم وعدم استقرارهم النفسي ولتحسنخ شعورهم بقيمتهم وقدرهم وامكاناتهم وبذا تزيد سعادتهم.

وليست هذه مسئولية العمال وحدهم بل هي أيضا مسئوية أرباب العمل والحكومات بشكل عام. فقد ثبت أن العامل الذي يكون على علم ودراية، ولو محدودة، بالأسس العلمية التي بنيت عليها تكنولوجية آلته التي يعمل بها يكون أقدر على اتقان العمل واتقاء الأخطاء وزيادة الانتاج بالمقارنة مع زميله الجاهل الذي يقوم بعمله بعد تدريب آلي ودون فهم صحيح. وفوق ذلك يكون الاول أقدر على التحول من آلة تكنولوجية الى أخرى مطورة وأكثر تعقيدا، ولهذا ما له من أثر على حالته النفسية وثقته بنفسه وبمستقبله، وهذا بدوره ينعكس ايجابيا على سلوكه وحياته وأسرته ومجتمعه.

وفي روسيا ودول عديدة أخرى دراسات دورية للعمال والمشرفين عليهم وحتى مديري الأقسام لهذه الغاية.

والخشية من ازدياد تضخم الآلات وازدياد قوتها وبالتالي سيطرتها على الانسان أمر لا يعدو أن يكون خيالا من خيالات الادباء والشعراء وتصورا لا أساس له من الواقع. فالآلة مهما كبرت هي في أساسها كتلة جامدة يمكن للانسان بلمسة من أصبعه أن يوقفها ويحيل حركتها «المخيفة» الى سكون وهدوء. والآلة التي يخشى العمال أن «تبتلعهم» من ناحية نفسية

واجتماعية انما هي السلطة الانسانية التي تدير الآلة والعمال معا، وتخطط لعمل كل وتتحكم فيه. فالاساس هو أن نعي أن الآلة، كما ذكرنا، امتداد للانسان ولقواه وليست كيانا قائما بذاته قادرا على أن يسبب بنفسه الخير أو الشر.

والعودة للطبيعة أمر جميل ومحبب للنفس، ولكن اذا كان ذلك يتخذ صفة قضاء عطلة الأسبوع أو العطلة السنوية... أما أن يعود المرء كلية الى الحياة حياة بدائية في أحضان الطبيعة فأمر شاعري ولكنه غير واقعي.

ولذا يتصور العلماء أن بيوت المستقبل ستكون نوعين لكل أسرة: بيت في المدينة الكبرى حيث العمل وبيت في الريف ووسط الطبيعة الغناء لقضاء عطلة الأسبوع والعطل الأخرى. واذا ما تم ذلك فإن العيش في خيمة أو كوخ في الريف سيصبح غير ذي موضوع، وسيعيش المرء في بيته الريفي وسط التكنولوجيا من جانب ووسط الطبيعة الغناء من جانب آخر.

كما أن اتجاه مخططي المدن الى جعل الضواحي مزيجا جميلا من الريف والبناء وذلك بالاكثار من الحدائق والساحات ومجاري المياه وحتى الشلالات على أن تكون البيوت متناثرة في تناسق مع هذه الطبيعة قد يساعد كثيرا على إشباع رغبة الانسان في العيش وسط الطبيعة والتمتع بجمالها.

أما الدعوة الى الرجوع الى الطبيعة بمعنى التخلي عن كل المكاسب التي حققتها للانسان الحضارة العلمية والتكنولوجية، والعيش في هذه الدنيا كما كان يعيش الانسان الأول فلا نعتقد أنها دعوة جادة ولا قابلة للتطبيق.

ولابد لنا من الاشارة بأن تصميم الآلة كما هي اليوم يسبب مشكلات ضخمة في مجال تلويث الجو والارض والبحر. وهذه المشكلات بلغت حدا من الخطورة ان أثرت في البيئة تأثيرا بالغ الأذى وهي تكاد تشكل تحديا لوجود الانسان وحياته في المستقبل. ولا بد من البحث الجاد في تطوير الآلة جذريا بحيث لا ينتج عنها كل هذا التلوث ولا هذا التهديد للبيئة الحية. وهنا أيضا نقول أن اللوم يقع على المصمم لا على الآلة نفسها.

5 مشكلة حماية البيئة

قلنا أن الأرض - رغم أنها بيئة معادية للحياة بشكل عام - هي بيئة الانسان فعليها يعيش ومنها يبتني بيته ويستخرج معادنه ومواده الكيميائية وغذاءه وماءه ويتنفس هواءها ويتأثر بجاذبيتها الى آخر ما هنالك من عوامل البيئة التي تتفاعل مع الانسان الحي.

واذا كانت البيئة موطن الحياة فان أول ما يجب على الانسان تحقيقه حفاظا على هذه الحياة... هي حياة هذه البيئة.

وحماية البيئة تستلزم أمرين هامين: الاول: فهم البيئة فهما صحيحا بكل عناصرها ومقوماتها وتتفاعلاتها المتبادلة. والثاني: العمل الجماعي الجاد لحماية هذه البيئة وضمان استمرارها موطنا مقبولا للحياة.

واذا نحن استعرضنا ما يعمله الانسان لبيئته نصاب بصدمة مذهلة. اذ أن الانسان يتصرف دون فهم صحيح لمقومات البيئة وحقيقتها كما يتصرف بقلة اكتراث بموطن حياته ودون أي عمل جاد جماعي أو فردي لحماية هذه البيئة وضمان بقائها صالحة لحياة أحفاده... حتى أن كثيرا من العلماء يرون في سلوك الانسان نحو بيئته بداية انتحار

انساني عام شامل.

ومن هنا تبرز المشكلة... ويزيد في خطر المشكلة جهل الكثير من بني البشر لوجودها. فهم يأخذون الحياة أمرا مسلما به ولذلك يفترضون استمرار البيئة صالحة لهذه الحياة... فهم لا ينطرون الى أبعد من أنوفهم ويشككون في وجود المشكلة ما لم تواجههم مواجهة صريحة وتؤثر فيهم تأثيرا مباشرا.

والمشكلة جديدة... وقد بدأت تطل بقرنها بشكل واضح في العصر الحديث - حتى أن البعض يلقي بمسئوليتها على كاهل الحضارة العلمية والتكنولوجية الحديثة. ذلك أن أعداد البشر قديما كانت قليلة نسبيا وأساليب العيش عندهم كانت بسيطة. وفوق ذلك فان البيئة - حتى العصر الحديث - كانت قادرة على اصلاح أي افساد يحدثه الناس فيها. والناس لم يتوقفوا، منذ أن كانوا، عن الاضرار بالبيئة التي يعيشون فيها ومنها وبها... وهي ظاهرة تلازم الجهل واللامبالاة والانانية، وكلها صفات تكثر في بني البشر. وقد حدث في القديم مرات عديدة جدا أن أفسد الانسان عليه بيئته بدرجات متفاوتة. وكانت البيئة نظرا لقلة حجم الضرر نسبيا تصلح ما أفسده الانسان بسرعة لدرجة أن الانسان صار لا يكترث بما يفعله بها معتمدا على قدرتها على اصلاح ذلك. ومع أنه حدثت في الماضي حالات افساد شديدة أدت الى صيرورة البيئة غير صالحة لمعيشة الانسان الا أن الانسان وقتها حل المشكلة بالهجرة الى مكان آخر... وكانت الأرض في ذلك الزمن رحبة لم تضق بعد بسكانها.

أما اليوم فالامر مختلف تمام الاختلاف من وجوه عدة... فالهجرة مقيدة بقيود عديدة من ناحية... وحجم الافساد ضخم ومتزايد ومتكرر بشكل يجعل قدرة البيئة وسرعتها في اصلاح الخلل غير كافية، وتكون النتيجة تدهور مقومات البيئة وانحطاطها... وقد بدأت بيئات كثيرة في هذا العالم تصبح بسبب ذلك خطرا على استمرار حياة الانسان فيها... ومن هنا تبرز المشكلة واضحة للعيان وتتضح أيضا أبعادها الخطرة التي تصل في المستقبل الى حدود التحدي لاستمرار الحياة وكيان الانسان.

كيف نحمي بيئتنا؟

حتى نعرف كيف نحمي بيئتنا يجب أن نعرف ماهيتها ولماذا نحميها ومم

نحميها؟ وواضح أن لدى الانسان غريزة تدفعه للحرص على البقاء، وبذا تدفعه الى أعمال وجهود كثيرة ومعقدة... فهل من المنطق أن يأتي الانسان أفعالا في بيئته تؤدي الى نتيجة مضادة لما يقوم به من أعمال بدافع غريزة حب البقاء والحرص عليه؟ ولعل جزءا كبيرا من هذه الاعمال الضارة بحياته منشؤه جهل الانسان بالبيئة ووظيفتها وأثرها على الحياة، كما أشرنا قبلا.

ولذا فان أول ما يجب أن نوضحه هو ماهية البيئة وعناصرها وتفاعلاتها مع بعضها... أن الكون هو بيئة الانسان الكبرى... والكون بما فيه من مجرات وسدم ومجموعات نجمية ونجوم وكواكب وأقمار ومذنبات ونيازك وشهب الخ... يكون نظاما مترابطا متكاملا. وواضح أن هذا النظام الديناميكي تحكمه علاقات وقوى محددة... ولو اختل بعضها لاثر في حركة هذه المكونات وسبب اضطرابات تهدد كل ما فيه أو بعضه على الأقل. فانقلاب مجموعة نجمية عن القوى المتحكمة في حركتها قد يؤدي الى انطلاقها في فضاء الكون الشاسع وتبعثر مكوناتها أو اصطدامها أو اندماجها ببعضها بعضا. وفي هذا ما فيه من خطر على أية حياة قد تكون في أي من هذه المكونات.

وفي مجموعتنا الشمسية سبق أن أوضحنا أن مجرد اختلال كمية الطاقة الشمسية التي تصل الى سطح الأرض كاف لجعل الارض حارة الى حد لا يسمح للحياة بالبقاء أو باردة الى حد يقضي على الحياة.

وكرتنا الأرضية وهي مجرد كوكب في المجموعة الشمسية، تتكون كبيئة من عناصر أساسية هي: الهواء بتركيبه المحدد والماء والقشرة الأرضية وما فيها وباطنها والنبات والحيوان والانسان والطاقة الشمسية التي تصل اليها، ويمكن أن نضيف لهذه حركة الارض حول الشمس وعلاقتها بالقمر.

وتتفاعل هذه العناصر وما يتفرع عنها معا تفاعلا معقدا متشابكا ولكنه محدد، وينتج عن ذلك كون هذه الكرة بيئة صالحة للحياة ولاستمرارها - وهو الأهم.

وتتجزأ هذه البيئة الى بيئات أصغر فأصغر وكل بيئة صغيرة - ككل بيئة كبيرة - مكونة من نفس العناصر التي أشرنا اليها... وهي وإن كانت محدودة الحجم وواضحة الحدود، تكاد تكون شبه مستقلة، الا أنها ليست مستقلة.

ذلك أنها تتأثر بالبيئات من حولها وبالبيئات الاكبر منها والتي تكون هي جزءا منها وتتفاعل مع كل هذه تفاعلا مستمراً. ولعل من أهم مميزات أية بيئة صغرت أم كبرت أنها متزنة اتتزانا مرنا رغم كثرة العوامل والعناصر الداخلة والمؤثرة فيها.

فاذا حدث تغيير في أحد العناصر أو في عدد منها يختل الاتزان وتحدث تفاعلات جديدة فيما بينها تؤدي الى اعادة الاتزان بشكل أو بآخر... ولكن عندما يكون التغيير ضخما جدا والاختلال الناجم عنه أكبر من أن يوازن بتفاعلات العناصر الاخرى يحدث تحول جذري في البيئة وتغير معالمها وخصائصها ويقضي على الحياة بشكلها الذي كانت عليه في تلك البيئة. وتصبح العلاقات الحيوية فيها من نوع آخر مختلف تماما عما كانته قبلا.

ولسنا هنا في مجال التعمق في دراسة البيئة ومكوناتها فذلك أمر يستلزم على الاقل كتابا قائما بذاته، وانما نود أن نكتفي بالاشارة الى عدد من العوامل المتداخلة والمتفاعلة في البيئة الصغيرة المحددة.

ولو أخذنا عنصرا من عناصر البيئة كالهواء مثلا نجده يتفرع الى العوامل التالية: تركيبه، والضوء، والرطوبة، وكمية المياه المتوفرة (أو الأمطار الساقطة)، ودرجة الحرارة، ومقدار التبخر، وحركة الرياح واتجاهها. ويتكون عنصر آخر كالتربة من العوامل التالية: الرطوبة، ودرجة الحرارة، ونسيج التربة، وتركيبها الكيماوي ويشمل المركبات الداخلة فيها ودرجة الحموضة، وأنواع الكائنات الدقيقة فيها وأعدادها. وهناك بالطبع عناصر الحيوان والنبات والانسان الى آخر ما هنالك.

وواضح أن كل عامل من عوامل هذه العناصر يتألف من عوامل أصغر، كما تتفاعل كل هذه العوامل مع بعضها بعضا. ولو أخذنا عاملا واحدا فقط لوجدنا تأثيره التفاعلي على بقية العوامل: فمثلا وجود نبتات باسقة يقلل كمية الضوء الذي يصل الى التربة ويقلل من الماء الموجود فيها، ولكنه يزيد في كمية بخار الماء في الهواء. وتقليل الضوء الذي يصل الى التربة يجعل أنواعا من النباتات القصيرة المحبة للظل تنمو تحت النباتات الباسقة ويمنع نمو أنواع أخرى من المحبة للضوء، كما يجعل سطح التربة في مثل تلك الحالة مسكنا لأنواع معينة من الحيوان دون غيرها.

ولو حدث لأي سبب كان أن قطعت النباتات الباسقة أو ماتت لتغير الاتزان السائد في تلك البيئة اذ عندها يصل الضوء ساطعا حيث كان الظل فتتأثر النبتات الصغيرة التي كانت تنمو فتموت وينمو غيرها من الانواع المحبة للضوء وتهرب أو تموت الحيوانات التي كانت تسكن هناك محتمية بالظل وتسكن البيئة حيوانات غيرها من التي لا تعبأ بالضوء أو تفضله.

وبالطبع لا يتم ذلك فجأة بل يستغرق بعض الوقت... وقد تعود النبتات الباسقة للنمو مرة أخرى لتعيد الظل وتعيد تغيير اتزان البيئة الى شبه ما كانت عليه في البداية.

فاتزان أية بيئة تحكمه العوامل التي تحدد البيئة وتحد من طغيان عنصر فيها على الباقين. وينطبق هنا المثل الغربي القائل بأن السلسلة لا يمكن أن تكون أقوى من أضعف حلقة فيها.

ولما كانت المتغيرات في أية بيئة كثيرة وتعمل باستمرار كان اتزان البيئات ديناميكيا غير جامد ولا ثابت. ذلك أن التغييرات تحدث في كل عامل وفي كل عنصر من عناصر البيئة، وقد تكون التغييرات هذه دورية كما تكون غير منتظمة. ولكن الواضح أن الغالبية العظمى من هذه التغيرات لا تسبب اخلالا بالاتزان الديناميكي في البيئة. وعلى العكس من ذلك تسبب التغيرات الضخمة التي تحدث نتيجة للكوارث الطبيعية اخلالا بهذا الاتزان البيئي يؤدي الى أن تأخذ البيئة طابعا آخر مختلفا عن طابعها الأول... وقد يكون التغيير دائما كما قد يكون مؤقتا لا تلبث البيئة أن تصلح آثاره وتعود سيرتها الاولى.

ولعل أكبر مؤثر في البيئة هو الانسان. وقد بدأ الانسان يغير في البيئة تغييرا كبيرا ويخل بالتوازن البيئي اخلالا شديدا منذ أن بدأ بثورته الزراعية... ففي عملية الزراعة كان يقوم وما زال بتفضيل أنواع من النبات على غيرها ويحمي الانواع التي يفضل ويكثرها على حساب الاخرى. كما كان لاستغلال رقعة من الارض بالزراعة مدة من الزمن أثر في استنفاد المواد المعدنية اللازمة للنخبات من التربة... وكان لسوء استعمال الارض أيضاً نتائج عديدة ليس أقلها تطاير غطاء التربة الناعم بالرياح وتعرية ما تحت الغطاء من تربة نسيجها خشن مليئة بالحصى وقطع الصخور وبذا تصبح التربة فقيرة غير خصبة.

ومع تزايد عدد السكان وتجمع قسم منهم في مدن أخذت، كما أشرنا، تكبر حجما وتمتد رقعة، ونتيجة لتزايد استعمال الناس للآلات والأجهزة التكنولوجية المختلفة تزايد تدخل الانسان في توازن بيئته وأخذت التغييرات التي نجمت عن تدخله المباشر وغير المباشر تتوالى وتتضخم. وكانت تهذه الآثار نوعين رئيسيين:- الاول يتمثل في اخلال توازن البيئة نتيجة انقاص مكون أو أكثر من مكونات عناصر البيئة، والثاني يتمثل في احداث هذا الخلل نتيجة تلويث البيئة بمواد غريبة عنها أو مغايرة في تركيزها لما اعتادته الحياة في تلك البيئة، بحيث يؤدي هذا التلويث الى اضرار بها وافساد لتفاعل مقوماتها وعناصرها الحية والطبيعية.

أما النوع الاول ففهمه صحيحا يجب أن ينبع من المفهوم بأن الأرض محدودة، وأن كل مقوماتها وما فيها محدود. كما يعتمد على تفهم أن ما في الارض من معادن ومقومات تختلف كميات، كما تختلف توزيعا.

ومنذ أن خلق الله الانسان وهو يستعمل معادن الارض لاغراضه المختلفة.

فقد استعمل الانسان الاول منذ ما يقرب عن خمسمائة قرن مضت حجر الصوان في عمل أول أدوات الصيد وآلات القطع والاقتتال... والصوان من معادن الارض.

وبعد أن اكتشف الانسان النار أخذ باستعمالها في اعداد الطعام ولربما أنه، حتى لا تنتشر النار في العشب حولها، أحيطت بقطع من الصخور التي كانت أيضا مستندا للطعام الموضوع على النار. ومن المحتمل، نتيجة استعمال بعض قطع الصخور التي تحوى خام النحاس، في تلك المواقد البدائية، أن اكتشف الانسان بطريق الصدفة وجود قطع من النحاس في رماد المواقد. ومن تفحصه لهذا المعدن وجد فيه صفات تفيده في صنع أسلحته وأدواته الأخرى أكثر من الصوان... فتحول اليه وانتهى بذلك العصر الحجري. ولعله من الطريف حقا أن يفكر المرء في كيف استطاع ذلك الانسان البدائي تمييز قطع الصخور العادية من تلك التي تحوى خام النحاس، وكيف استطاع استخلاص النحاس بكميات تكفيه، ومن ثم سبكها وتشكيلها.

ولما كانت هناك مناطق عديدة في العالم توجد فيها خامات النحاس والقصدير متلازمة كان من الطبيعي أن يكتشف الانسان البرونز، وهو سبيكة من هذين الفلزين، وأن يتحول عن النحاس اليه لأنه أصلب كثيرا من

النحاس.

ثم جاء اكتشاف الحديد وسبقه اكتشاف النحاس الاصفر والذهب والفضة ولكن الانسان أهمل استعمالها لانها لم تكن في صلابة النحاس أو البرونز.

وتبع ذلك سلسلة طويلة لم تنته من اكتشاف معادن واستخلاص فلزات ولا فلزات متعددة ليس آخرها اليورانيوم وكذلك انتاج سبائك مختلفة. ونتيجة هذه الاكتشافات التي تزايدت بفضل تطور علم الكيمياء صارت عملية التعدين صناعة ضخمة، وأخذ الانسان العلمي يبحث في مختلف مناحي الارض عن مصادر لمختلف المعادن التي تحتاجها التكنولوجيا الحديثة. كما ساعدت هذه التكنولوجيا في الكشف عن أماكن تجمع هذه المعادن ولو في أصقاع نائية مستخدمة أحدث ما توصلت اليه من أجهزة دقيقة بما في ذلك استخدام الاقمار الصناعية.

وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت المناجم تتزايد على وجه الارض عددا وحجما، وتفنن الانسان التكنولوجي في اكثار ما ينتج من تلك المناجم لان في ذلك تقليلا من كلفة الانتاج وتحقيقا لمزيد من الربح له. وهكذا ما عتم أن رأينا العديد من المناجم ينضب انتاجه ويهمل ويهجر بعد أن يكون قد غير من ظروف البيئة تغييرات جذرية كبيرة وأفسدها وأخل بتوازنها.

على أن ما يهمنا الان هو التوكيد على أن أي منجم محدود ولا بد أن ينتهي يوما ما. والتكنولوجيا اليوم تعول على اكتشاف مناجم جديدة في بقاع أخرى لتنتقل من واحد لآخرين غيره... ولكن الارض برمتها محدودة وسيأتي اليوم - وأن كان بعيدا بعض الشيئ - الذي لن يجد فيه الانسان حاجته من هذه المعادن.

والسؤال الذي يتبادر للذهن هو كيف يمكن أن يحمي الانسان بيئته من هذه الزاوية على سبيل المثال؟

ان من الواضح أن كون المعادن في الأرض محدودة عامل هام في تدبرنا لحماية البيئة. ويمكن القول أن الجواب على هذا التساؤل ذو ثلاث شعب.

فأولا: على الانسان أن يعتبر المعادن في صخور الارض ثروات محدودة لا تتجدد، وعلى ذلك فان أفضل سبيل للافادة منها خير فائدة يكمن في حسن ادارة استغلالها واستعمالها. وحسن ادارة مثل هذه الثروات وحسن

التصرف بها هما خير سبيلين لحماية هذه الثروات في الوقت الحاضر. ولا بد من الاشارة الى أن الانسان متلاف مبذر، يتعامل مع ثرواته في بيئته تعامل من لا يقدر المسئولية ومن لا ينظر الى غير مصلحته المباشرة الآنية دون نظر الى مصلحة أحفاده وأحفادهم من بعدهم مع أنه حريص على استمرار نوعه باكثار أولاده وأحفاده والذين يأتون من صلبهم.

وثانيا: لابد من البحث عن مصادر جديدة لهذه الثروات لا في القشرة الارضية اليابسة فحسب، بل وفي القشرة تحت البحار والمحيطات وفي باطن الأرض. وهذا يستلزم تتطورات عدة في تكنولوجية البحث والاستقلال على وجود تجمعات المعادن في تلك الأماكن.

وثالثا: على الانسان أن ينفذ بدقة خطة محكمة لاعادة استعمال المعادن المصنعة التي تتلف ويصبح استعمالها غير ذي موضوع. فالانسان اليوم يلقي بآلاته التالفة في أماكن مختلفة من الارض والبحر تماما كما يلقي بقمامته. ويسبب نتيجة ذلك كثيرا من التلويث المؤذي للبيئة بشكل عام. ومسألة اعادة الاستعمال لا تقتصر على الآلات الكبيرة بل يجب أن تشمل كل شيء مهما صغر. وهذا يستلزم تثقيف الناس جميعا للحفاظ على الادوات والآلات والاوعية المستعملة والتالفة والفارغة وارسالها الى أماكن تجميع خاصة لكي ترسل الى حيث يعاد تصنيعها واستعمالها مرة أخرى بل ومرات متكررة.

وهذه العملية - ونعني عملية تبصير الناس وتثقيفهم بهذا - تتطلب جهدا كبيرا واضحا.. فالانسان حريص على الاحتفاظ بالشيء طالما كان ذا فائدة له. ولكنه يلقي بالشيئ حالما يتيقن من عدم امكان الافادة منه. ومن الممكن للسلطات البلدية تكليف شركات خاصة بتجميع هذه الفضلات وفصلها وتصنيفها ثم تحويلها الى مصانع خاصة لاعادة تصنيعها والافادة منها... وحتى القمامة غير المعدنية يمكن تصنيعها لتصبح سمادا طبيعيا للارض الزراعية.

أما النوع الثاني من الاخلال باتزان البيئة والمتمثل في تلويث البيئة فأمر أخطر بكثير من النوع الاول ويتخذ أبعادا خطيرة في الوقت الحاضر ناهيك عما يمثله من خطر في المستقبل اذا لم يكبح جماحه ويعكس تيار تزايده.

وقد استعملنا كلمة تلويث بدلا من التلوث وهي الكلمة الشائعة نظرا لان في كلمة تلويث تدليلا على أن الانسان نفسه هو الذي يقوم بهذا التلويث نتيجة أفعاله المباشرة وغير المباشرة، سواء أكان ذلك بوساطة آلاته أم بغيرها ... ذلك أن البيئة لا تتلوث بنفسها، ولا تلوث نفسها ... بل على العكس من ذلك تعمل البيئة على تعديل أي تلويث فيها في اطار الاتزان البيئي القائم.

ويمكننا تحديد مفهوم التلويث بأنه ادخال عامل أو عوامل جديدة أو زيادة نسبة عامل موجود أصلا أو انقاص عامل الى حد كبير بحيث تكون النتيجة اخلال الاتزان البيئي وافساد البيئة بشكل ضار بالحياة فيها.

وقد أخذت مشكلة التلويث تبرز بشكل حاد في العصر الحاضر، كما زاد في حدتها تزايدها المستمر المتفاقم مما هدد ويهدد بايصالها الى حجم الكارثة اذا لم يقم الانسان بعمل جماعي لايجاد حلول لها.

والمشكلة متعددة الجوانب وان كانت واحدة في جوهرها، كما أن كل جانب من جوانبها يعكس آثاره على الجوانب الاخرى. وسنتناول بالبحث بايجاز جوانبها المختلفة:

تلويث الارض:

قلنا أن الارض تشكل أقل من ثلث مساحة الكرة الارضية، وان جزءا لا يستهان به من هذه الارض غير صالح لمعيشة الانسان، وأن الجزء الصالح بدرجة طيبة لمعيشته صغير نسبيا والناس يزدحمون فيه ازدحاما كبيرا. كما قلنا ان الارض مصدر الجزء الاكبر من غذاء الانسان، وهي، حتى الان، تكاد تكون المصدر الرئيسي الوحيد لمعادنه المختلفة. فهي باختصار موطن الحياة الانسانية والمرتكز الذي الذي تستند اليه حضارته. ومن هنا كان ارتباط الانسان بالارض ارتباطا وثيقا وأساسيا.

ورغم هذا الارتباط الذي يتبدى بقوة في كثير من نتاج الانسان الفكري والذي تسبب في تضحيات عديدة كان من جملتها حروب طاحنة ذهب ضحيتها العديد من بني الانسان، ورغم الحرص الذي يبديه الانسان على التمسك بالارض، سواء على مستتوى البيت والحقل أم على مستوى الوطن، فان تصرفاته المسلكية العملية توحي بعكس ما يوحي به ذلك الارتباط

وهذا الحرص، اذ أن سلسلة التصرفات الفردية والجماعية أدت وتؤدي الى افساد الارض وجعلها أقل قدرة على احتضان حياة الانسان نتيجة اخلال الاتزان البيئي فيها.

ومن أوجه تلويث البيئة الارضية التي تنتج عن تصرفات الانسان ما يلي:

١- اغتصاب مساحات متزايدة من البيئة الطبيعية والزراعية من أجل امتداد المدن وشق الطرقات وبناء المطارات واقامة المصانع وحفر المناجم وبناء السدود الى اخر ما هنالك...

وكل عملية من هذه العمليات أما أن تقلل من مساحة الارض المزروعة أو القابلة للزرع، أو تغير من عوامل البيئة محدثة اخلالا في اتزانها ويتبع ذلك تغيير في طبيعتها وخصائصها، وهكذا ينعكس على طبيعة الحياة فيها.

وقد تزايدت هذه العمليات بتزايد اعداد البشر وتطور التكنولوجيا وقام بها الانسان دون مجرد التفكير فيما يمكن أن تؤدي اليه من انعكاسات على البيئة نفسها. ويبدو في هذا المجال أن الانسان، نتيجة تخصصه الضيق وبسبب أنانيته ورغبته في الكسب السريع، قلما كانت نظرته شاملة وبعيدة المدى. وهناك أمثلة عديدة لمشاريع ضخمة سعى الانسان الى تنفيذها بعزم واصرار وقدم في سبيل ذلك تضحيات كبيرة.

ثم اكتشف بعد تمامها أنه أغفل نواحي أخرى وأن الضرر الذي يصيبه من الخلل البيئي نتيجة تطبيق هذه المشاريع يكاد يعادل المنفعة المتوخاة منها.

ولكن للمشكلة وجها آخر. اذ أن تزايد أعداد البشر وتزايد احتياجاتهم الغذائية والصناعية يستلزم اتساع الرقعة المخصصة لسكنهم وصناعاتهم وما يتبع ذلك. وليس من المعقول أن يكون البديل عن اغتصاب الارض التوقف عن النمو والتتطوير... ويحق للمرء أن يتساءل: ما العمل اذا...؟ ان الحل، في رأينا يكمن في أن يعي المهندسون ورجال الأعمال والسياسيون وكل من له رأي في القرارات التي من شأنها التدخل في البيئة، مفهوم البيئة وعناصرها وعواملها وتفاعلاتتها، وأن يزنوا بدقة جميع الاحتمالات المتوقع حدوثها عند تنفيذ أي من هذه المشاريع. وعندها يمكن أن تؤخذ

القرارات بحكمة، ويكون بالوسع ادخال تعديلات على تلك المشاريع بهدف جعل الضرر البيئي في حده الأدنى، ان لم يكن بالوسع تلافيه تماما.

2- تلويث الارض بالفضلات المعدنية والكيماوية والاشعاعية المتزايدة باستمرار: وفي الحقيقة أن الانسان قديما كان لا يرى ضيرا في التخلص من فضلاته بالقائها في الأرض. وكانت تلك الفضلات التي لم تستطع بكتريا التحلل تحليلها من القلة بحيث لم تشكل وقتها مشكلة ذات بال. غير أن تطور التتكنولوجيا وتزايد أعداد الناس زاد في كميات هذه الفضلات وتنوعها الى حد أن اضطرت السلطات المدنية لتخصيص مكان خاص تلقي فيه بهذه المخلفات. كما أن الفضلات الكيماوية صارت تؤثر في تركيب التربة الكيمائي، وقد عرفنا أن تركيب التربة الكيميائي هو أحد عوامل التربة الرئيسية. وقد أثبتت التجارب والمشاهدات العلمية أن بعض النباتتات تختزن في خلاياها وأنسجتها كميات من المواد الكيماوية السامة التي تمتصها من التربة الملوثة. وهذه تنتقل بدورها الى الحيوان والانسان وتتجمع في أجسامها مسببة سلسلة من الاعراض المرضية وقد تنتهي بالموت عندما يصل تركيزها الى الحد المميت.

أما الفضلات الاشعاعية فأثرها على الحياة الانسانية والحيوانية والنباتية كبير وخطير.

وقد أشرنا الى أنه من الممكن اعادة استعمال الفضلات المعدنية باعادة تصنيعها، كما يتحتم معالجة الفضلات الكيماوية بمفاعلتها بمواد أخرى بحيث ترسب المواد السامة وقد يستطيعلعلم ايجاد سبيل للافادة منها. ولنا فيما يقوم به النبات الاخضر من تحويل غاز ثاني أكسيد الكربون الضار الى غذاء وأكسجين مفيدين خير أسوة.

3- انقاص خصب الارض نتيجة سوء استغلالها وبخاصة في الزراعة: اذ أن المعروف أن طبعة التربة السطحية هي أكثر الاجزاء فعالية في عملية الزراعة. فاذا ما أزيل الغطاء الخضري الذي يجعل حبيبات التربة متماسكة تعرضت التربة للتذرية بالرياح والانجراف بالسيول، وتعرت نتيجة ذلك الطبقة التي تليها وهي أقل خصبا الى حد كبير. بل قد يصل ذلك الى حد تحويل تلك المنطقة الى صحراء جرداء قاحلة.

وهناك أنواع من النباتات التي اذا زرعت تكرارا مواسم متعاقبة سببت

تفكك حبيبات التربة وسهولة تذريتها بالرياح وانجرافها بالسيول. ومن هذه النباتات الذرة وهي تشكل جزءا لا يستهان به من غذاء ملايين من البشر وحيوانات مزارعهم.

وليست هناك صعوبة في علاج هذه المشكلة علميا وتكنولوجيا، اذ أن منع انجراف التربة وتذريتها ممكن ومعروف، ولكن الصعوبة تكمن في اقناع أعداد كبيرة من الناس، وبخاصة في البلاد المتخلفة - حيث الحاجة لذلك ماسة - باتباع أساليب علمية في الزراعة واتخاذ الاجراءات الواقيعة من الانجراف والتذرية. ويكاد لا يصدق المرء عينيه اذ يرى أولئك المزارعين يقاومون ادخال هذه الاساليب التي تحفظ لهم أرضهم خصبة معطاءة، في الوقت الذي يرون فيه بأم أعينهم كيف أن أساليبهم التقليدية تخفض من انتاج أرضهم سنة بعد سنة وجيلا بعد جيل.

الزحف الصحراوي:

وهذا يقودنا الى ظاهرة أخرى بدأ العالم يتنبه اليها حديثا وهي ازدياد امتداد الصحراء وغزوها أراض زراعية منتجة، وبالتالي زيادة رقعة الاراضي القاحلة في هذه الكرة محدودة المساحة. ويرى بعض العلماء، ومنهم بيفيريل ميغر، أن مساحة الاراضي القاحلة جزئيا وكليا في العالم تبلغ 36٪ من مساحة الارض الاجمالية. وهي نسبة عالية بحد ذاتها حاليا، فكيف يكون الامر والنسبة في ازدياد مطرد؟

وقد برزت هذه الظاهرة بشكل علني عام في مؤتمر هيئة الامم لدراسة ظاهرة الزحف الصحراوي (أو تحول الارض الزراعية الى صحراء قاحلة)، وهو المؤتمر الذي عقد في نيروبي - عاصمة كينيا - في مطلع شهر سبتمبر (أيلول) عام 1977.

ومن التقارير العلمية التي قدمت في هذا المؤتمر تبين أنه خلال نصف القرن الماضي ابتلعت الصحراء الكبرى في أفريقيا 650ر000 (ستماية وخمسين ألف) كيلومتر مربع من الاراضي الزراعية وأراضي المراعي المتاخمة لحدود الصحراء الجنوبية، ولو استمر هذا الزحف دون ردع فان الصحراء ستبتلع نيروبي في مدى خمسة عشر عاما.

كما تبين من صور الاقمار الصناعية أن الصحراء تزحف على دلتا النيل

الخصبة بمعدل 13 كيلومترا في السنة، فاذا عرفنا أن مساحة الاراضي الصالحة للزراعة في مصر لا تزيد عن 4٪ من مجموعة مساحة الدولة اتضح لنا مبلغ الخطر الذي يتهدد مصر على المدى البعيد.

وفي السودان، الذي يتطلع اليه كأكبر مصدر للغذاء في مجموعة دول الجامعة العربية، نجد نفس الظاهرة اذ لاحظ أحد العلماء المختصين بدراسة البيئة أن شجر الاكاسيا الذي كان يحيط بالخرطوم عام 1955 أصبح اليوم ينمو على بعد 90 كيلومترا منها. وشجر الاكاسيا، كما يعلم الزراعيون، يستطيع النمو في مناطق لا ينزل فيها من المطر أكثر من بضع بوصات سنويا.

وفي اقليم راجستان في الهند تزايد الغطاء الرملي بنسبة 8٪ في مدى ثمانية عشر عاما. وفي تشيلي تحولت أراض كانت مراعي جيدة الى صحاري لا تحوي غير شجر الصبار وبعض العشب الذي لا يقيم أود غير الماعز.

كما تبين أن الجزائر مهددة بزحف الصحراء الى أراضيها الزراعية الخصبة... ولذا قامت الحكومة الجزائرية بحملة لزرع حاجز من الأشجار في محاولة لصد هذا الزحف... وتطمح الحكومة هناك في أن تزرع عشرين بليون شجرة في مدى عشرين عاما... وهذا العدد الضخم هو الحد الادنى اللازم لعمل حاجز صد يضمن ايقاف زحف الصحراء. وقد حدث زحف مماثل في أطراف صحراء جوبي الصينية ومناطق متعددة من العالم.

ولا يقتصر خطر هذا الزحف الصحراوي على انقاص مساحات الاراضي الزراعية، على أهميته، وانما يتعدى ذلك الى تتهديد حياة حوالي 630 مليون نسمة يعيشون اليوم على أطراف صحاري العالم وحول واحاتها عيشة كفاف أو دون ذلك.

ومع أن الكرة الأرضية مرت خلال تاريخها الطويل بفترات متعاقبة شهدت خلالها حالات من المد أو الزحف الصحراوي أعقبها انحسار موجات المد تلك، الا أن ذلك كان نتيجة لتقلبات مناخية عامة. غير أن المد أو الزحف الصحراوي الذي نشهده اليوم يتزايد باستمرار ولعل السبب الرئيسي فيه سوء تصرفات الانسان في تعامله مع بيئته. وقد يزيد من سرعته أو ضخامته أن يتوافق مع ذلك انحباس المطر بضعة مواسم متعاقبة. وقد حدث مثل ذلك في اقليم الساحل الافريقي - الذي يشمل الاراضي المتاخمة

لحافة الصحراء الكبرى الجنوبية - اذ أصيب هذا الاقليم بالجفاف واحتباس المطر ما بين سنة 1970 وسنة 1974 ... وخلال هذا الجفاف مات أكثر من مائة ألف نسمة ونفقت ملايين الابقار والاغنام والجمال. ويعجب كثيرون من سكان الساحل لهذه الكارثة... ذلك أن الجفاف واحتباس المطر لثلاث أو أربع سنوات أمر يحدث هناك بين الفينة والفينة، ولم يسبق أن سبب كل هذه المآسي من قبل.

والحقيقة أن السر في ذلك يكمن في عوامل عدة منها تزايد عدد السكان نتيجة تحسن العناية الصحية والطبية، وقيام الحكومات في ذلك الاقليم بحفر العديد من الآبار الارتوازية التي شجعت السكان على زراعة نباتات تدر ربحا سريعا كالقطن والفول السوداني بكميات كبيرة... وبالطبع زاد الناس أعداد ماشيتهم، وهي هناك مظهر ثرائهم ومقياسه... وكان من نتائج ذلك ازدياد الرعي الى حد اختفاء الغطاء العشبي... وبذا تعرى سطح التربة العلوية الرقيقة. وسرعان ما ذرت الرياح تلك التربة تاركة ما تحتها من حصى ورمال خشنة، وهي ن وجهة زراعية فقيرة لا يمكن أن تنتج نباتتا يكفي لاطعام هذا العدد من الناس والماشية... وزاد الطين بلة حدوث الجفاف... فكانت الكارثة.

وفي الاردن - كما في كثير من بقاع العالم - يشاهد المرء مجاري نهار وسيول جافة أو شبه جافة، بينما كل الدلائل الجيولوجية تدل على أن الماء كان يتدفق فيها بغزارة، وكذلك يشاهد آثار ينابيع جافة أو ينابيع ضعيفة بينما يذكر المسنون من أهل تلك البقاع أنها كانت قبل فترة كثيرة الماء وشديدة الزحام. وبعض أسباب ذلك في الاردن يرجع الى أن الاتراك العثمانيين في أواخر الحرب العالمية الاولى قطعوا معظم الاشجار الحرجية وأشجار الزيتون التي كانت تكسو الجبال والتلال هناك واستخدموا حطبها وقودا للجيوش ولقاطرات السكة الحديدية. ونتيجة لذلك تعرت تلك الجبال والتلال وانجرفت تربتها بالامطار، فلم يعد الماء يتخلل التربة بكميات كافية، وهكذا شحت مياه الينابيع التي كان الناس يردونها أو التي كانت تغذي مجاري الانهار والسيول.

وفي تونس أدى استعمال المحاريث الميكانيكية، دون حرص وانتباه، الى تفتيت طبقة التربة السطحية وتسهيل تذريتها بالرياح. وهذا بدوره أفقر

التربة كثيرا.

كما تسهم الماشية نتيجة الرعي الشديد في تجريد التربة من العشب الذي يمسك بحبيبات التربة ويثبتها مع بعضها وبذا تتعرض التربة السطحية للتذرية وما ينجم عن ذلك.

ومن الواضح أنه لا يجوز أن يطلق الانسان قطعانا كبيرة من الماشية لترعى في رقعة أرض معينة دون أن يحسب حسابا لمثل هذه الاحتمالات وغيرها. وليس معنى ذلك أن يحد الانسان من ثروته الحيوانية اعتباطا، بل لعل بوسعه أن يزيدها على أن يجعل الرعي دوريا وأن يعوض عن تحديد الرعي باعطاء ماشيته طعاما جاهزا. والرعي الدوري يعني أن يترك المرء الماشية ترعى في رقعة من الارض فترة محددة من الزمن ثم يحولها الى رقعة أخرى وبذا يترك للرقعة الأولى فرصة لاستعادة ما فقدته من عشب.

ويجب أن نعترف بأن العلم ما زال يجهل الكثير عن الصحراء وأسرارها، وهذا ما جعل مشكلة الزحف الصحراوي تتأخر في الظهور الى العلن، بالرغم من أن عددا من العلماء المختصين أطلقوا صيحات تحذير متكررة منذ عام 1970 ... ومن المتوقع تزايد البحث العلمي في الصحاري وخواصها وطبيعتها وميكانيكيتها تزايدا كبيرا في العقدين القادمين... ونأمل أن يسفر هذا البحث العلمي المتنامي عن ايجاد طرق لايقاف زحف الصحراء على الاراضي الزراعية في العالم... لا بل أن الامل معقود على نجاح البحث العلمي في أن يعكس الاتجاه ويتمكن من تقليص الصحراء وجعلها تتراجع ويتحول قسم كبير منها الى أراض زراعية منتجة.

وقد ذكرنا أن الجزائر تحاول أن تزرع بلايين الاشجار لايقاف زحف الصحراء. كما أن الصينيين قاموا بزرع أعشاب على حواف صحراء جوبي وعلى امتداد مساحات كبيرة ونجحوا في إيقاف زحف الصحراء أولا ثم تحويل الصحراء التي تقع الى الداخل من هذا الحزام العشبي الى واحات زراعية منتجة.

وتحاول بعض الدول المنتجة للنفط وضع كميات من النفط الخام على سطح الرمال المتحركة فتتماسك ويتوقف زحفها...

وفي ليبيا تجري محاولات لزراعة مساحات من الصحراء بأسلوب الري الدائري. اذ يستخرج الماء عبر آبار ارتوازية من مخزون مائي في أحواض

تحت سطح الأرض على أعماق تزيد عن 1200 متر.. وتقوم المضخات التي ترفع هذا الماء بتحويله الى أجهزة ترشه دائريا بحيث تتحول الارض الرملية المحيطة بالبئر الى واحة قرصية الشكل. وتتجاوز الواحات هذه وتتعدد حسب أعداد الآبار الممكنة.

ويحاول الكيماويون أيضا تصنيع مواد بلاستيكية سائلة تخلط مع الرمل في حواف الصحراء المتحركة... ومن خصائص هذه المادة قدرتها على امتصاص الماء والانتفاخ نتيجة ذلك انتفاخا كبيرا... وبذا تمسك بحبيبات التربة ويتكون من الاثنين سد يمنع تحرك الرمال. ولقدرة هذه المادة على امتصاص الماء تجعل امكانات نمو العشب والنباتات المختلفة فيها وحولها كبيرة جدا.

ونحن على ثقة من أن العلم سيتمكن من ابتداع طرق أخرى متعددة وأكثر فعالية في المستقبل القريب.

تلويث الهواء:

كما ألمحنا من قبل، خلق الله تعالى الارض قبل حوالي 500ر4 مليون سنة. وانقضت حوالي نصف تلك الفترة حتى بردت الارض أو بالاحرى قشرتها الى حد كاف وتجمعت المياه في المنخفضات ثم أصبحت الظروف العامة مناسبة للحياة... وخلق الله الحياة في الماء بادئ ذي بدء وكانت نباتية... وعملت النباتات فترة طويلة، من خلال عملية البناء الضوئي، على تغيير نسب الغازات المكونة للهواء - بتقليل ثاني أكسيد الكربون وزيادة الاكسجين، الى أن صارت تلك النسب موائمة للحياة الحيوانية. ومنذ أن خلق الله الحيوان ونسبة ثاني أكسيد الكربون الى الاكسجين وبقية غازات الهواء ثابتة بشكل عام - فالحيوان يأخذ الأكسجين ويطلق ثاني أكسيد الكربون في الجوم في عملية التنفس ويأتي النبات في عملية البناء الضوئي فيعكس العملية ويأخذ ثاني أكسيد الكربون ويطلق الاكسجين في الجو ويصنع من خلال تلك العملية الغذاء. ونتيجة فعل النبات هذا حافظ الهواء حول الارض على نسب غزاته ثابتة. وبذا كان صالحا لاستمرار الحياة.

وتعلم الانسان ايقاد النار التي تأخذ من الهواء الاكسجين وتطلق اليه ثاني أكسيد الكربون كما تفعل الكائنات الحية في عملية التنفس. واستطاع

النبات أيضا، بمساعدة البحر، المحافظة على نسب غازات الهواء ثابتة بالرغم من دخول النار عاملا اضافيا... ذلك أن استعمال النار في الماضي كان محدودا.

ثم بدأ الانسان باستخدام الآلات التكنولوجية التي تسير وتتحرك بالوقود اذا احترق فزادت بذلك نسبة ثاني أكسيد الكربون في الجو وقلت نسبة الاكسجين، ومع ذلك ظلت النباتات والبحار قادرة على معالجة هذا الخلل.. ولكن الانسان لم يتوقف في ذلك عند حد، فتزايدت آلاته ومصانعه، وزايد استهلاكه لاكسجين الجو واطلاقه لثاني أكسيد الكربون فيه لدرجة أن النبا والبحار والرياح صارت تحتاج فترة ملحوظة تستمر أحيانا أياما، حتى تستطيع تعديل الخلل الناجم عن ذلك.

وخلق هذا موقفا شاذا وبخاصة أن ثاني أكسيد الكربون المتزايد بفعل هذه الآلات أثقل من الهواء وبذلك يظل قرب سطح الارض حيث تتواجد معظم الكائنات الحية، ومنها الانسان، ولما كان غاز ثاني أكسيد الكربون ضارا بالحياة ان ارتفعت نسبة تركيزه الى حد معين نستطيع تصور مبلغ الاذى الذي يمكن أن يسببه في ظروف معينة.

كما لاحظ العلماء أن الطائرات النفاثة الضخمة التي تطير في منطقة الستراتوسفير من طبقات الجو - وهي طبقة هادئة نسبيا وقلما تحدث فيها حركة رياح - تنفث كميات كبيرة من غاز ثاني أكسيد الكربون الذي ينتشر في هذه الطبقة الهادئة مكونا غلافا أو طبقة معظمها من هذا الغاز. ولما كان غاز ثاني أكسيد الكربون من غازات الجو الفعالة في تقليل الاشعاع الحراري القادم من الشمس فان العلماء يخشون أن يؤثر غلاف غاز ثاني أكسيد الكربون المتولد بفعل الطائرات تالنفاثة على كمية الاشعاع الحراري الذي يصل الى الارض. وهم يرون أن تزايد أعداد الطائرات النفاثة وتزايد أحجامها وكميات ما تنفث من هذا الغاز، مع انتشار مساراتها في جميع الاتجاهات كفيل مع الزمن أن يجعل هذا الغلاف واسع الانتشار وسميكا الى حد خطر. والحقيقة أن العلماء مجمعون على أن الخطر ماثل ولكنهم يختلفون في تصور الطريقة التي سيحدث بها:

ففريق يرى أن هذا الغلاف من غاز ثاني أكسيد الكربون سيمتص كميات أكبر من اشعاع الشمس الحراري وبذا يولد منعكسا حراريا يرفع

من درجة حرارة سطح الكرة الأرضية الى حد احتمال صهر الثلوج والجليد في القطبين. واذا حدث مثل هذا فان كمية الماء الناجمة عن انصهار الجليد في القطبين ستسبب فيضانات كاسحة تغرق معظم اليابسة. وقد لا تبقى سوى قمم بعض الجبال العالية كجزر صغيرة وسط بحر متلاطم الأمواج.

ويرى فريق آخر بأن غلاف ثاني أكسيد الكربون سيعكس الى الفضاء كميات كبيرة من اشعاع الشمس الحراري وهكذا تكون النتيجة أن مقدار ما يصل من حرارة الى سطح الارض سيكون أقل من القدر الذي يصل الان وبذا تجمد بقاع عديدة من سطح هذه الكرة وتتغطى بطبقة كثيفة من الثلوج.

وفي كلتا الحالتين سيكون من المتعذر على الحياة بعامة الاستمرار بالشكل المعهود، وستكون حياة الانسان في خطر ماحق لا لشدة البرد وتعطل الصناعة فقط بل ولنقص الغذاء أيضا، فوق خطر الغرق.

ولا يقف الامر عند هذا الحد... اذ أن الات الانسان ومصانعه الضخمة لا تنفث في الهواء غاز ثاني الكربون فحسب... بل انها تنفث غازات أخرى كثيرة سامة منها ثاني أكسيد الكبريت، والامونيا، وأكاسيد النايتروجين، وغازات النفط وغاز الكلور وأول أكسيد الكربون وغيرها كثير.

وهذه الغازات فوق أنها سامة تؤثر في الجسم الانساني والحيواني تأثيرا سميا ضارا فتهدد الصحة والحياة، تؤثر أيضا في النبات فتقتله أو تضعف نتاجه كما تؤثر في منشآت الانسان وأبنيته وآلاته وأجهزته مسببة تآكلها وتعطلها. وخسارة الانسان في صحته وعمله وغذائه وممتلكاته من جراء ذلك خسارة كبيرة جدا تتكرر كل عام وتتزايد بمرور الايام. وقد بلغ تلويث الجو الناجم عن الآلات والمصانع حدا أصبحت معه بعض المدن موبوءة الجو بحيث لا يستطيع المصابون باضطراباتتت في الجهاز التنفسي العيش فيها، وحتى الأصحاء صاروا عرضة للاصابة بالحساسية من هذه الملوثات أو التأثر بها بشكل غير صحي من زوايا مختلفة.

وقد بدأ الانسان حديثا يتنبه لهذه الاخطار، ونتيجة ذلك صدرت في بعض البلاد تشريعات تحاول الحد من تلويث الهواء... ففي بلاد عديدة يمنع الناس من حرق المخلفات والفضلات كما يمنع حرق ما يجمع من أوراق الشجر وأغصانه الميتة في الخريف. وفي بلاد عديدة أيضا يقضي

القانون بأن تكون مداخن المصانع على ارتفاع معين لا تقل عنه. وهذا التشريع ولو أنه يحمي بعض الشيء سكان المدينة التي تقع فيها المصانع الا أنه يغفل أن الجو وحدة واحدة، وأن الانسان العاقل لا يدرأ الخطر عن نفسه مؤقتا ليصيب به جاره وهو يعلم أن جاره ان عمل نفس الشيء أصابه بنفس الضرر. كما سنت تشريعات توجب على مصانع السيارات - وهي أكثر آلات الانسان افساداً للهواء - أن تحد من الملوثات التي تنفثها السيارات الى حد مقرر مقبول. وقضت تشريعات أخرى بأن تحد المصانع من الملوثات التي تنفثها من مداخنها وبخاصة السمية منها. الى آخر ما هنالك من تشريعات وقوانين.

ولابد من الاشارة الى أن هذه القوانين لم تصدر الا بعد أن تمكن العلم والبحث العلمي من ايجاد الوسائل الكفيلة بالحد من هذه الملوثات وهذا اقتضى جهدا وتكلفة مادية كبيرة. كما أن قبول الانسان السياسي أو الاداري وكذلك الصناعي تحمل كلفة العمليات والاجهزة المطلوبة بموجب القانون يعني وعيا بأخطار هذا التلويث وشعورا بضرورة البذل والتضحية في سبيل الحد منه حتى يصل الى مستوى يأمن فيه الناس على أنفسهم من خطره.

تلويث الماء:

كنا قد ألمحنا قبلا الى مفهوم هام جدا وهو أن الماء محدود الى حد كبير على هذه الكرة الارضية، وأنه في دورة متجددة مستمرة، كما ذكرنا أن معظم الماء في هذه الكرة الارضية مالح وغير صالح لاستعمال الانسان لا في الشرب ولا في الري ولا في الصناعة.

ومن هنا تتضح أهمية اعادة استعمال الماء بتنقيته من الشوائب والملوثات - أي تقليد الطبيعة فيما تفعل في دورة الماء.

والحقيقة أن الانسان، بخلاف المشكلات الاخرى، أحس منذ القديم بمشكلة ندرة الماء الصالح لاستعماله. فتجمع أولا حيثما كان هناك مصدر لهذا الماء، وهاجر من مكان لاخر طلبا له، ثم ابتنى الآبار والخزانات لجمعه وتخزينه لحين الحاجة... ثم أنشأ قنوات الري السطحية والمرفوعة على عمد وابتدع آلات رفع الماء ودفعه، كما حمل الماء على كتفيه وسخر لذلك

حيواناته المدجنة ثم آلاته الناقلة... ولعل استعراض المرء لجهد الانسان منذ القديم في سبيل توفير الماء والحفاظ عليه يدل دلالة واضحة على مدى احساس الانسان بالمشكلة ومعاناته لها.

وقد يكون من الأمور المنطقية، والحال كما ذكرنا، أن تدفع الحاجة والاحساس بالمشكلة الانسان الى تحديد هذه المشكلة وايجاد حلول لها، ولكن الغريب أن الانسان بقي، رغم احساسه بالمشكلة، غير جاد في ايجاد حل لها... ثم جاء عصر الحضارة العلمية والتكنولوجية واستطاع الانسان العلمي زيادة كميات المياه الصالحة لاستعماله بوسائل شتى، ولكن هذه الزيادة ذهبت لسد ازدياد احتياجه للماء وبخاصة في المجال الصناعي.. .ومع أن زيادة الماء المتوفر كلفته جهدا ومنالا كثيرا الا أنه لم يفطن الى انه كان بالنتيجة ينقص كمية الماء المتوفر لاستعماله نتيجة تلويثه لمصادر هذا الماء بالقاء مخلفاته وفضلاته وبخاصة النفايات الكيماوية من مصانعه فيها.

وهكذا تنبه الانسان فجأة الى أن مصادر كثيرة من الماء الصالح لاستعماله لم تعد صالحة: فقد تحولت بحيرات عدة وأنهار أكثر عددا الى مجاري ميتة لم يعد بوسع المرء أن يشرب منها أو أن يستعملها في صناعته أو حتى أن يستحم فيها. ولم يقتصر الاذى رغم شدته، على ذلك بل تعداه الى الاخلال باتزان البيئة التي كان النهر أو البحيرة جزءا رئيسيا فيها... فماتت الكائنات الحية التي كانت تعمر تلك البيئة وتركت المجال مشرعا أمام البكتريا وغيرها من الكائنات الحية الدقيقة الضارة وانتقل التلويث الى ضفاف تلك المصادر مؤثرة فيها وفيما يعيش عليها من كائنات... حتى باتت المدن والمجتمعات التي تعيش فيها مهددة بهذا الخلل البيئي العنيف.

وعندما وصلت الامور الى هذا الحد من الخطورة وخشي الانسان على زرقه وحياته بدأ باتخاذ الاجراءات المضادة... وكان تأخره في البدء بهذه الاجراءات سببا في أن اعادة أي مصدر من مصادر المياه هذه الى شبه حالته الطبيعية كلفته مبالغ باهظة جدا. وقد اضطر لتحمل هذه التكلفة صاغرا بينما كان بوسعه أن يتجنب كل هذه المشكلة ويوفر على نفسه هذه المبالغ والجهود لو أنه وعى وعيا حقيقيا مفهوم البيئة وأساليب حمايتها...

وقد اضطرت مدن كثيرة الى معالجة مياه المجاري ومياه المصانع بما

يعرف اليوم بمصانع أو منشآت معالجة المياه. وهي أجهزة ومنشآت ضخمة تعتمد على أسس علمية كيميائية وتكلف مبالغ طائلة. ولكنها السبيل الوحيد المجدي، حسب مدى علمنا في هذه الأيام، لمنع زيادة تلويث المياه. كما سنت تشريعات في بلاد كثيرة تمنع المصانع والمؤسسات الاخرى من تلويث مصادر المياه وتجبرها على معالجة الماء المستهلك فيها قبل امراره الى مجاري المياه الطبيعية.

ولا يقتصر التلويث على مصادر المياه العذبة الصالحة لاستعمال الانسان، بل يتعداها الى البحار والمحيطات. ومع أن مياه البحار مالحة ولا يستطيع الانسان استعمالها مباشرة الا أنها مصدر معظم المياه الصالحة لاستهلاك الانسان... فمنها يخرج معظم بخار الماء الموجود في الجو ومنه تتكون السحب وتهطل الامطار والثلوج وتجري الانهار وتنفجر الينابيع. وقد كان البحر منذ القديم كانا يلقي فيه الانسان بما يلقي. وكان الانسان يشعر بأنه تخلص من هذه الفضلات بمجرد أن يغيبها البحر في جوفه. وكان لاتساع البحر ومقدرته على «هضم» هذه الفضلات اثر في أن الانسان استمر يلقي بفضلاته فيه، غير شاعر بخطئه ولا نتائج هذا الخطأ.

ذلك أن صب المجاري في البحر يسبب موت الكثير من الكائنات الحية وبالتالي الاسماك وغيرها من حيوانات البحر. وتلويث ماء البحر بالنفط عملية أشد خطرا، فالنفط لانه أقل كثافة من الماء يطفو على السطح، ولانه سم بالنسبة للكائنات الحية يسبب موت البلانكتتون الهائم على السطح وكذلك تتأثر الأسماك السطحية وبعض النباتات الطافية والطيور المائية. ولعل موت أعداد كبيرة من البلانكتون من أخطر ما يسببه تلويث البحر سواء بالنفط أو بالنفايات التي تصب مع مياه المجاري وبخاصة النفايات الكيماوية والسمية. ذلك أن البلانكتون وهو دقائق الكائنات الحية النباتية والحيوانية الهائمة قرب سطح البحر - يمثل أولا الغذاء الأساسي للأسماك والحيوانات البحرية الاخرى، والقسم النباتي منه، فوق ذلك يقوم بعملية البناء الضوئي التي أشرنا الى أنها حيوية في المحافظة على نسبة ثاني أكسيد الكربون والاكسجين في الجو ثابتة. والحقيقة أن البلانكتون النباتي في البحار يقوم بحوالي 70٪ من هذه العملية. وبذا يعتبر هذا البلانكتون مع ما يقوم به البحر كيميائيا من استخلاص جزء من ثاني أكسيد الكربون

من الجو، العامل الاهم في ابقاء نسب غازات الهواء ثابتة. ولو قتل عدد كبير من هذا البلانكتون بالتلويث تختل هذه النسب وفي ذلك خطر ماحق على الحياة برمتها. وحتى لو أمكن تجاوز هذا الخطر بمعجزة فان السمك والحيوانات البحرية الاخرى وكلها غذاء هام يسعى العلم لاكثاره تقل وبذا يصبح الانسان مهددا بالمجاعة.

وقد كان خطر هذا التلويث من أول ما تنبه له الانسان، فسنت التشريعات بمعاقبة السفن ناقلات النفط اذا ما لوثت البحر به بغرامات مختلفة. كما قام العلماء بأبحاث علمية مكثفة تهدف الى ايجاد وسيلة ناجعة لجمع النفط الذي ينساب لسطح البحر في أية بقعة منه بسرعة وكفاءة. ولكن التلويث مستمر وقد يزداد نتيجة اتجاه الانسان لاستثمار حقول النفط الواقعة تحت قاع البحر وازدياد أعداد الآبار المكتشفة منها.

ولا يقتصر التلويث على المجاري والنفط، فقد دأبت حكومات عديدة على القاء المواد المشعة ومخلفات الاسلحة الكيماوية في أعماق البحر. كما أن الحروب العالمية تسببت في أن تنزل الى الاعماق ملايين الاطنان من السفن والطائرات والبوارج الحربية وما فيها.

وتزداد أهمية العناية بحماية البيئة البحرية نظرا لما يعقد الانسان عليها من آمال في مجالات الغذاء والتعدين الخ... فالبحار والمحيطات مصادر ثروات لم تستغل، بعد، الاستغلال الصحيح. وقد يكون صحيحا قول سكوت كاربنتر بأن بقاء الحياة على كوكب الارض منوط بالاسرار الحبيسة في أعماق البحار.

التلويث الحراري:

أشرنا الى أن من العوامل التي تجعل الكرة الارضية موطنا للحياة وصول قدر مناسب من الحرارة الى سطحها. وقلنا أن جو الارض بما فيه يمتص جزءا من طاقة الشمس الحرارية ويعهكس جزءا اخر والباقي الذي يصل الارض يكون بقدر يسمح للحياة بالاستمرار. ويختلف مقدار الحرارة الذي يصل الى بقعة معينة من سطح الكرة الارضية باختلاف الفصول وحالة الجو وما يحويه من بخار ماء وحركة الجو وطوبوغرافية سطح تلك البقعة وما يجاورها وتركيب الارض هناك. كما يختلف هذا المقدار من

بقعة لاخرى اختلافا بينا بسبب شكل الارض ودورانها حول نفسها وحول الشمس وزاوية سقوط أشعة الشمس الحرارية واختلاف طوبوغرافية البقاع المختلفة وحالة الجو وحركة الرياح... وكذلك تعاقبت وتتعاقب على الارض عصور، وعرفت بالعصور الجليدية، تتغير فيها كميات الحرارة التي تصل الى البقاع المختلفة فتسبب تغيرات واسعة في شكل الحياة فيها... ولكن هذه العصور متباعدة تفصل بينها ملايين السنين.

ونتيجة لاختلاف القدر النسبي من الاشعاع الحراري الذي يصل لبقاع الكرة الارضية المختلفة، كانت البيئات في تلك البقاع مختلفة في نوع الحياة الذي تحتضنه. ونجد في بيئات عديدة كيف أن تباين درجات الحرارة في الشتاء عنها في الصيف يجعل النبات يتم دورته الحيوية في الفترة من منتصف الربيع حتى بداية الخريف ثم يسكن بعدها، ويجعل كثيرا من الحيوان يهاجر قبيل حلول الشتاء ويعود في أوائل الربيع، أو يسكن في كهف أو مكان آمن في حالة سبات شتوي، والحيوان الذي لا يدخل حالة السبات الشتوي ينمو له شعر فراء كثيف في الشتاء ويقل طول شعر فرائه صيفا، الى اخر ما هنالك من تحورات تحدث ليستطيع الحيوان بمساعدتها التكيف بالبيئة في ظروفها المتقلبة.

من هذا يتضح أن عامل الحرارة من العوامل الاساسية التي تتفاعل مع غيرها في بيئة ما لتعطيها مميزاتها الخاصة بها. وواضح كذلك أن تغير هذا العامل تغيرا واضحا بشكل دائم يحدث تغيرات جذرية في بنية البيئة وصفاتها، كما قد يكون له تأثير مؤذ على الحياة فيها.

وقد ابتنى الانسان مدنه وقراه في بيئاته المختلفة حراريا بأساليب وتصاميم مختلفة، الهدف منها أن تكون البيوت والمباني متوائمة مع عامل الحرارة في البيئة. ثم كبرت المدن وازدحمت بالسكان، كما أسلفنا، ودخلت التكنولوجيا اليها بآلات عديدة تعمل بمختلف أشكال الطاقة. ولكنها جميعا تهدر جزءا من الطاقة المستخدمة كحرارة تشع الى البيئة من حولها. ومع تتزايد هذه الآلات والاجهزة والمصانع في المدن الواقعة في البيئات الحارة، وتغير طرز بناء البيوت، تزايدت حرارة الجو بما صار يشع من طاقة حرارية، وصار لزاما على الانسان في تلك المدن تبريد جو عمله وسكنه بمكيفات الهواء التي بدورها صارت تنفث في الجو كمية من الحرارة، وهكذا كانت

النتيجة ازدادت درجة حرارة جو تلك المدن فاضطر السكان لزيادة طاقة مكيفات الهواء المستعملة، وهذه بدورها زادت من الحرارة المنفوثة في الجو وهكذا دواليك.

ويلاحظ الكثيرون أن عددا من المدن التي كانت المعيشة فيها مقبولة في الصيف أصبحت لا تطاق بغير استعمال مكيفات الهواء. ولما تزايد الامر حتى بدأ يؤثر في البيئة من حيث الطقس ونمو النبات وبدأت تظهر بوادر الاخلال بالبيئة، بدأ العلماء يهتمون بالامر ويقومون بدراسات ميدانية لهذه الظاهرة مستخدمين في ذلك أجهزة دقيقة بما في ذلك الاقمار الصناعية. وهم يعتقدون أن الأمر قد وصل بالفعل في بيئات معينة الى حد المشكلة، وأن بالوسع القول بان الانسان صار يلوث بيئاته حراريا، وأن مردود ذلك سيئ واذا تفاقم فقد يؤذي الانسان وبيئته أذى بالغا، ليس أقله اضطراب حبل الطقس، ذلك أن مثل هذا الاضطراب الحراري يشكل نواة جيدة للعواصف والزوابع، كما أن لذلك أثرا في حياة النبات ونموه وازدهخاره واثماره لا يجوز أن يهمل. وفي حالات عديدة يؤدي ارتفاع درجة الحرارة في بعض المناطق الى حدوث منعكس حراري. والمنعكس الحراري يخيم فوق المدينة أو المنطقة كخيمة كبيرة، ويسبب قلة حركة الهواء تحتها مع ارتفاع درجة الحرارة. وفي هذه الحالة يزداد تركيز المواد الملوثة في الجو بعد أن لم تجد مجالا للتبعثر والانتشار، ومثل هذه الحالة تؤدي الى عواقب وخيمة على الصحة العامة. وقد حدثت وتحدث حوادث عديدة من هذا النوع، ولكن بعضها نال شهرة اعلامية: ومن هذه حادثة وادي الموز في بلجيكا سنة 1930 التي شملت منطقة مساحتها حوالي 60 كيلو مترا مربعا. وقد توفي في هذه الحادثة 60 شخصا وأصيب عديدون اخرون. وكانت الاعراض التي شكوا منها آلاما في الصدر وسعالا، وضيقا في التنفس والتهابا في الاغشية المخاطية والعيون. وفي سنة 1948 حدثت حادثة مماثلة في الولايات المتحدة الامريكية في بنسلفانيا مات بسببها عشرون شخصا وأصيب حوالي ستة آلاف. وفي سنة 1952 حدثت حادث أخرى في لندن. وكانت معظم الجزر البريطانية ترزح تحت غلالة من الضباب وحدث منعكس حراري استمر فترة شهر وتوفي فيه حوالي 3500 شخص معظمهم من المسنين الذين كانوا يشكون من اضطرابات في القلب. وقد حدثت مثل هذه

حوادث كثيرة ولن تكون الاخيرة.

وقد يكون مفيدا أن نقول أن العلم استطاع حديثا انتاج مضخة حرارية تستطيع سحب الهواء الحار المنفوث من الآلات المختلفة وتحويل جزء لا بأس به من طاقته الحرارية الى طاقة كهربية بحيث يمكن اعادة استخدام هذه الطاقة في تشغيل الآلة أو في أي شغل آخر. فبالوسع مثلا أن تأخذ هذه المضخة الحرارية الهواء الحار المنفوث من مكيفات الهواء وتحول جزءا من طاقته الى طاقة كهربية تستخدم في تشغيل ثلاجة مثلا. وبالطبع يكون استخدام هذه المضخات الحرارية بكفاءة أعلى في المصانع حيث تكون الطاقة الحرارية المهدورة خلال العوادم كبيرة.

ومع أن الحرارة تمثل جزءا من طيف الموجات الاشعاعية أو الكهرومغناطيسية الا أننا رأينا أن نشير الى التلويث الحراري وأثره بشكل منفصل نظرا لاننا نعيش في الغالب في مناطق تتأثر بالتلويث الحراري تأثرا واضحا ومتزايدا.

وفي الكويت مثلا، حيث التلويث الحراري وحيث يكثر تلويث الهواء بغازات كيماوية يخشى المرء أن يحدث منعكس حراري يسبب أذى صحيا.

التلويث الصناعي:

تصدر عن الشمس وبقية النجوم في المجرات اشعاعات مختلفة تشمل موجات الراديو والموجات القصيرة وموجات التلفزيون وموجات الحرارة والضوء وما فوق البنفسجي والاشعة السينية وأشعة جاما.

ومن حسن حظ الحياة أن جو الارض يقوم بوظيفة المصفاة حيث يمتص ويعكس جزءا كبيرا من هذه الاشعاعات. ذلك أن قسما كبيرا من هذا الطيف الاشعاعي خطر على الحياة، والاشعاعات قصار الموجات منه بخاصة - أي أشعة ما فوق البنفسجي والاشعة السينية وأشعة جاما. غير أن بقية اشعاعات الطيف ان كانت بتركيز معين تسبب تلويثا أيضا. ونحن نعلم أن أشعة ما فوق البنفسجي رغم وصولها بقدر ضئيل الى سطح الارض تسبب للذين يتعرضون لها فترة ما (كما يحدث في الحمامات الشمسية) اسمرار الجلد وتقشره كما تؤذي العيون. والاشعة السينية خطرة جدا، ويتخذ كل من يتداول بها (كما في المستشفيات) احتياطات صارمة لاتقاء خطرها،

وخطرها يكمن في امكان تسببها في اصابة المتعرض لها كثيرا بسرطان الدم او بتأثر مراكز الوراثة في أنوية خلاياه الجنسية مما قد يصيبه بالعقم أو يجعل أجنته تموت قبل أن تنمو أو تولد مشوهة. أما أشعة جاما وهي أقصر هذه الأشعة وأكثرها نفاذا فقاتلة مميتة بحد ذاتها.

ولولا ما يقوم به جو الارض من احتجاز القسم الاكبر من اشعاع الشمس ومنع مروره لما كان بوسع الحياة الاستمرار على سطح الكرة الارضية. ومن هنا نشأ تخوف العلماء من أن يؤثر الاشعاع الشمسي هذا على رواد الفضاء عند خروجهم من جو الارض وتعرضهم لاشعاع الشمس مباشرة.

وواضح أن هناك اتزانا دقيقا يحكم علاقة الاشعاع بالارض، وأن أي خلل أو اخلال بهذا الاتزان يسبب خطرا ماحقا على الحياة. فالاشعاع ينطلق باتجاهنا في كل لحظة من نجمنا الشمسي ومن النجوم الاخرى، ولكن جو الأرض كحارس أمين لا يعرف الكلل أو الملل يتصدى لهذا الاشعاع ولا يسمح الا لجزء يسير موائم لاستمرار الحياة بالمرور عبره الى سطح الأرض.

وتكمن في صخور الارض مواد مشعة كالراديوم واليورانيوم والبلوتونيوم وغيرها، وتطلق هذه المواد اشعاعاتها باستمرار الى أن تنتهي الحياة الاشعاعية لأية كمية منها. ويصل جزء من هذه الاشعاعات الى سطح الارض والجو، فيزيد من نسبة الاشعاع في البيئة... ومع ذلك كان بوسع البيئة احتواء أثر هذا الاشعاع وذاك.

وهنا لابد لنا من وقفة تأمل... فمما لا شك فيه أن مستوى الاشعاع في جو الارض، قبل أن يخلق الله الحياة، كان أعلى من المستوى الحالي بدرجات، ثم تغير تركيب جو الارض نتيجة التغييرات التي كانت تطرأ عليها وصار جو الارض صالحا للحياة في الماء فخلق الله النبات الذي أسهم بدوره في تعديل جو الارض وتغيير نسب مكوناته الى أن أصبح هذا الجو صالحا لحياة الحيوان فخلق الله الحيوان، ثم الانسان وبقي جو الارض صالحا من جميع الوجوه للحياة... واستمر بشكل خاص اتزان الاشعاع المحيط بالكرة الأرضية مع الاشعاع الذي يصل الى سطحها. وهذا الاتزان دقيق جدا، ويثير في العلماء كثيرا من التأمل والتفكر. ذلك أن المتغيرات التي تتحكم في استمرار الحياة عديدة ومختلفة، والتساؤل الذي يظل يراود الانسان

المفكر المتأمل هو: كيف أمكن لهذه المتغيرات العديدة المختلفة أن تصل الى قدر ومستوى يسمح للحياة بالاستمرار؟؟. فنسبة الاكسجين الى ثاني أكسيد الكربون في الجو حيوية في هذا المجال، وهي نفسها تتدخل في تحديد مقدار الاشعاع الذي يسمح بوصوله الى جو الارض. وهذا أيضا حيوي بالنسبة للحياة... ان الوصول لهذا الاتزان عبر متغيرات مختلفة لا علاقة لاصولها ومسبباتها ببعضها أمر يدعو الى كثير من التفكير. أوليس بهذا يعرف الله؟.

وبدأ العلماء بدراسة الاشعاع والمواد المشعة. ومنذ أن اكتشف رونتجن الاشعة السينية واكتشفت مدام كوري الراديوم مات عدد كبير من العلماء والاطباء والفنيين نتيجة تعرضهم للاشعاعات الضارة هذه. ولكن ذلك بقي محصورا في نطاق ضيق.

ثم تمكن الانسان العلمي من فلق نواة الذرة ودمج الهيدروجين ومن هذا تنتج طاقة هائلة أفاد الانسان التكنولوجي من جزء منها سواء سلما أم حربا... ثم تنبه هذا الانسان الى أن الاشعاعات التي تنتج الى جوار الطاقة الحرارية رفعت مستوى الاشعاع في جوه الى حد خطر مؤذ للحياة.

فقد اكتشف العلماء أن النباتات الدنيئة من الاشنات وشبهها، التي تتغذى عليها وعول المناطق الشمالية وحيواناتها، قد تحملت بالاشعاع وأنها نقلته الى أجسام الوعول والحيوانات، وأن التجارب النووية في المحيط الهادي أنتجت غبارا نوويا لوث مياه المحيط وانتقل منها الى الاسماك وظهر الاذى على الكثيرين ممن أكلوا من هذه الاسماك.

وهكذا اكتشف العلماء أن التجارب النووية قد بدأت تلوث جو الارض بالاشعاع. ولكأنما الانسان بذلك يكاد ينسف الاتزان الدقيق بين الاشعاع والارض. ومنذ أن تنبه العلماء لمستوى تلويث الجو والارض بالاشعاع من جراء هذه التجارب النووية كان واضحا في أذهانهم مدى الخطر على الحياة من هذا التلويث الاشعاعي. فالتلويث الاشعاعي مميت بشكل سريع، كما أن العلاج صعب وغير ناجع سواء أكان التأثير مباشرا أم عن طريق توليد سرطان في الدم أو في أي مكان من الجسم.

ولذا رأينا مبلغ الاهتمام بالتلويث الاشعاعي على صعيد الحكومات والمسئولين. وقد تبدى ذلك في سيل من التشريعات التي تحدد مستوى

الاشعاع المسموح انتاجه وتعريض الجمهور له، وكذلك في هذه الجهود الدولية المكثفة لايقاف التجارب النووية وتحريمها.

على أن العلماء يجابهون باستمرار بمشكلة التخلص من النفايات المشعة التي تنتج من المفاعلات النووية المستخدمة في الاغراض السلمية مثل المفاعلات النووية المولدة للكهرباء. وهذه النفايات عبارة عن نظائر مشعة وهي، بالطبع، خطرة جدا. وقد اقترح العلماء اقتراحين للتخلص من هذه النفايات: الاول أن تخفف وتبعثر والثاني أن تركز وتدفن. فحسب الاقتراح الاول تؤخذ هذه النفايات وتلقى في قاع المحيط وبذلك تخفف فيقل خطرها المباشر ويترك لتيارات قاع المحيط أن تبعثرها أو توزعها على مساحة شاسعة. وواضح هنا الخطر الكامن في هذا الاجراء الذي يحاول ابعاد الخطر عن البيئة الآن فقط غير عابئ بما يصيب البيئة مستقبلا. ذلك أنه حتى لو خففت هذه الجرعات الاشعاعية الان فان استمرار القائها في قاع البحر يزيد من تركيزها وسيصل هذا التركيز الى حد الخطر والتهديد الحقيقي للحياة في تلك البيئة. ثم ان هذه الجرعات الاشعاعية وان كانت مخففة الا أنها تؤثر على صغار الكائنات الحية في البحر وتتجمع في أجسام الكبيرة منها، ولما كانت تراكمية أي أن تأثيرها يتزايد بتراكم الجرعات في تلك الاجسام فانه مهما خففت جرعاتتها الاشعاعية فانها ستتزايد الى الحد المؤذي أو القاتل مع مرور الزمن.

أما الاقتراح الثاني فيلخص في أن تجمع هذه النفايات المشعة وتركز وتخزن في أوان محكمة ثم تدفن في باطن الارض في كهوف أو آبار على أعماق لا توصل الاشعاع الى سطح الارض. وهذا الاسلوب رغم أنه يكلف أموالا كثيرة الا أنه الطريق المعقول الوحيد المتاح لنا في الوقت الحاضر للتخلص من هذه النفايات.

تلويث الضجيج:

السمع هو احدى الحواس الهامة التي لم يعطها الانسان حق قدرها من الاهتمام. وتنجم أهمية السمع، فوق أنه واحد من نوافذ العقل على البيئة الخارجية وبالتالي أحد سبل تطور العقل، في أنه من أهم وسائل الاتصال والتفاهم البشري. ويحس المرء نتيجة فقد حاسة السمع أنه معزول عن

الناس لا يسمع ما يقولون ولا يشارك فيما يضحكهم أو يثير اهتمامهم ويحس أنه عبء عليهم ان أراد المشاركة فيفضل الابتعاد والانعزال. وبدون حاسة السمع يصعب على المرء الاحساس بأنه فرد ضمن مجموع متعاون ويتعطل الى حد ما شعوره بالانتماء وبالتالي غريزته الاجتماعية، كما يفتقد جزءا كبيرا من جمال الطبيعة اذا جردها من الاصوات فيها، ثم انه يضيع أحد عناصر الثقافة الرئيسية وهي الموسيقى التي لا يمكن الاستغناء عنها دون التضحية بركن هام من أركان العيش والحياة الانسانية. وفوق كل هذا يخدم السمع كثيرا في تنبيه الانسان للمخاطر التي تصادفه ويساعده على اتقائها، وهو وسيلة هامة لتلقي المعلومات والآراء ومناقشتها، كما أنه الوسيلة السهلة السريعة لتلقي الاجابة على الاسئلة والتساؤلات التي تخامر المرء والتي هي العمود الفقري لعملية التعلم. ولا ننسى الاشارة الى أن عدم السمع منذ الولادة يصاحبه عدم القدرة على النطق أيضا.

وعاش الانسان، لمدة طويلة من عمره على هذه الارض، متمتعا بالاصوات التي يسمعها، الا في لحظات عابرة، الى أن جاء العصر الحديث وتجمع كثير من الناس في المدن وسط آلات تكنولوجية مختلفة تصدر أصواتا عالية... وكانت النتيجة أن ارتفع مستوى الصوت المسموع الى حد الضجيج. وبدأ الانسان يلحظ أن للضجيج أثارا سيئة ومزعجة، فبدأ اهتمامه بدراسة الصوت والضجيج ودراسة الآثار التي يتركها الضجيج في صحة الانسان.

ولو تتبعنا بعضا من خطوات العلماء في هذا السبيل لتكونت لدينا فكرة واضحة عن هذا الموضوع... ففي البدء لا بد من الاشارة الى أن الصوت والضجيج نوع من أنواع الطاقة، وأن الموجات الصوتية هي موجات ميكانيكية طولية تصدر عن جسم يهتز وتنتقل في الاوساط المادية فقط، بمعنى أن الصوت لا ينتقل في الفراغ. ويكون انتقال الصوت على شكل سلسلة من الاضطرابات مكونة من سيل من التضاغطات والتخلخلات المتتالية والمتعاقبة.

وكان لا بد من تحديد الفرق بين الصوت والضجيج. وقد حاول العلماء أولا تحديد اطار عريض للفرق هذا في القول بأن الضجيج هو كل صوت غير مرغوب فيه. ولكن هذا التعريف مرن الى درجة يصعب معها تحديده علميا.. فالناس يختلفون اختلافا بينا فيما يعتبرونه صوتا غير مرغوب

فيه، فصوت الموسيقى الراقصة الصاخبة الحديثة ليس ضجيجا بالنسبة للشباب المشاركين في الرقص بينما هو ضجيج يصم الآذان بالنسبة لغيرهم من السامعين. والامثلة الاخرى على ذلك عديدة. كما يختلف الفرد نفسه في معيار ما يعتبره صوتا غير مرغوب فيه باختلاف حالته النفسية، فالانسان الفرح بنجاحه في أمر يتقبل مستويات من الضجيج لا يتقبلها في الظروف العادية ويتضايق منها عندما يكون حزينا أو غاضبا. كما يتغير هذا المعيار بتغير العمر.

ولهذا اضطر العلماء الى التعارف على مقياس يقيس منسوب شدة الصوت واتخذوا لذلك وحدة أسموها (بل) نسبة الى جراهام بل مخترع التلفون، وتمثل شدة صوت تساوى عشرة أمثال شدة عتبة السمع: أي أنها تساوى عشرة أمثال شدة عتبة السمع: أي أنها تساوي عشرة أمثال شدة الصوت الذي تبدأ الآذان الانسانية السليمة بسماعه. ولما ظهر أن هذه الوحدة كبيرة اتخذ العلماء وحدة أصغر هي الديسيبل وتساوي ١٠/١ من البل. ولايضاح مفهوم هذه الوحدة نورد القياسات التالية:

عتبة السمع أو أضعف الاصوات المسموعة لشاب صغير السن،	صفر ديسيبل
الهمس وحفيف أوراق الشجر الناجم عن نسيم نشط	20 ديسيبل
الكلام الهادىء على بعد متر	40 ديسيبل
مكان مزدحم بالناس يتحدثون	60 ديسيبل
شارع حركة المرور فيه عادية	60 ديسيبل
شارع مزدحم بحركة المرور	75 ديسيبل
صوت سيارة أو ناقلة متوسطة الحجم	80 ديسيبل
صفارة قطار وسيارة ناقلة ثقيلة	95 ديسيبل
دراجة نارية ومنبه سيارة	١٠٠ ديسيبل
صوت مصنع خفيف به آلات تدور أو ورشة عمل	١١٠ ديسيبل
طائرة نفاثة	١٢٠ ديسيبل
عتبة الالم أو الصداع	١٢٠ ديسيبل
مصانع ثقيلة	١٣٠ ديسيبل

صوت ثاقب الارض الدوار	130 ديسيبل
صوت حفلات الشباب الراقصة الصاخبة	130 ديسيبل
صوت بعض صفارات الانذار	140 ديسيبل

ويرى العلماء أن منسوب شدة الصوت الموائم للانسان بشكل عام يجب أن يكون في الحدود التالية:-

في غرفة النوم ما بين	27 و 60 ديسيبل
في مكاتب العمل ما بين	32 و 63 ديسيبل
في مكاتب السكرتيرات الطابعات ما بين	52 و 76 ديسيبل
المستويات القصوى المسموح بها في مناطق عمل الانسان العادي ما بين	40 و 80 ديسيبل

وبالطبع يتأثر الانسان بالاضافة الى منسوب شدة الصوت بطول المدة التي يتعرض فيها للصوت أو الضجيج وكلما كانت المدة أطول والتعرض متصلا زاد الاثر على الانسان قوة ووضوحا.

وبدأ العلماء والاطباء في البحث العلمي عن أثر الضجيج على الانسان وخرجوا بنتائج مذهلة منها أن الضجيج اذا تعرض له الانسان فترة من الزمن يؤثر على سمعه ويضعفه فاذا زاد التعرض أدى ذلك الى الصمم الكلي.. فقد وجد هؤلاء العلماء أن عددا كبيرا من الموسيقيين الشباب الذين يعزفون الموسيقى الصاخبة فقدوا سمعهم بعد فترة من عملهم وسط هذا الضجيج، كما وجدوا نفس المصير يصيب العديد من العمال الذين يعملون وسط ضجيج الآلات.

ولم يتوقف الامر عند هذا الحد بل تعداه الى أن ثبت أن الضجيج يؤدي الى انعكاسات نفسية شديدة الاثر على الانسان الذي يتعرض له وفوق ذلك فقد ثبت أن للضجيج تأثيرا ضارا على أعضاء هامة في جسم الانسان كالكبد والجهاز الهضمي والكلى وغيرها. ولعل الصداع الذي يسببه الضجيج من أكثر الآثار انتشارا وأشدها نتائج تؤلم الانسان وتشل قدراته.

ومن الغريب أن الانسان نفسه يزيد من تلويث الضجيج مباشرة بالاضافة الى زيادته له عن طريق آلاته التكنولوجية... وهو في ذلك كعادته دوما يضر نفسه أولا وقبل كل شيء عن جهل بما يعمل.

وعلاج الامر لا يحتاج الا الى وعي من الانسان بأخطار تلويث الضجيج

وبأن الامر يحتاج منه الى قليل من الجهد لتقليل الضجيج في بيئته. وقد اعترضت بعض الدول على مستوى الضجيج الذي تولده بعض الطائرات النفاثة الاسرع من الصوت، كما ابتكر المهندسون النوافذ المزدوجة الاسرع من الصوت، كما ابتكر المهندسون النوافذ المزدوجة لمنع وصول الصوت والضجيج الى داخل المنازل والغرف. وصدرت قوانين بتعليمات السلامة التي توجب على العاملين في وسط فيه ضجيج آلات أن يضعوا على آذانهم سدادات تمنع وصول الضجيج الى الآذان، وقد انتشرت هذه السدادات حتى صار الكثيرون يضعونها على آذانهم أثناء سيرهم في الشوارع ذات مستوى الضجيج العالي. وكذلك أخذت الدول تراعي حسن اختيار مواقع انشاء المطارات بالنسبة لبعدها عن المناطق السكنية.

التلويث الجرثومي:

يبدو أن الجراثيم خلقت قبل الانسان بزمن طويل... ولكن عددا من أنواعها تحورت أساليب حياته ليتطفل على الانسان وغيره من الكائنات الحية التي خلقت بعدها. ومنذ ذلك الوقت والجراثيم عامل هام في أية بيئة.. فمنها الجراثيم المتطفلة والجراثيم المترممة والجراثيم حرة المعيشة. ومع أن الجراثيم المتطفلة ضارة الا أن المترممة منها مفيدة جدا.. وصحيح القول بأن الجراثيم بشكل عام فائدتها أكثر من ضررها... على أن ذلك لا يعني أن الضرر أمر يمكن التجاوز عنه أو اهماله. وكلمة جرثومة ليست مصطلحا دقيقا بالمعنى العلمي لانها تشمل كائنات حية دقيقة مختلفة اختلافا بينا منها النباتي والحيواني، وحتى ما هو ليس من هؤلاء ولا من أولئك مما يجمع تحت اسم الفيروسات. ولكن هذا المصطلح يخدم فكرة شاملة ولا يحتاج الى تعريف.

وقد اهتم الانسان بهذه الجراثيم منذ أن اكتشفها ليفنهوك بمجهره الاول ومنذ أن ربط باستير وكوخ وغيرهما بينها وبين الامراض التي تصيب الانسان. وقد ذهل الانسان العلمي لهذا العالم من الكائنات الدقيقة الذي كان يعيش ويؤثر في الانسان وبيئته تأثيرات قوية فعالة دون أن يدري الانسان عن وجودها. وكان من الطبيعي أن يركز الانسان اهتمامه على الانواع الضارة منها - تلك التي تصيبه بشكل مباشر في أغلى شيء عنده

وهو صحته وحياته. ولكنه لم يهمل الانواع المفيدة، فقد عرف الشيء الكثير عنها وبدأ يسخرها لخدمته ومنفعته. أما الانواع الضارة فقد دخل الانسان العلمي في حرب لا هوادة فيها معها. واستنبط وسائل مختلفة في حربها.. وكان اكتشافه للاسلحة الكيماوية ثم أسلحة المضادات الحيوية وقبل ذلك أسلحة المقاومة الذاتية بالتحصين وخلق المناعة في الجسم من الانجازات الرائعة التي ما زال يفتخر بها لما حققته من نجاح باهر... غير أنه اكتشف قبل هذا سلاحا لا يقل قوة عن هذه ولا يقصر عنها في النجاح ضد الجراثيم وهو سلاح النظافة. ومع أن النظافة كانت أمرا مرغوبا فيه من ناحية جمالية وذوقية منذ القديم الا أنها اكتسبت أهمية خاصة ومنفعة ذاتية بعد أن عرف الانسان كم هي ناجعة في الحرب ضد الجراثيم. ويمتاز سلاح النظافة عن الاسلحة الاخرى في أنه بينما تحتاج تلك الاسلحة الى خبراء متخصصين من أطباء وغيرهم لاستعمالها، يمكن لكل انسان استعمال سلاح النظافة بنفسه، وهو بذلك يستطيع أن يهزم الجراثيم في حربها معه في أغلب المعارك قبل أن تبدأها.

والنظافة كل لا يتجزأ... اذ لا يمكن أن يعنى الانسان بنظافة جسمه دون العناية بنظافة غذائه أو شرابه أو ملبسه أو هوائه أو مسكنه أو حيه أو مدينته... أو حتى بقية الناس الذين يعيشون في المدينة معه أو يخالطونه. ذلك أن اهمال أي من هذه يؤدي رغم العناية بالبقية الى تعرضه للدخول في معركة ضد الجراثيم، مما قد يؤدي الى مرضه واضطراره للجوء الى الاسلحة الاخرى. ومرض الانسان بحد ذاته وبصرف النظر عن مضاعفاته يؤدي الى خسارة مادية ومعنوية وجسدية تؤثر فيه بأشكال شتى. وحتى نظافة الجسم نفسه كل لا يتجزأ فهي تشتمل على نظافة أعضائه كلها ولن يجدي الانسان أن يعنى بنظافة أعضاء من جسمه دون الاعضاء الاخرى... اذ أن مرض العينين مثلا دون بقية الجسم هو مرض للجسم كله وله مضاعفات خطيرة على صحة الانسان العامة.

وأكبر حليف للنظافة الوعي بها وفهم الوسائل التي تؤدي اليها.. فالطفل يقاوم النظافة ولا يحبها لجهله بالغاية منها، ولانها تطلب منه كواجبات ثقيلة دون أن يفهم الغاية منها ولا ما هي أهميتها بالنسبة له. ومعظم الكبار يعنون بالنظافة من حيث المظهر فقط. وهذه الظاهرة هي امتداد لمفهوم

النظافة من الناحية الجمالية والذوقية، لا من زاوية أنها سلاح ناجع فعال في حرب الانسان ضد الجراثيم المتربصة به. وحتى المجتمعات بما فيها السلطات البلدية تهتم بالنظافة من ناحية مظهرية جمالية أكثر من اهتمامها بها من وجهة صحية. ونجد معظم حملات التوعية بالنظافة تنحو الى مناشدة المواطنين المحافظة على مدينتهم نظيفة والتركيز هنا على الناحية الجمالية والذوقية. ولما كان الجمال والذوق شيئين نسبيين، ونظرا لضعف الوعي بأن النظافة كل لا يتجزأ ولضعف الاحساس بالمسئولية الجماعية تذهب صرخات هذه الحملات الدعائية أدراج الرياح.

ان الواجب يقتضي أن نستعمل سلاح النظافة على جميع المستويات وأن نستغله بأقصى درجات الكفاءة استغلالا كاملا.. وهذا يستلزم تثقيفا هادفا للفرد في المدرسة والبيت والمجتمع. كما يستلزم التشريع لان تصمم البيوت بحيث لا تترك مشكلة التخلص من القمامة واختزانها لجهد السكان واجتهاداتهم، وكذلك أن تعطى عملية التصرف بالقمامة المتجمعة من البيوت اهتماما أكبر من حيث الاسلوب وما يعمل بها بعد جمعها. وقد سبق أن أشرنا الى وسيلة الافادة منها في معرض الحديث عن تلويث الارض.

ويجب أن يكون واضحا أن الجراثيم تترعرع حيث تكون القذارة وتقل وتضعف في وجه سلاح النظافة، وأن صحتنا وحياتنا هما المستهدفتان بهجوم الجراثيم، وليس أقل من أن نجهد في سبيل الحفاظ عليهما. ويمكننا، نظرا لطبيعته الوقائية التي تشبه طبيعة النظافة، أن نلجأ الى سلاح التحصين والتطعيم كعامل مساعد لا كبديل. ذلك أن الامراض التي يمكن التحصين ضدها ليست كل الامراض التي قد يتعرض لها الانسان، وحتى لو توصل العلم لهذا يكون من الاجدى أن نحارب بكل الاسلحة المتاحة حتى نضمن النصر ضمانا أكيدا لا شك فيه.

ان من الواضح أن مثل هذه العناية الشاملة بالنظافة توفر مبالغ هائلة تصرف الان على النواحي العلاجية وكان من الممكن تحاشي صرفها وتوفيرها.

ومن المهم أن نتذكر أن الاهتمام بالنظافة كسلاح عملية تربوية يشارك فيها البيت والمدرسة والمجتمع ومؤسساته الرسمية وغير الرسمية.. ويجب أن تكون غاية هذه العملية التربوية اكساب الفرد عادات ومعايير سلوكية

تنعكس على مفهوم النظافة واستخدامها والمحافظة عليها لمنفعة الفرد أولا ومنفعة المجتمع بالنتيجة تاليا.

٦ مشكلة الطاقة

الطاقة أساس الكون... وقبل أن كانت المادة كانت الطاقة... وقد ثبت أن الطاقة، لا المادة، هي التي لا تفنى ولا تستحدث من العدم.. وبدون الطاقة لا يمكن للحياة أن تكون أو تستمر. وبدونها لا يمكن أن تكون هناك حركة من أي نوع... ويستوي في ذلك حركة الاحياء وحركة الجماد. وعلى ذلك فالطاقة أمر هام جدا لا للحياة برمتها فحسب بل وللوجود كله.

وليس غريبا، والحالة هذه، أن تكون الطاقة أو ما يستهلك منها معيارا لرقي الامم. فالامة التي تستهلك قدرا أكبر من الطاقة تكون حكما أكثر حركة.. والحركة فوق أنها مظهر من مظاهر الحياة تعكس مبلغ النشاط وما يحقق من عمل.

ومنذ أن استخدم الانسان قديما طاقة الغذاء المنطلقة في عضلاته للقيام بأعماله وأشغاله، مرورا باستخدامه لعضلات الحيوانات التي دجنها واستعماله للآلات البسيطة التي اخترعها، فالآلات الاكثر تعقيدا... حتى بزغ عصر الحضارة العلمية التكنولوجية، والطاقة تلعب دورا أساسيا وحيويا في حياة الانسان.

ولا يمكن أن يتصور المرء كيف يمكن أن يعيش

الانسان المعاصر بدون الطاقة، أو بالاحرى، بدون مقدار كبير متزايد منها. فهو في سكنه وفي عمله وفي تنقله وفي حصوله على غذائه واعداده لطعامه وفي دراسته ومتعته واتصالاته ومحافظته على صحته وانتاج صناعاته الخ...، يعتمد اعتمادا كليا على الطاقة. وقد ازداد اعتماد الانسان على الطاقة كما وكيفا... فبالاضافة الى أن أبسط حاجياته صار يستخدم في قضائها أجهزة تعمل بالطاقة، تيسرت له سبل الحصول على الطاقة دون جهد ودون أن يكون له نصيب في توفيرها... فبينما كان الانسان قديما يجمع الحطب ويقطعه ويختزنه لاستعماله في انتاج الطاقة الحرارية، صار اليوم يكفيه أن يضغط على زر أو يدير مفتاحا ليحصل على الطاقة الحرارية أو غير الحرارية التي يريد.

وقد تنوعت مصادر الطاقة التي يستخدمها الانسان المعاصر.. غير أن اعتماده على النفط اليوم يفوق اعتماده على غيره من مصادر الطاقة.

ومن المناسب في هذا المجال أن نستعرض مصادر الطاقة المتاحة للانسان واستعماله. وفي رأينا، تنقسم هذه المصادر الى قسمين: الاول المصادر الناجمة عن طاقة الشمس، والثاني المصادر التي لا تنجم عن طاقة الشمس.

المصادر الناجمة عن طاقة الشمس:

وتشمل طاقة الغذاء والحطب والفحم الحجري والنفط والغاز الطبيعي وطاقة الرياح وطاقة الشمس وطاقة مساقط المياه والتيارات النهرية والبحرية وطاقة المد والجزر وطاقة اختلاف درجات حرارة طبقات الماء في البحار وطاقة امتزاج الماء العذب بالمالح في مصبات الانهار وطاقة الكهربية الجوية وطاقة البطاريات الحيوية.

المصادر التي لا تنجم عن طاقة الشمس:

وتشمل الطاقة النووية الانشطارية والاندماجية والطاقة الحرارية في باطن الارض وطاقة البخار الذي يحمص بطاقة حرارة باطن الارض، وطاقة احتراق الهيدروجين وطاقة المزدوجات الحرارية.

ونظرة عابرة الى هاتين القائمتين تعطى انطباعا بأن مصادر الطاقة المتاحة للانسان عديدة ومتنوعة وموزعة كما تشكك في موضوع هذا الباب

وأن هناك مشكلة أو أزمة طاقة.

والحقيقة أنه لا بد من الاعتراف بأن المصادر تبدو كثيرة وكافية، ولكنها حقيقة أيضا أن بلادا عديدة في العالم وبخاصة المتقدمة منها تعاني من نقص في كمية الطاقة المتوفرة وأنها تلجأ الى تخزين النفط وتتحمل ارتفاع أسعاره كما توظف أموالا كبيرة في البحث عن بديل أو بدائل عن النفط كمصدر للطاقة.

ومشكلة النقص القائمة نابعة من أمرين: الاول تزايد الحاجة الى الطاقة بتزايد أعداد الناس، وتزايد احتياجات الفرد للطاقة وبخاصة في الدول الصناعية المتقدمة. والثاني أن معظم الطاقة المطلوبة سواء لحاجات الفرد المباشرة أو لآلاته ومصانعه هي من النفط بالدرجة الاولى ومن الكهرباء المولدة بوسائل مختلفة بالدرجة الثانية، علما بأن قسما لا يستهان به من هذه الكهرباء مولد من النفط أو مشتقاته أيضا. ولعل في التركيز على مصدر من مصادر الطاقة كل هذا التركيز، السبب الرئيسي للاحساس بوجود نقص.. ولكن الاحساس بوجود نقص فعلي أو محتمل ليس مشكلة بالمعنى الصحيح... ذلك أن المشكلة تكمن، بالاضافة للسببين الذين أوردناهما، في أن كمية النفط في الكرة الارضية محدودة. واذا حسبنا الاحتياطي المؤكد والمحتمل وحسبنا مبلغ ما يستخرج ويستهلك منه سنويا وما سيزداده هذا الاستهلاك مستقبلا حسب معدلات الزيادة المرتقبة، فاننا نجد أن كل هذا النفط لن يبقى لاكثر من مائتي سنة على أبعد احتمال... وستقل كمياته تدريجيا الى حد أن تصبح غير كافية لتلبية احتياجات الانسان قبل ذلك بكثير - ولربما خلال النصف الثاني من القرن الحادي والعشرين.

ولعل مما يثير العلماء والتكنولوجيين أنهم يرون أن الاعتماد على النفط كمصدر للوقود والطاقة خطأ من الاساس ويرون أن تصميم الآلات التكنولوجية بحيث تعمل على النفط ومشتقاته من الاخطاء التي سيندم عليها الانسان كثيرا في المستقبل. ذلك أن النفط ومشتقاته مواد خام لاكثر من ألف مادة صناعية ودوائية هامة. والنفط بهذا المفهوم أثمن كثيرا من أن يحرق كوقود لانتاج الطاقة. ويزيد في هذه الاهمية أن الانسان محتاج الى بدائل عن معادنه في محاولته حماية البيئة وادارتها بتعقل وحكمة ومن أهم

البدائل المتيسرة في هذا العصر البلاستيك وأشباهه وهي مواد مصنعة من النفط ومشتقاته.

وعلى ذلك تكون صورة المشكلة على الوجه التالي:

النفط - أكثر مصادر الوقود استهلاكا - محدود وسينتهي ان عاجلا أو آجلا. وهو، كمادة خام، أثمن كثيرا من أن يستخدم كوقود لانتاج الطاقة فقط. ويجب على الانسان الذي يهتم بمستقبل الحضارة والانسانية أن يفكر جديا من الان في ايجاد بدائل مناسبة وكافية لتكون مصادر للطاقة التي سيحتاجها والتي ستكون على الدوام متزايدة.. على أن ايجاد البدائل سيضطره الى تغييرات جذرية في تكنولوجية آلاته، والى تحمل زيادة ملحوظة في أسعار الطاقة وبالتالي في أسعار آلاته. ولا يبدي الانسان التكنولوجي - حتى الان - حماسا لتحمل تكاليف اضافية في سبيل تغيير تصميم آلاته لتستطيع العمل بطاقة غير النفط. ولا نرى جهدا ايجابيا يصرف في البحث العلمي في هذا المجال. والمشكلة أن الوقت ليس في صالح الانسان ويكاد يكون من المؤكد أن ينقضي الوقت قبل أن يصل الانسان الى حل مرض، اذا استمر جهده وبحثه العلمي يسيران بالسرعة الحالية، وهنا تكمن بذور الكارثة.

ذلك أنه لو وصلت الامور الى حد المجابهة وأصبحت كميات الطاقة المتاحة للاستهلاك أقل مما يحتاجه الناس والتكنولوجيا فان الازمة تطل بقرنها بشكل حاد. فاذا ما تناقصت هذه الكميات بشكل واضح ملحوظ فان عجلة التكنولوجيا تقف، وتتعطل أهم أسس الحضارة الحديثة ومقوماتها، ويقف الانسان وسط هذا ضائعا لا يدري ما يفعل ولا كيف يعيش.

الابحاث العلمية واتجاهاتها في هذا المجال:

تتجه أبحاث العلماء اتجاهات مختلفة متعددة تغطي مجالات واسعة. وهذا بحد ذاته دليل على احساس العلماء بأن الهدف المرتجى وهو توفير الطاقة بقدر متزايد - صعب المنال عسير التحقيق. ومن هذه الاتجاهات ما يلي:

ا- الاستعانة بالآلات الدقيقة المطورة والاساليب التكنولوجية الحديثة في الكشف عن مصادر جديدة للنفط أو الغاز الطبيعي بما في ذلك استعمال

الاقمار الصناعية المزودة بأجهزة تصوير خاصة تعمل بموجات ذات أطوال مختلفة. وقد أدت هذه الاساليب والاجهزة الى اكتشاف حقول جديدة للنفط في بقاع جديدة لم يكن بالوسع اكتشافها بالطرق والاساليب التقليدية كاكتشاف حقول النفط في قاع البحر (كبحر الشمال) وفي المناطق المغطاة بالجليد معظم أيام السنة (كمناطق الاسكا) وفي صحارى غير مطروقة (كالربع الخالي) وفي مناطق يصعب الوصول اليها (كبعض مناطق الغابات الاستوائية). وواضح أن استمرار استغلال هذه الاجهزة المعقدة والاساليب التكنولوجية سيؤدي الى مسح دقيق لكل مناطق الارض وتحديد أماكن وجود النفط فيها.

غير أن هذا الاتجاه وان زاد من كمية النفط المتاح لاستعمال الانسان لن يؤدي الى حل المشكلة أو تخفيفها.. بل لعل ازدياد الكشف عن مكامن النفط في هذه الايام يشجع على استمرار استعماله كوقود لفترة أطول وتأجيل البحث الجاد عن بدائل وعن طرق تحويل الآلات التي تعمل به لتعمل بغيره.

ولعل هذا، بدلا من أن يخفف من حدة المشكلة الحقيقية، يزيدها تعقيدا ويجعل الانسان أقرب للوقوف وجها لوجه أمام التحدي الكبير الخطر في المستقبل غير البعيد.

2- البحث العلمي في تيسير استخلاص النفط من الطفل النفطي والرمال النفطية. ففي مناطق متعددة من العالم توجد كميات من صخور الطفل والرمال المشبعة بالنفط. وقد كان من الصعب جدا ان لم يكن من المستحيل الافادة من هذا النفط أو استخلاصه بشكل اقتصادي. غير أن البحث العلمي في هذا المجال نجح في ايجاد سبل اقتصادية لفصل النفط عن الطفل والرمل. ومن الممكن، لو استغلت مصادر الطفل والرمل النفطي جميعها، أن تعطينا كمية لا بأس بها من النفط. ولكن هذا أيضا ليس الاتجاه الصحيح. فلو ترك هذه النفط مرتبطا بصخوره الان ليفصل مستقبلا كان بالامكان الافادة من النفط المستخلص عندها في الصناعات البتروكيميائية كمادة خام ينتج عنها العديد من المركبات الهامة واللازمة للانسان كالنايلون والبلاستيك ومشتقات البتروكيماويات الاخرى عن أسمدة وأدوية وأصباغ ومبيدات حشرية ومطاط صناعي الخ...

3- البحث العلمي في تحويل الفحم الحجري والقمامة الى نفط. فالمعروف

أن الكميات المتوفرة من الفحم الحجري في مناطق عديدة من العالم أكثر بكثير من كميات النفط. ففي الولايات المتحدة الامريكية من احتياطي النفط ما يكفيها لاقل من ثمانين عاما بينما لديها من الفحم الحجري ما يكفيها أكثر من خمسمائة سنة. ولكن استعمال الفحم الحجري غير ممكن في الآلات التكنولوجية حسب التصميم الحالي فيما عدا بعض الصناعات، كما أن حرق الفحم الحجري يخرج غازات تلوث الهواء الجوي بشكل أكثر ايذاء من تلويثه بالغازات الناتجة عن حرق النفط. ولذا سعى العلماء الى تحويل الفحم الحجري الى نفط أو غازات نفطية بمعاملته ببخار الماء على درجات حرارة عالية وتحت ضغط. وقد نجحوا في ذلك. ولكن العقبة القائمة في الوقت الحاضر هي في كلفة الانتاج العالية. ويأمل العلماء أن يتمكنوا من تخفيض هذه الكلفة في المستقبل القريب وبذا يكون بوسع الانسان الاعتماد على مصدر جيد جدا من النفط المصنع أو المخلق.

كما تمكن العلماء من معالجة القمامة والنفايات العضوية التي تتكاثر بتكاثر أعداد الناس وتزايد نفاياتهم ومخلفاتهم. وقد أشرنا قبلا الى محاولات العديد من المجتمعات للافادة من هذه النفايات في التسميد وغيره. غير أن العلماء نجحوا في معالجة هذه النفايات بنفس الطريقة التي عالجوا بها الفحم الحجري وأنتجوا من ذلك النفط.

4- البحث العلمي في العودة الى استغلال طاقة الرياح وتحسين ذلك. ونحن نعلم أن الانسان استخدم طاقة الريح في سفنه الشراعية وفي طواحين الهواء منذ أمد بعيد. وقد اتجه بعض العلماء الى البحث العلمي في تحسين الافادة من هذه الطاقات المهدورة حاليا، وصاروا يحولون طاقة الريح الى طاقة كهربية تختزن في مراكم أو (بطاريات) خاصة تستعمل كطاقة في اضافة المنازل وتشغيل الاجهزة الكهربية فيها. وقد أمكن وضع أجهزة مع المراوح الهوائية تغير من اتجاهها بحيث تكون دوما في وضع يسمح للريح مهما تغير اتجاهها بتحريكها وبالتالي توليد الكهرباء نتيجة ذلك.

5- البحث العلمي في زيادة استغلال طاقة الحركة المائية.. وكان الانسان قد استغل طاقة جريان الماء في ادارة الطواحين المائية أو شلالاتها في توليد الكهرباء. وقد عاد بعض العلماء الى هذه المصادر فحسنوا فيها وطوروها كأن قاموا بعمل شلالات صناعية أو سدود تندفع بعدها المياه

بقوة فتحرك توربينات تولد الكهرباء كما عمقوا مجاري بعض الانهار بشكل مائل بحيث زادت سرعة جريان ماء النهر فيها واستغلت هذه الطاقة في توليد الكهرباء ايضا بنفس الاسلوب. ففي كندا بنيت ثلاثة سدود ومن اندفاع الماء عبرها ولدت كهرباء تعطي طاقة لمنطقة شاسعة تبلغ مساحتها أكثر من ضعف مساحة بريطانيا، وكذلك تولد عن السد العالي طاقة كهربية تكفي لاعطاء مصر العليا كل الطاقة التي تحتاج بما في ذلك طاقة المصانع العديدة التي أنشئت فعلا وقد تنشأ مستقبلا. وواضح أن هناك شلالات طبيعية عديدة لم تستغل بعد وهي موزعة في أماكن مختلفة من العالم، مثل شلالات فكتوريا وشلالات النيل الازرق في الحبشة. كما أن بالوسع تحوير مجاري الانهار في معظم بقاع العالم لتولد شلالات أو سرعة اندفاع مائي يمكن الافادة منها في توليد الكهرباء.

وكذلك تمكن العلماء من استغلال المد والجزر في توليد الكهرباء وخزنها. وهذه الوسيلة متاحة لكل بلد ساحلي في كل مكان من الارض. ذلك أن المد والجزر يتعاقبان على كل نقطة ساحلية بحيث يحدث مدان وجزران كل حوالي 24 ساعة. ولئن كان مدى المد والجزر طبيعيا مختلفا حسب طوبوغرافية الساحل والرف القاري فان بالوسع أن يحور الساحل والرف القاري في مجار خاصة، في المناطق التي لا يكون مدى المد والجزر فيها كبيرا، بحيث يمكن الافادة من حركة الماء في المد والجزر لتوليد الكهرباء وخزنها حسب الحاجة. وقد تمكن المهندسون في مقاطعة بريتاني في فرنسا من استغلال المد والجزر بشكل مكنهم من توليد طاقة كهربية تكفي منطقة كبيرة من تلك المقاطعة.

6- تطوير وسائل انتاج الكهرباء من حدود امتزاج الماء العذب بالمالح في مصبات الانهار ومن اختلاف درجات الحرارة في طبقات الماء في البحار وكذلك انتاج الكهرباء في بطاريات حيوية عمادها كائنات حية تتغذى على مواد عضوية - قد تكون نفايات - وتستغل طاقتها في انتاج الكهرباء.

والوسيلة الاولى التي تعتمد على الطاقة المنبعثة من امتزاج الماء العذب بالمالح في مصبات الانهار يمكن أن تولد كميات كبيرة من الطاقة الكهربية، فمثل هذا الاستغلال في مصب شط العرب في الخليج يمكن أن يولد طاقة تسد جزءا كبيرا من احتياجات مدينة البصرة مثلا. أما الوسيلة الثانية

فيمكن، نظرا لاتساع مساحات البحار وأحجامها، وضع أعداد هائلة من المولدات الكهربية التي تعمل على مبدأ اختلاف درجات الحرارة في طبقات مياه البحار وبالتالي تكون الحصيلة كبيرة. أما الوسيلة الثالثة فيمكن أن تعتمد في السفن وبذلك تقلل الى حد كبير من كمية الطاقة التي تستهلكها هذه السفن وبذلك تقلل كلفتها ويصبح النقل البحري أرخص.

7- البحث العلمي في طرق استغلال الحرارة الباطنية في الارض. وهذه الحرارة تنجم عن المواد المشعة الموجودة في صخور القشرة الارضية حتى عمق 20 ميلا. وتقدر كمية الحرارة الباطنية التي تنبعث من هذه المواد المشعة وتشع من سطح الارض بحوالي 250 X 10 12 حصان/الساعة كل سنة. وهذه الكمية تساوي أربعة أضعاف مستوى احتياجات العالم من الطاقة بكل أشكالها حسب احصائيات سنة 1970. وواضح أن هذا المصدر من الطاقة لم يستغل بعد الاستغلال اللازم. اذ أن سبل استغلاله حاليا تقتصر على استغلال بخار الماء المحمص أو الساخن جدا الذي ينبعث طبيعيا من باطن الارض نتيجة مرور الماء الجوفي بالقرب من صخور مشعة حارة ووجود صدع في صخور القشرة الارضية يسمح لبخار الماء بالخروج الى السطح تحت ضغط. وقد أمكن السيطرة على هذا البخار وامراره في أنابيب خاصة الى المدن القريبة من نقاط انبعاثه، وهناك استخدم في التدفئة والطهي وادارة التوربينات الخاصة بتوليد الكهرباء. وقد بدىء حديثا بافتعال هذا صناعيا بأن يتقرر بالمسح الجيولوجي الخاص وجود صخور مشعة حارة ويتقرر العمق الموجودة فيه ثم تحفر بئران متجاورتان الى عمق تلك الصخور، كما تحفر آبار النفط، وبعد ذلك يضخ الماء في احد البئرين ويتبخر الماء بملامسته للصخور الحارة ويسخن البخار فيرتفع في البئر الثانية الى السطح حيث يتحكم في سيره في الانابيب المتصلة بذلك البئر الى حيث يستخدم في انتاج الطاقة الكهربية والحرارية.

ولو أن الارض مسحت جيولوجيا بهدف التعرف على تجمعات الصخور المشعة الحارة والاعماق الموجودة فيها لامكن انتاج كمية لا بأس بها من الطاقة في مناطق متعددة من العالم.

كما أننا نامل ان يتمكن العلم والتكنولوجيا من ايجاد سبل اخرى للافادة من الحرارة الباطنية بوسائط أخرى نظرا لأن وسيلة استخدام الماء وتحويله

الى بخار لا تستنفد طاقة حرارة الصخور الباطنية بل لعلها لا تستنفد غير جزء يسير منها.

8- البحث العلمي في الافادة من الكهربية الجوية وتسخيرها. وتشمل الكهربية الجوية البرق والصواعق والشحنات الكهربية الساكنة في السحب المختلفة وتيارات الهواء المحمل بالرطوبة. ولعل محاولة تسخير هذه الكهربية أصعب ما يواجهه البحث العلمي. غير أن عدم تمكن البحث العلمي الان وفي المستقبل القريب من ايجاد وسيلة لاستخدام هذه الكهربية وتسخيرها لا يعني اطلاقا أن ذلك مستحيل، اذ أثبت العلم مرارا وتكرارا قدرته على تحقيق ما يبدو مستحيلا اليوم في وقت ما مستقبلا.

فاذا ما تمكن العلم والتكنولوجيا من ترويض الكهربية الجوية واستخدامها فان بالوسع توفير حوالي ثلث احتياجات العالم من الطاقة.

9- الافادة من طاقة الشمس..

أشرنا الى أن أنواعا عديدة من الطاقة المتاحة للانسان تنجم عن طاقة الشمس أصلا، وعرفنا أن جو الارض يمتص ويعكس كمية كبيرة من طاقة الشمس ويمنع وصولها الى سطح الارض، ومع ذلك فان الطاقة المشعة من الشمس والتي تصل الى سطح الارض تقدر بحوالي 4 X 10 23 أرج في الثانية وهذا يساوي الطاقة المنبعثة من حرق ثلاثة ملايين طن من الفحم الحجري في كل ثانية. وهذه كمية من الطاقة تزيد أضعافا مضاعفة عن احتياجات الانسان اليوم وفي المستقبل البعيد.

وكان من الطبيعي أن يتجه العلماء في بحثهم عن بدائل لطاقة النفط الى طاقة الشمس وقد نجحوا في مجالات عديدة. غير أننا مازلنا ننتظر نجاحهم في أسر هذه الطاقة وتسخيرها بشكل ضخم وفعال من جميع الوجوه. وقد حفزهم نجاحهم في توفير الطاقة لمركبات الفضاء والمختبرات الفضائية والاقمار الصناعية والمركبات القمرية والمريخية من الشمس مباشرة الى البحث الجاد لتعميم ذلك على سطح الارض.

وقد تم حتى الان انتاج أجهزة للافادة من طاقة الشمس بأساليب مختلفة منها تجميع الاشعة الحرارية من الشمس وامتصاصها وجعلها تسخن ماء يمرر عندما يسخن في أنابيب لاستعماله. وهذه الوسيلة جيدة لتسخين المياه في البيوت. ومنها أيضا امتصاص أشعة الطاقة الشمسية على ألواح

خاصة وتحويل الطاقة التي يحصل عليها من ذلك الى طاقة كهربية تخزن في مراكم (بطاريات) ضخمة خاصة لاستعمالها عند الحاجة بشكل متصل... وهذه الوسيلة هي التي استخدمت في الاقمار الصناعية ومركبات الفضاء والمختبر الفضائي والمركبات القمرية والمريخية وما أرسل لاستكشاف الزهرة. وقد يكون مفيدا أن نقول ان كل الطاقة الكهربية التي استخدمت في مختلف هذه المركبات الفضائية بما في ذلك الطاقة لارسال صور تلفزيونية الى مركز المراقبة على الارض والطاقة الكهربية التي استخدمت في تحريك السيارة أو العربة القمرية وكذلك أذرع المركبة المريخية كانت طاقة كهربية تحولت عن طاقة الشمس الاشعاعية. ويفكر العلماء اليوم في انشاء مجموعات من مستقبلات أشعة الشمس وتوليد كميات كبيرة من الطاقة الكهربية تكفي لادارة مصانع وسد احتياجات مدينة كاملة.

على أن ما يثير العلماء ويحفز خيالهم وحماسهم بشكل أوضح هو امكان توليد الهيدروجين من أشعة الشمس.

والهيدروجين كما سنوضح فيما بعد هو في رأي العلماء الوقود الممتاز للمستقبل.

والعلة الوحيدة في محاولة تدجين طاقة الشمس وتسخيرها يكمن في أن الغيوم والضباب من ناحية والليل من ناحية أخرى يوقفان هذه العمليات ويعطلانها. وقد استطاع العلماء - على نطاق جريبي - اقامة محطة فضائية تستقبل طاقة الشمس وتحولها الى شكل موجي معين من الطيف الكهرومغناطيسي ومن ثم ترسل هذه الموجات لتستقبل على الارض بأجهزة خاصة وتحول عندها الى طاقة كهربية. وهكذا يمكن لهذه المحطة أن تعمل مهما كانت حالة الطقس على سطح الأرض باستمرار لمدة تقارب 23 ساعة من كل 24 ساعة في اليوم - هي الفترة التي تواجه فيها الشمس.

10 تطوير الطاقة النووية الانشطارية:

منذ أن تمكن الانسان العلمي من شطر نواة الذرة وأطلق طاقة هائلة من عقالها والفكر الانساني يعمل في وجل تحت ظل الانشطار النووي. وحتى نوضح مبلغ الطاقة التي يمكن أن تنطلق من انشطار الأنوية يكفي أن نشير الى أن حرق رطل من الفحم أو (452) جراما يعطينا 10ر000 وحدة حرارية بريطانية أو 10 14 ارج من الطاقة. ولكن لو انشطرت أنوية هذه

الكمية من الفحم فانها تنتج 4ر5 X 10 22 ارج أو ما يعادل مليوني طن من الفحم تحرق حرقا. وواضح ضخامة مبلغ الطاقة التي يمكن الافادة منها عن طريق الانشطار النووي، غير أن العقبة تكمن في أن ما أمكن شطره من أنوية المواد بالاساليب التكنولوجية المعروفة عند الانسان والمتاحة له يقتصر على بعض المواد المشعة وبخاصة اليورانيوم 235. ولما كانت كميات اليورانيوم 235 وأية نظائر بل وأية مواد أخرى قابلة للانشطار محدودة في الارض وقابلة للنفاذ، جوبهنا بنفس المشكلة وعدنا من حيث بدأنا مع النفط والفحم.

وقد بدأت في الافق بارقة أمل توحي بامكان حل هذه العقبة. وهذه البارقة هي أن المفاعلات النووية يمكن أن تحيل مواد عديدة الى وقود نووي... ويرى العلماء أن انشاد عدد من المفاعلات النووية هذه، التي يسمونها بالمفاعلات المولدة يمكن أن يساعد في حل المشكلة بأن يقتصر عملها على توليد وقود نووي يستخدم في المفاعلات العادية التي تنتج الطاقة. واذا طورت هذه الظاهرة أمكن تخطي مسألة نقص اليورانيوم ومحدوديته ولكن الى حين، ولو بعيد... ذلك أن كل مادة ليست بغير حدود.

وعلينا فوق ذلك أن نأخذ بعين الاعتبار موضوع التلويث الاشعاعي الذي أشرنا اليه قبلا ولم يستطع العلماء حتى اليوم ايجاد حل ناجع له. كما أن هناك تخوفا دائما من أن تغري دول كثيرة، ان توفرت لها المفاعلات النووية بهدف الحصول على الطاقة، على أن تقوم بصنع قنابل نووية لاستعمالها في الحرب والعدوان. وهذا التخوف قائم في نفوس العلماء، وتشترط اليوم الدول التي تبيع غيرها مفاعلات نووية شروطا متعددة منها أن يكون لها الحق في التفتيش على المفاعل واستعمالاته بأمل أن تحد من اغراء المشتري على انتاج الاسلحة النووية.

غير أن الكل يعلم أن كل هذه الاشتراطات عديمة الجدوى اذا ما أرادت الدولة مالكة المفاعل أن تستعمله في انتاج أسلحة نووية هجومية.

١١- الهيدروجين وقود المستقبل.

الهيدروجين أخف العناصر وأبسطها تركيبا... وقد كان ومازال، حسب رأي العلماء، المادة الاساسية التي بني منها الكون - وبذا يكون مصدر الطاقة الاساسية في الكون. ولذا يبدو منطقيا الالتجاء اليه كمصدر طاقة المستقبل.

فمن الهيدروجين تكونت بقية العناصر الاخرى. وتفاعلت مع بعضها كما تفاعل الهيدروجين مع كثير من العناصر تفاعل اتحاد كيماوي، وحتى في التفاعلات الحيوية داخل خلايا الجسم وفيما بينها يلعب الهيدروجين دورا رئيسيا لا يمكن تجاهله أو الاستغناء عنه. بل أن الهيدروجين هو السبيل الرئيسي لربط الطاقة في مركبات الجسم سواء أكان نباتيا أم حيوانيا.

أما الهيدروجين الحر الذي كان في الكرة الارضية أو حواليها فقد اتحد جزء منه بالاكسجين وغيره من العناصر، وما تبقى منه بعد ذلك هرب من جو الارض لخفته وعدم قدرة جاذبية الارض على الاحتفاظ به... ولولا ذلك لما بقي في جو الارض أكسجين أصلا.

والهيدروجين يحترق في وجود الاكسجين مولدا طاقة ومنتجا الماء... أي أنه وقود كالنفط أو الفحم، يفارق واحد هو أن الناتج ماء في حالة الهيدروجين بينما هو ثاني أكسيد الكربون في حالة الفحم وثاني أكسيد الكربون وماء في حالة النفط. وفوق ذلك يخالط نواتج احتراق النفط والفحم غازات أخرى ملوثة للجو، كما أشرنا من قبل، بينما لا يخالط نواتج احتراق الهيدروجين أي غاز ملوث. وهذه ميزة عظيمة.

والمصدر الرئيسي والطبيعي للهيدروجين هو الماء... أكثر مادة متوفرة على هذه الكرة الأرضية. فبتحليل الماء كهربيا ينفصل الهيدروجين عن الاكسجين. ويمكن ضغط الهيدروجين كغاز في اسطوانات، كما يمكن اسالته بالضغط والتبريد الشديد وبذا يسهل نقله.

ولما كانت عملية تحليل الماء كهربيا وضغط الهيدروجين أو اسالته تحتاج الى طاقة فان العلماء يعتقدون بأن الطاقة اللازمة يمكن أخذها من الطاقة الشمسية بسهولة، فوق امكان توليد الهيدروجين من الطاقة الشمسية رأسا وبدون تحليل الماء.

والميزة الكبرى في استعمال الهيدروجين هي في عدم امكان نضوبه لان في استعماله اعادة لانتاج مصدره... اذ أن الهيدروجين، كما ذكرنا، يأتي من الماء وعند حرقه كوقود ينتج الطاقة ويولد الماء مرة أخرى وهكذا دواليك.

ولكن علينا أن ننتبه الى أنه مع وجود هذه الميزات الضخمة لاستعمال الهيدروجين مازالت هناك عقبات تكنولوجية نرجو أن يتمكن العلم من

تذليلها في المستقبل القريب. ومن هذه العقبات الضخمة أن الهيدروجين اذا خالطه الاكسجين أو غازات ومواد أخرى بنسب معينة يصبح قابلا للانفجار.

وانفجاره عنيف جدا يهدد حياة الانسان تهديدا قويا مباشرا. ومازال العلماء في حيرة من سلوك الهيدروجين وانفجاره. وما لم تتضح معالم صورة سلوك الهيدروجين في جميع الحالات بشكل لا غموض فيه يظل العلماء مترددين في التحمس لانتشار استعماله وبخاصة كوقود في السيارات التي يستعملها عدد من الناس ويمكن أن يتجمعوا حولها وفي ذلك ما فيه من تعريضهم لخطر الموت فيما لو حدث انفجار.

ومن العقبات التكنولوجية الاخرى ان اسالة الهيدروجين تستلزم تبريدا شديدا مع ضغط كبير... والمصانع التي تسيل الهيدروجين في العالم ما زالت محدودة عددا. مما يدل على مدى صعوبة العملية تكنولوجيا، غير أن ذلك لا يعني عدم امكان تذليل الصعوبات في المستقبل.

على أن التطور المثير المنتظر هو في ترويض الطاقة النووية الاندماجية باستختدام الهيدروجين أساسا لهذا الاندماج. وهذا ليس بدعة في الطبيعة، ذلك أن الطاقة المنبعثة من الشمس مصدرها مثل هذا الاندماج الذي ينتج الهيليوم وكميات هائلة من الطاقة تشعها الشمس، وهو الاسلوب الذي قلده الانسان في القنبلة الهيدروجينية، وهو أيضا الذي جرى عند بدء الخليقة وولد العناصر المختلفة تباعا من الهيدروجين أصلا. ويستطيع عالم الكيمياء أن يشرح مستعينا بلائحة الجدول الدوري للعناصر تسلسل تكون العناصر مبتدئا بالهيدروجين كأساس لهذه العملية.

وقد نجح العلماء في احداث هذا الاندماج بما يعرف بالقنبلة الهيدروجينية، ولكنهم لم ينجحوا حتى الان في تطويع هذا النوع من الطاقة للاستخدامات السلمية. والسبب يرجع الى أن الحرارة المنبعثة من الاندماج النووي الهيدروجيني هائلة الى حد أنه لا يوجد معدن أو سبيكة معدنية معروفة يمكن أن تتحمل هذه الحرارة. أي أن غلاف المولد الذي سيجري فيه الاندماج النووي سينصهر ويتبخر وبذا يضيع المولد. وقد حاول العلماء تخطي هذه العقبة بمحاولة اجراء الاندماج النووي في الفراغ على أن يمسك الهيدروجين المندمج في الفراغ بوساطة مجال مغناطيسي قوي

جدا، وهناك محاولات أخرى على غرار هذا. غير أن كل هذه المحاولات ما زالت في طور التجريب، ولم تخرج الى حيز التطبيق بعد.

ومتى ما نجح العلماء والتكنولوجيون في تطويع هذا النوع من الطاقة وتسخيره للاستعمال في الاغراض السلمية، فان مشكلة الطاقة تحل نهائيا والى ملايين ملايين السنين. ذلك أن كيلو جرام واحد من الهيدروجين يدمج نوويا يولد طاقة تكفي مدينة لمدة طويلة من الزمن.

خاتمة:

يتضح من كل ما سبق للقارئ المتمعن أن مشكلة الطاقة، على العكس من بقية المشكلات التي تواجه الانسان المعاصر، ليست مشكلة بحد ذاتها... وان الازمة هي في عدم تخطيط الانسان لاستغلال مصادر الطاقة تخطيطا سليما وميله للبحث عن أهون السبل وأقلها كلفة.. ونظرا لان النظرة الاقتصادية هي الغالبة في قرارات الانسان الصناعية كان مفهوما تفضيله لاستعمال النفط والغاز الطبيعي كمصادر للطاقة. ولكن الانسان سيواجه مشكلة حقيقية في النفط والغاز الطبيعي ان استمر في هذا الاتجاه، ولم يبدأ جديا باستعمال البدائل الاخرى وتحوير آلاته ومصانعه بحيث تعمل على أي من هذه البدائل. واستعمال البدائل أمر لا مناص منه، ولكن الانسان يؤجل ذلك لان استعمال هذه البدائل سيكلفه أموالا أكثر، ناهيك عما سيصرفه من أموال في سبيل تحوير آلاته ومصانعه. ولكن الانسان الحكيم المهتم بمستقبله ومستقبل الانسانية يرى بوضوح أن ما سيخسره الانسان من الاستمرار في حرق النفط كوقود، ولو لفترة من الزمن، أكثر بكثير مما سيصرفه في عملية التحول عن النفط الى بديل اخر مما ذكرنا. ثم انه لابد متحول عن النفط... وخير له أن يتحول الى بديل اخر في وقت تظل فيه كميات من النفط في الارض لتستعمل مستقبلا كمواد خام لصناعات بتروكيماوية ضرورية، من أن يضطر للتحول عندما ينضب النفط ويواجه بالازمة حادة حرجة.

وباعتقادنا أن الدول التي تمتلك مخزونا من النفط في أراضيها يجب أن تسعى قبل غيرها الى توظيف جزء من أموالها في البحث العلمي الجاد في مجال تطوير استخدام بدائل عن النفط. ذلك أنها بذلك تحافظ على

نفطها لتستعمله في البتروكيماويات بكميات أقل كثيرا من الكميات التي يستعمل بها كوقود، وبهذا يستمر النفط مدة أطول وتجني في نفس الوقت دخلا أعلى نتيجة أن البتروكيماويات أثمن كثيرا من النفط كوقود.

7 مشكلة وقت الفراغ

منذ أن بدأ الانسان حياته على هذه الارض صيادا، يصرف طول نهاره وبعضا من ليله عاملا في نصب وشقاء ليوفر الغذاء لنفسه ولاسرته، وهو يحلم بتوفير ما يحتاج ويشتهي بأقل جهد يبذله أو بدون جهد منه. ولم يتغير حلم الانسان عندما تحول الانسان الى مزارع... وظل الحلم يراود الانسان بالحاح عندما مر الانسان عبر تاريخه الطويل بحضاراته المختلفة.

وصحيح أن بعضا من الناس حصلوا في حياتهم على ما يحتاجون دون جهد كبير الا أن هؤلاء كانوا قلة، وبقيت غالبية الناس تشكو التعب الى حد الارهاق، والبؤس الى حد التعاسة، والقلق والخوف الى حد فقدان الكرامة، والفقر والجوع الى حد التنازل عن الانسانية. وحتى الفئة القليلة التي حصلت على ما تحتاج بسهولة ويسر شعرت دوما بأن ما أتيح لها ليس كل ما تشتهي، وظلت تعاني من احساس بفقدان شيء غامض أسمي السعادة. وينجم الغموض عن اختلاف الناس اختلافا كبيرا في تحديد مفهوم السعادة. ولما كان المفهوم يتأثر كثيرا بما يفتقده الفرد في حياته، ونظرا لاختلاف ما يفتقده الناس كثيرا بسبب اختلافهم أنفسهم -

لا بل ان الفرد نفسه يختلف مفهومه عن السعادة في فترات متعددة من حياته، كان هذا التضارب في تحديد مفهوم السعادة.

وفوق ذلك فان غالبية بني البشر كانوا يفتقدون الكثير مما يحتاجون ويشتهون. وبذا كان مفهوم السعادة عندهم أكثر غموضا وأصعب تحديدا.

ولاشك أنه من غير المنطقي أن يعيش الانسان، خليفة الله في الارض وسيدها، عمره المحدود في شقاء وتعاسة ومرارة... حتى أن الموت كان ومازال بالنسبة للكثيرين الحل الامثل للراحة مما يعانون.

ولما كانت حاجات الانسان المادية أسهل تحديدا من حاجات الانسان النفسية والروحية انصرفت جهود الانسان أول ما انصرفت الى محاولة توفيرها وجمعها وخزنها.

وكانت أنانية الانسان سببا في تصارع الافراد والجماعات الانسانية في سبيل توفير هذه الحاجات وضمان المزيد منها. وكان طبيعيا أن تزيد هذه الصراعات في أسى الانسان وبؤسه وشقائه وتعاسته.

وحتى في أغنى المجتمعات كان هناك دوما فريق كبير من البائسين والفقراء الذين عاشوا ويعيشون حياتهم في ضنك وبؤس، وماتوا ويموتون وكثير من احتياجاتهم مجرد أحلام لم تتحقق.

وكما ذكرنا في البداية يعود جزء من هذه التعاسة الى اختلاف الناس فيما بينهم في القدرات والامكانات وعدم تساويهم. غير أن جزءا آخر من هذه التعاسة يرجع الى ظلم الناس بعضهم بعضا واستغلالهم لمن يستطيعون استغلاله.

ولابد من الاشارة الى أن الحيوان يصرف معظم وقته وجهده في سبيل توفير الغذاء لنفسه ولصغاره... ولذا فان من الظلم أن يفرض على فريق من الناس أن لا يرتفعوا عن مستوى الحيوان هذا، ففي ذلك حط من قدر الانسان واحباط لانسانيته، لان معظم وقته يجب أن يخصص لاهتمامات متعلقة بفكره ووجدانه وزيادة فهمه لبيئته ونفسه وبني جنسه ومستقبله على هذه الكرة الارضية.

وفي غمرة هذا الشعور بالالم والبؤس وكذلك الاحساس بعجزه تجاه تحقيق أحلامه يعيش أسهل وأفضل، اضطر الانسان قديما الى أن يحلم بمساعدة قوى خارقة تخيلها وصار يعتقد بها فكانت الجنيات الخيرات،

وكان خاتم سليمان ومصباح علاء الدين الى اخر ما ابتدعت مخيلة الانسان من هذه القوى الخارقة. ولعل دراسة موضوعية لهذه القصص والروايات من هذه الزاوية يمكن أن تلقى أضواء على ما كان الانسان يشتهي وما كان يستشعر نقصه، ويمكن أن تزيد وعينا لمفهوم السعادة عنده.

كما أن الأدباء والشعراء لم يقصروا بدرجات متفاوتة في معالجة موضوع بؤس الانسان وشقائه... وراح عدد كبير منهم ينادي باسعاد الناس والعدل في معاملتهم. وبتلورت هذه الدعوة في الدساتير الوضعية، وان بقى معظمها نصوصا بغير روح وأقوالا بدون تطبيق. ولعل الصعوبة في التطبيق والتنفيذ نابعة من أن عدم تساوي الناس أصلا في القدرات والامكانات خلق صعوبة هائلة في ايجاد معيار مقنن للعدالة بين الناس، فاستغل المتسلطون ذلك لوضع معايير خاصة لكل مجتمع، بل ولكل مناسبة وزمن، وحتى عندما اصطلح الناس في اعلان حقوق الانسان على العدالة في تكافؤ الفرص والعدالة في توزيع الحقوق والواجبات لم يتقدم أحد بايضاح كيف يمكن تنفيذ ذلك بعدالة ودقة. فأسلوب التنفيذ الوحيد المتاح في عدالة تكافؤ الفرص مثلا هو التساوي في اعطاء كل فرصة مساوية لفرصة الاخر. ولكن في ضوء ما نعرف عن اختلاف الناس قدرات وامكانات هل يمكن أن نقول مخلصين أن في هذا عدالة مطلقة؟ ثم لو حاولنا التنفيذ فعلا متجاهلين اختلاف الناس عقلا وقدرات فمن يستطيع الجزم بأن اعطاء الاطفال أو الطلاب فرصا متساوية ممكن؟ واذا كان ممكنا ظاهريا في المدرسة مثلا أفلا يؤثر البيت وامكاناته في اعطاء بعض الاطفال امتيازات لا تتاح لغيرهم، بمعنى أن الطفل ذا العائلة الغنية والمستنيرة ينعم بميزات لا يجد مثلها الطفل ذو العائلة الفقيرة والجاهلة، وفي ذلك اخلال بتكافؤ الفرص لا سلطان لاحد عليه.

وواضح أن المسألة معقدة أكثر بكثير مما يتصور الانسان للوهلة الأولى. وقد اصطدم كثير من الادباء بهذه المعضلة ولما لم يجدوا لها حلا فيما نعرف من مجتمعات ولما رأوا أن البؤس الانساني متأصل في هذه المجتمعات راح فريق منهم يتخيل مجتمعا مثاليا حسب تصورهم في بقعة مجهولة او افتراضية ورسموا صورة خيالية لمقومات هذا المجتمع المثالي في مدينته الفاضلة.

ولسنا بسبيل مناقشة تصورات هؤلاء الادباء للمجتمع المثالي... اذ أن كتاباتهم ليست سوى نقد معكوس لمجتمعاتهم الحقيقية، ولكن قد يكون مفيدا أن نورد باختصار وصفا لمجتمع حقيقي يكاد يشبه ما ذهب اليه أولئك الادباء في خيالهم ونرى أن كان مثل هذا المجتمع قابلا للتعميم.

فقد نشر الصحفي المعروف نويل باربر في ثلاث مقالات في صحيفة الديلي ميل في أعداد الخامس والسادس والثامن من يونية (حزيران) عام 1962 تقريرا صحفيا عن زيارته لمملكة هونزا التي يصفها بأنها جنة الدعة على الارض. وقد أورد في هذا التقرير أن عدد سكان مملكة هونزا يبلغ 18ر000 نسمة يعيشون في واد خصيب منيع يصعب الوصول اليه ويقع بالقرب من حدود سنكيانج في جبال الهيمالايا، على ارتفاع 8000 قدم عن سطح البحر... ويتناقل سكان مملكة هونزا أن أصلهم، نظرا لبياض بشرتهم، من نسل ثلاثة جنود فروا من جيش الاسكندر مع زوجاتهم الفارسيات... وهم يعيشون في سلام منذ أن بدأ مجتمعهم في التكون، اذ لم يدخلوا حربا منذ ألفي عام. ولعل فرار أجدادهم من جيش الاسكندر ونبذهم الحرب، له دخل في حبهم للسلام. وهؤلاء يختلفون عن بقية المجتمعات في أنه ليس لديهم نقود ولا تجارة ولا تحدث عندهم جرائم من أي نوع ولا يصابون بأي مرض وبائي وقلما يموت الواحد منهم قبل أن يبلغ التسعين من عمره وتكون ميتتة طبيعية في الغالب. ولديهم توازن نفسي وجسمي ممتاز.. وتلد نساؤهم بدون ألم ولا يعرفون ألم الأسنان. وعدد السكان هناك ثابت بدون اللجوء الى وسائط منع الحمل أو الاجهاض وبذلك لا يستشعرون نقصا في الغذاء.

ويتمتعون بوقار مهيب، فلا يتجادلون ولا يتنازعون ولا يغضبون، وليس لديهم أي نوع من الفنون ولا أي نوع من العلم. ويتتبعون التقاليد بدقة.

وقد يرى بعض الناس في هذا المجتمع المثل الذي يجب أن يحتذى والحل لمشكلات الانسان وبخاصة الانسان المظلوم المغلوب على أمره.

ولكن هذا المجتمع، في حقيقة الامر، ليس الا هروبا من الواقع... ولعل استمرار لفرار مؤسسيه من جيش الاسكندر. ومن الصعب أن نتصور المجتمعات الانسانية مغلقة على نفسها بهذا الشكل دون صلة أو اتصال ببعضها بعضا وبخاصة في هذا العصر الذي تقلصت فيه المسافات «وصغر» حجم العالم الى حد كبير بفضل سرعة الاتصالات وتطورها. اذ لم تعد

هناك بلاد مجهولة أو بعيدة يسمع عنها وينسج حولها القصص والاساطير. وفوق كل هذا، فان مثل هذا المجتمع يفقد الانسان جزءا كبيرا من انسانيته، وهو الجزء المتمثل بعقله الموقد الباحث دوما عن المعرفة والساعي للسيطرة على بيئته ومقدراته... ثم كيف يمكن أن نتصور المجتمعات الانسانية وقد نضب معين الفنون منها ونسي العلم؟ بل كيف يمكن للانسان اليوم أن يتنازل عن مكاسبه التي حققها بفضل العلم والتكنولوجيا ويعود للعيش عيشة هي أقرب الى معيشة البهائم والانعام؟ ونستغرب كثيرا كيف يرضى ذوو القدرات العالية في هذا المجتمع بالعيش بشكل متشابه مع ذوي القدرات القليلة، وكيف تمكن الناس هناك من التخلي عن الطموح الانساني وتحدي المجهول والرغبة في استكشافه.

ولعله مظهر آخر من مظاهر تناقض الانسان أن يحلم بالمجتمع الفاضل الامثل حتى اذا ما اقترب من تحقيق هذا الحلم وجده سرابا لا جدوى من ورائه.

على أن ذلك لا يعني أن البديل هو الابقاء على الانسان أو معظم بني البشر في شقاء وشظف وعيش واحساس بالاحباط والألم والظلم.

ورغم ما صاحب الثورة الصناعية من مآس انسانية على صعيد الفرد وعلى صعيد قطاعات كبيرة من المجتمع الا أنه لا يختلف اثنان في أن الحضارة العلمية التكنولوجية وفرت على الانسان الكثير من الجهد والنصب. فبدلا من العمل الجسمي المضني في سبيل قضاء أية حاجة صارت الآلة تتحمل معظم العبء في العمل، كما سهلت له سبل الانتقال والاتصال وغيرها من مجالات الحياة بما في ذلك الترويح عن النفس. وهكذا صار الانسان يضيء غرفته بمجرد لمسة أصبع، وكان ذلك يأخذ منه جهدا ويستغرق وقتا، كما أن الضوء المتاح له اليوم يفضل ما كان يحصل عليه مرات عديدة، ومثل ذلك حصل بالنسبة لطهي طعامه - لا بل أن التطورات الحديثة في هذا المجال تبشر بأن يصبح بوسع الانسان أن ينهي طهي طعامه في دقيقتين فقط باستعمال اشعاع الموجات القصار أو موجات الراديو في أفران خاصة، بينما كانت وما زالت هذه العملية تستغرق من ربات البيوت، وهن ربع المجتمع، معظم وقتهن. وكذلك حصل تطور كبير في عملية انتقاله وسفره الى بلاد بعيدة بسرعة ويسر بدلا من ركوب المخاطر

والمتاعب التي كانت تصاحب فكرة سفره في الماضي. وهكذا مع بقية مجالات الحياة.

وبالاضافة لتوفير الجهد أدى تدخل العلم والتكنولوجيا الى توفير الوقت توفيرا كبيرا ... فأصبح المزارع ينهي عمله بسرعة بينما كان يجهد فيه طول يومه وصارت ربة البيت تتم أعمالها في جزء من النهار وكانت تمضي فيه سحابة نهارها، وهكذا بدأ الانسان يجد مهما كان عمله، أن لديه وقتا لا عمل لديه فيه. وهكذا أصبح وقت الفراغ متاحا لاعداد متكاثرة من بني البشر بعد أن كان مقصورا على عدد قليل جدا.

وكلما كان المجتمع متقدما - بمعنى أنه أكثر اسهاما في الحضارة العلمية التكنولوجية - كان عدد أفراده الذين يتاح لهم وقت فراغ متزايد أكثر. كما أن التقدم العلمي الطبي أسهم كثيرا في زيادة عدد الذين يتقاعدون من أعمالهم وهؤلاء يكون وقت فراغهم طويلا.

ورغم أن هذا كان مطلبا انسانيا وحلما راود مخيلة الانسان ليرتاح من العمل والعناء والتعب فترة من يومه ويوما أو يومين من أسبوعه وشهرا أو بعض شهر من سنته الا أن الانسان - بثبات عنيد على مبدأ التناقض فيه - ما لبث أن بدأ يلمس في الفراغ الذي سعى اليه كثيرا مفسدة أي مفسدة وضررا كبيرا.

فقد اتضح أن وقت الفراغ قد أصبح مشكلة عالمية تستدعي أن تعقد لدراستها المؤتمرات العالمية... وقد عقد في شهر ابريل (نيسان) من عام 1976 في بروكسل عاصمة بلجيكا مؤتمر كان الثاني من نوعه نظمته مؤسسة فان كليه Van Cle البلجيكية باشراف منظمة اليونسكو، وكان موضوعه وقت الفراغ، وحضره حوالي خمسمائة مندوب يمثلون 50 دولة. وقد تبين من الدراسات والنقاش في هذا المؤتمر أن وقت الفراغ يجابه الانسان بعدد من المشكلات المعقدة ومتعددة الوجوه أكثر بكثير مما كان متصورا.

ولعل أول مشكلة من هذه المشكلات هي الضجر والملل. فاضطرار أي انسان لقضاء ساعات الفراغ من يومه دون عمل يجعله ضجرا ... والضجر يسبب مشكلات متعددة على صعيد الفرد والمجتمع.. وله انعكاسات نفسية خطرة. فالضجر يتحلل تدريجيا من قيمه وأخلاقه وقد يدفعه هذا التحلل الى ارتكاب حماقات عديدة يعاقب عليها القانون. وما التصرفات غير

الاخلاقية والتجارب في ميدان العقاقير المنشطة والمهدئة والمهلوسة والانضمام الى مجموعات الرافضين للمجتمع وتقاليده وعاداته وقيمه الا نتائج حتمية وطبيعية للضجر والملل الناجمين عن كثرة وقت الفراغ والدعة، بالاضافة لاسباب أخرى.

وليست هذه المظاهر التي تكثر وتنتشر في المجتمعات المتقدمة والغنية جديدة. فقد كان سلوك بعض النبلاء وأبنباء الطبقات الراقية والغنية في الماضي سلوكا لا ينسجم والمعايير الخلقية التي كانت سائدة في عصرهم. بل كثيرا ما انغمس بعضهم في مفاسد عديدة... ونرى مثل هذا في المدن قديمها وحديثها نظرا لما توفره المدن لبعض الناس من فراغ. وليس الثراء هنا عاملا أساسيا، وان كان عاملا مساعدا، في دفع الناس الى المفاسد والتبذل. فالضجر أشد قوة وتأثيرا.

ولا يقتصر أثر الضجر والملل على هذه الظاهرة رغم خطورتها، بل يتعداها الى آثار نفسية محطمة... فالشعور بالضجر والفراغ اذا امتد طويلا يوصل الانسان الى التساؤل عن جدوى الحياة وينقص قدره في نظر نفسه باعتبار أنه لا يحقق امكاناته وقدراته وأنه يعيش كما مهملا على هامش الحياة... ونجد هذه الظاهرة أوضح ما تكون في الذين كانوا يعملون بجد وتعب ثم توقفوا عن العمل بسبب وصولهم الى سن التقاعد أو بسبب اخر، ولم يجدوا ما يقومون به من عمل في وقت فراغهم الذي صار يملأ أيامهم كلها. ولا يختلف اثنان في أن مثل هذا الشعور أن تولد في الانسان حطمه من الداخل وسبب له اشكالات متعددة، وردود فعل عنيفة أحيانا.

والغريب هنا أيضا التناقض البادي في أن العمال بالذات بذلوا جهدا كبيرا وصل الى حدود العنف أحيانا في سبيل انقاص ساعات العمل التي كانوا يعملونها... وما أن تحقق لهم ما يريدون - في بعض المجتمعات الصناعية - حتى بدأت الشكوى من الفراغ والتبرم به وبما يسببه. على أن ذلك لم يكن انتقالا مباشرا سلسا... فانقاص ساعات العمل اليومية الى ثماني ساعات كان أمرا مقبولا اذ ترك للعامل فرصة العناية بمتطلبات بيته وأبنائه وزوجته... ومع ذلك أثر تأثيرات سيئة في بعض العمال الذين لم يكونوا مهتمين بمتطلبات عائلاتهم أصلا.. ثم طالب العمال بانقاص ساعات العمل عن ثماني ساعات ونجحوا في كثير من المجتمعات الصناعية ولكنهم وجدوا

أن انقاص ساعة أو نصف ساعة لم تجدهم نفعا ولم تزد من وقتهم الحر الخاص بهم فراحوا يطالبون بأسبوع عمل أقصر ويومين لعطلة نهاية الاسبوع ثم طالبوا باجازة سنوية أطول. وفي معظم المجتمعات الصنخاعية لا تزيد ساعات العمل في الاسبوع عن 40 ساعة، وفي البعض تهبط الى 35 ساعة. ونتيجة طبيعية العمل في بعض الصناعات أو تحقيقا لرغبات العمال أضيف وقت العمال الحر الذي كسبوه بتخفيض ساعات العمل الى وقت فراغهم في اجازاتهم فوق فراغهم في عطلة نهاية الاسبوع وبقية ساعات النهار.

وكان من الممكن أن تنفجر مشكلة الفراغ بشكل حاد لولا أن سارع عدد من رجال الاعمال الى الاتجار بها فنشأت صناعات معظمها يقدم حلولا ترفيهية للناس لملء أوقات فراغهم... وأصبحت صناعات الملاهي والسياحة والالعاب الرياضية والمسارح وما شابهها تدر ربحا كبيرا على أصحابها... كما تنبهت بعض الحكومات والسلطات المسئولة الى ذلك فأنشأت العديد من المتاحف والمعارض وقصور الثقافة والفنون والمكتبات العامة وجعلت مع زيارة الناس لها المحاضرات والدراسات في أبحاث معينة متعددة على مدار السنة. على أن من المهم أن نتبه الى أن مقياس نجاح هذه المرافق لا يجب أن يقاس بعدد الناس المترددين عليها فقط بل بمقدار ما يفيدونه منها أيضا. وحتى تكون الفائدة هدفا مرجوا يسعى اليه لابد من دراسة نفسية ميدانية شاملة للناس ورغباتهم وحاجاتهم الفكرية والنفسية... اذ يجب أن لا يغيب عن البال أن الهدف أساسا من هذه المرافق المختلفة هو اشغال وقت الفراغ بما يفيد ويشبع حاجات في النفس، وبذا تقل الخشية من الضجر وما يستتبعه.

ومع كل هذا ظهرت بوادر أعراض تأثير الضجر في كثير من المجتمعات التي تمكنت بعد لأي من توفير وقت الفراغ وزيادة مدته. ويرجع جزء كبير من أسباب انتشار الجرائم والمفاسد في هذه المجتمعات الى كثرة وقت الفراغ وما ينجم عنه.

وقد بدأت تظهر في مثل هذه المجتمعات محاولات لملء الفراغ، بالاضافة للامكانات المتاحة في المرافق الخاصة والعامة، باشغال الناس بالقيام بأعمال كانت تستدعي استقدام العامل المختص للقيام بها، كأن يصبغ الانسان بيته أو يقوم بصيانة سيارته وأدوات منزله أو يصنع شيئا من أثاث بيته دون

مساعدة ممن يمتهنون هذه الاعمال. ونشأت صناعات متعددة مهمتها تقديم الادوات الاساسية مع الارشادات التفصيلية اللازمة لقيام الانسان غير المتخصص بالعمل وحده وفي أوقات فراغه.

كما أن عددا من الناس يجدون في أوقات الفراغ فرصة للقراءة والكتابة أو الرسم أو الموسيقى وغير ذلك من النشاط الانساني... غير أن عدد هؤلاء النسبي قليل جدا. والغريب أن هؤلاء يشكون في كثير من الاحيان من قلة الوقت المتاح لهم، في الوقت الذي يشكو فيه غالبية الناس من كثرة وقت الفراغ الذي لا يدرون كيف يشغلونه. ولاشك أن الذي لا يستشعر مشكلة وقت الفراغ أسعد حظا من الذي يشكو منها، بالرغم من أن كلا من الاثنين يحسد الاخر على حظة.

على أن المتقاعدين عن العمل وكبار السن يبلورون المشكلة من زاوية أخرى فهم خلافا للعاملين الذين، في معظم الحالات، يرغبون في مزيد من أوقات الفراغ، يشكون من تراكم أوقات الفراغ وامتدادها أمامهم بدون أمل في تناقصها أو التخفيف من ثقلها. وقد ساعد على تضخيم المشكلة وزيادتها حدة أن تحسين وسائل العناية الصحية والطبية جعلت أعداد الذين في سن الشيخوخة تصل الى أكثر من خمس عدد السكان في كثير من المجتمعات المتقدمة. وهذه حالة فذة لم يسبق أن عرفها المجتمع الانساني في تاريخه كله. فماذا يمكن أن يعمل لهم لتخفيف احساسهم بالفراغ والدعة والضجر والملل؟؟ ان الذي يعمل فعليا اليوم لمن بلغ الستين والسبعين والثمانين قليل جدا... ففي بعض المجتمعات التي ما زالت تعطي مفهوم الاسرة شيئا من الاحترام يعيش هؤلاء في غربة عن جيل الاحفاد وأحيانا الابناء ولا يعملون سوى مستشارين في بعض الأمور، ما لم يكن الواحد منهم قوي الشخصية متملكا ناصية الامور في العائلة أصلا أو ثروة ينتظر أفراد الاسرة توارثها. على أن غالبيتهم يصبحون في منزلة الضيوف في البيت ويحترمون ولكن بدون أن يكون لهم أثر كبير في حياة الاسرة. وينحدر عدد كبير منهم الى مراكز ثانوية وأحيانا حتى الى منزلة الخدم فيعنون بالاحفاد بينما يذهب الابن وزوجتته الى عملهما أو الى حفلات أصدقائهما أو يقومون بأعمال أخرى من هذا القبيل.

ولم يستطع أحد حتى الان أن يتقدم بحلول ناجعة لمشكلة كبار السن

هؤلاء... فقد اقترح بعضهم أن يدربوا على تنمية هوايات خاصة بهم. ولكن مفهوم الهوايات أصلا هو أن تشغل جزءا من وقت الفراغ، وأن تكون الهواية تكملة لنشاط الانسان في عمله. أما أن تصبح الهواية شغل الانسان الشاغل ملء وقته كله فأمر يسلخ عن الهواية صفتها، ولا يمكن أن نجد انسانا يريد التمتع بهوايته من الصباح حتى المساء كل يوم. كما أن هؤلاء لا يمكن في سن الستين أو السبعين أن ينغمسوا في الملذات والليالي الحمراء بشكل مستمر.

واقترح آخرون أن يتاح لهؤلاء المتقدمين في العمر مجال الدراسة والاستزادة منها في مدارس خاصة بهم. ولكن الانسان يتابع دراسته بهدف تحسين مركزه أو فرص عمله... ويحق للمرء أن يتساءل ما الذي يمكن أن يبتغيه هؤلاء من الدراسة؟ وما الدافع الذي يمكن أن يدفعهم لمتابعتها؟ وقد يحصل أن يستمر البعض ممن وصلوا سنا متقدمة في القراءة أو التأليف أو الموسيقى الى اخر ما هنالك... ولكن ذلك يظل دوما على أساس فردي ذاتي، وقلما يتقبل الواحد منهم الذهاب الى مدرسة ولو كانت خاصة. ثم من يدفع مصاريف مثل هذه المدارس؟ ان الحكومكات مستعدة لفتح المدارس ولكن على أن يكون ذلك استثمارا ذا مردود... كما هي الحال في مدارس الصغار. فأين يكون مردود مدارس المتقدمين في العمر؟ وماذا يمكن أن يستفيد منهم المجتمع وقد فرض عليهم نفس المجتمع أن يتوقفوا عن العمل؟ وهناك اقتراحات بايجاد أعمال ووظائف مناسبة لهؤلاء ليعودوا للعمل وبذا يخلصون من مشكلات أوقات الفراغ. ولكن الصعوبة في تنفيذ هذا الاقتراح تكمن في قلة الاعمال المتاحة أصلا وفي أن هؤلاء لا يصلحون لكثير من الاعمال. وعلى ذلك تكون الصعوبات المالية والادارية في ترتيب اعطائهم أعمالا تناسبهم أكبر من مردود عملهم في أغلب الاحيان، وبخاصة أن عددا لا يستهان به منهم تضعف مع تقدم اعمر حواسهم أو تضطرب أيديهم أو يعانون من أمر يعيق عملهم.

وفي الولايات المتحدة الامريكية فكر بعض الممولين في انشاء مدينة كاملة مستقلة مخصصة للمتقدمين بالسن، بحيث يدفعون أجرا لسكناهم ويقومون بادارة هذه المدينة والعمل بها والترفيه عن أنفسهم بأنفسهم. ومع أن تنفيذ هذه الفكرة مازال في البداية الا أن هناك بعض الشكوك حول امكان نجاحها وتعميمها.. فالاجر المطلوب لن يستطيع دفعه الا فئة من الناس، ثم هناك الخيار ذو الحدين وهو: هل يفضل المرء في هذه السن أن ينعزل عن العالم

وسط مجموعة من أقرانه فقط، أم أنه يفضل أن يبقى في تيار الاحداث وجزءا من نبض الحياة؟ وهل يفضل أن لا يتصل بغير المتقدمين بالسن أمثاله أم أن يحتك بالشباب والصغار رغم ما يسببه الفرق بين الجيلين في التفكير والسلوك من أثارات واختلافات؟

الفراغ في المجتمعات المتخلفة:

من الواضح أن الوضع في المجتمعات المتخلفة هو نفس الوضع الذي كان عليه الانسانية في الماضي.

ففي المجتمعات الزراعية أو الصناعية الفردية - وغالبا ما تكون صناعات عائلية، يكون مركز العمل هو البيت أو مكانا قريبا منه. ويندر أن يفرق المرء في مثل هذا الوضع بين عمله ووقت فراغه. بل لعل وقت الفراغ بمعناه الصحيح غير موجود فيما عدا الاعياد والمناسبات الاجتماعية والدينية. وحتى في هذه المناسبات التي يتوقف فيها العمل لا يستطيع المرء أن يتحلل من واجبات تشغله طول وقته، وغالبا ما تكون هذه الواجبات جماعية وذات طقوس معينة، مما ينفي عن هذه العطلات التي لا يقوم فيها الناس بعمل صفة وقت الفراغ. وحتى تجمع عدد من الناس في ساحة منزل وجيه الحي أو في غرفة خاصة من بيته لساعة أو اثنتين بعد انتهاء العمل وتناول العشاء كان يأخذ صفة وظيفة اجتماعية بمعنى أنها جلسات يتبادل فيها أهل الحي الاخبار والرأي في الأمور التي تعرض لهم.

وقد أدى دخول بعض الأجهزة والالات التكنولوجية في القرية الى خلق وقت فراغ... والخطورة هي أن تزايد وقت الفراغ هذا في غياب الامكانات التي يمكن أن تسده في القرية أو المجتمع المتخلف سبب ويسبب مضاعفات نفسية، عند الشباب بخاصة... ونظرا لتمسك المجتمع في القرية بالتقاليد وتماسكه تماسك الاسرة الواحدة تكون انعكاسات هذه المضاعفات النفسية والسلوك غير المنسجم مع السلوك المتعارف عليه كبيرة وقوية.

الحرية والوقت الحر:

عرضنا لبعض محاولات ملء وقت الفراغ عند الناس التي تقوم بها السلطات البلدية والحكومية. ويخشى فريق من المفكرين من تدخل السلطات

في حرية الفرد في هذا المجال. فهم يرون أن من حق الانسان أن يقرر بملء حريته كيف يصرف وقت فراغه. ولكنه في حقيقة الامر مجبر على أن يصرف هذا الوقت كما توفره له السلطات أو كما تخطط له. فاذا ما كان التخطيط يهدف الى توجيه الناس وجهات سياسية أو فكرية معينة تعدى الامر الى الاعتداء على حريتهم. وليس هذا وحده ما يحد من حرية الفرد في اختيار أسلوب التمتع بوقت فراغه فهناك أيضا مشكلة حماية البيئة ومشكلة تزايد عدد السكان. وتمضيته وقت الفراغ تتأثر كثيرا بنوع البيئة وامكاناتها وما تستطيع تقديمه للناس.

وكذلك تتأثر بعدد السكان بعامة وعدد أفراد الأسرة بخاصة. ويبدو أننا سنجد أمامنا في المستقبل وقت فراغ أطول بكثير مما نجده اليوم، ولكنه سيكون وقت فراغ أكثر تعقيدا وسنكون أقل حرية في التمتع به.

خاتمة:

يبدو مما عرضنا في هذه العجالة أن مشكلة الفراغ والدعة وما تسببه من ضجر وملل وانعكاساتها النفسية والسلوكية مشكلة يجب أن لا يستهان بها وأن لا تترك لتتفاقم مستقبلا. وتفاقمها منتظر نتيجة عوامل عدة منها أن العالم، وبخاصة المتقدم منه، مقبل على أسبوع عمل قصير جدا لا يتعدى أربعة أيام من كل أسبوع وقد ينقص عن ذلك. وعدد المتقدمين في العمر في تزايد نتيجة تحسين العناية الطبيعية من جهة ونتيجة الابحاث العلمية الدائبة في معرفة سر الهرم والشيخوخة. وهذه الابحاث، وقد قطعت شوطا لا بأس به، توحي بأن الانسان بوسعه في المستقبل المنظور أن ينتظر ارتفاع فترة الحياة المتوقعة الى حوالي 130 سنة يقضي الانسان معظمها في نشاط وانتاج. ثم ان الانسان في المستقبل سيعتاد رؤية التغير يجري سريعا من حوله وستقل مقاومته للتغيير، وبذا سيكون أسرع في الملل من الاشياء. فاذا أضفنا الى هذه العوامل وغيرها أن حريته في اختيار أسلوب قضاء وقت فراغه ستكون محدودة عرفنا مبلغ حدة مشكلة الفراغ والدعة التي ستواجهه. وما لم يكن الانسان قادرا على مواجهة هذه المشكلة بحلول ناجعة في الوقت المناسب تفاعلت المشكلة في نفسه تفاعلات متفجرة تتهدد صحته النفسية وصحته العامة وبالتالي استقراره وحياته.

ومن الملاحظ أن كثيرا من الدول تقيم سلطات وحتى وزارات للسياحة والثقافة والرياضة والشباب والفنون، كما تعنى بوسائل مختلفة بالمعوقين وكبار السن، وتحاول توفير أماكن اللهو البريء والمتاحف والحدائق الخ. وكل هذه وسائل للمساعدة على قضاء وقت الفراغ... ولكنها في كل هذا تعمل بدون تخطيط متكامل ودون وضوح هدف... ومن الممكن جمع كثير من هذه المجالات في وزارة أو سلطة لتنظيم وقت الفراغ ورعاية متطلبات الناس خلاله على أن تؤخذ الحيطة الكافية لعدم المساس كثيرا بحرية الفرد وللتخطيط المبني على مسح علمي دقيق لحاجات الناس المختلفة ومحاولة توفير ما يشبعها. ومما لا شك فيه أن مردود مثل هذا سيكون كبيرا، وسيتضح في اتزان الناس نفسيا وشعورهم بالرضاء عن أنفسهم وزيادة انتاجهم في عملهم وقلة الانحراف والاجرام فيما بينهم. ولو تحقق جزء من هذا لكان ذلك تبريرا كافيا لما سيصرف في سبيله.

8 مشكلة التدخل للسيّطرة على الإنسان

منذ أن كان الانسان، ونظرا لأنه اجتماعي بطبعه، وبعض الناس يحاولون جاهدين السيطرة على بقية الناس في مجتمعهم والتأثير فيهم بحيث يخضعونهم لأوامرهم وتحقيق رغباتهم وقد اتخذت هذه الظاهرة مظاهر مختلفة متكررة عبر تاريخ الانسان. وتختلف هذه الظاهرة اختلافا بينا عن ظاهرة تنازل الغالبية أما طواعية أو كرها عن جزء من حرية أفرادها الشخصية لفرد أو عدد من الافراد ليقوموا بادارة المجتمع أو المحافظة عليه، ووضع الضوابط الدقيقة التي تحد من حرية الافراد حتى لا يحدث افتئات على حرية غيرهم أو على مصالح الاخرين. فالظاهرة الاولى التي نحن بصددها هي محاولة فرد أو مجموعة أفراد السيطرة على الباقين واستخدامهم واستغلالهم وتحوير سلوكهم بحيث يكونون مسيرين لا يملكون أية حرية لا في القول ولا في العمل. ومن الطبيعي أن ينحدر بعض من تنازلت الغالبية لهم عن جزء من حريتها طواعية الى مصاف الآخرين الذين يستخدمون ويستغلون غيرهم لغايات خاصة بهم،

ولكن ذلك ليس القاعدة.

ولعل أعنف أمثولة لهؤلاء المسيطرين كانت فئة «الحشاشين» «Assasins» وقد استخدم «الحشيش» وغيره كوسيلة لسلب ارادة الافراد وحريتهم، وبذا كانوا أدوات طيعة في يد المسيطر عليهم الذي كان يدفع هؤلاء الافراد الى القتل كائنا من كان الضحية وحتى الى الانتحار. وكان هناك أيضا فريق استغل الدين للسيطرة على الاتباع، واستغل آخرون معاني مجردة مختلفة.. ولكن الاسلوب الاعم كان ومازال اغداق النعم والاموال على فريق من الناس لاستخدامه في أغراض متعددة.

والغريب أن حب السلطة والهيمنة أقوى عند كثير من الناس من بعض الغرائز الاساسية. والهيمنة يمكن أن تكون لفرد على مجموع أو لمجتمع على بقية المجتمعات أو لدولة على بقية الدول. والنوع الثاني يخدم الاول خدمة جلي كما ينتهي حلم الاول بالوصول الى الثاني.

النوع الأول:

قلنا أن دماغ الانسان أعقد ما في الوجود، ولم يبدأ العلم في سبرغور هذا الدماج ودراسته بشكل علمي الا حديثا. وقد بدأت نتائج الأبحاث في الدماغ الانساني تعطي بعض المردود، اذ تبين للعلماء أولا اختلاف الادمغة الانسانية عن بعضها بعضا، كما اتضح لهم أن التيارات الكهربية العصبية في الدماغ الانساني ليست واحدة، بل لعلها عديدة جدا، وأن كل نوع منها ينشأ من نشاط فكري أو نفسي معينخ. وقد صورت بعض هذه التيارات وصنفت وصار بالوسع معرفة ما يجري في دماغ الانسان من مراقبة ما ينشأ فيه من تيارات، كما صار بالوسع، بالاضافة الى تسجيلها، توليدها آليا وامرارها في الدماغ الساكن بحيث تولد النشاط المحدد الذي تولده عادة أو تنشأ عنه... وقام العلماء بسلسلة تجارب على القردة وثيران حلبات المصارعة فغرسوا في أدمغتها أقطابا كهربية (وهي عملية لا ألم فيها ولا تسبب للحيوان ازعاجا بعد ذلك) ووصلوا هذه الأقطاب في حالة القردة بأسلاك تمرر فيها التيارات المعروفة المعينة فصار بالوسع ايقاف القرد الجائع، بعد أن بدأ بالاأكل، عن اتمامه مثلا، أو جعل القرد الذي أتم أكله وشبع يعود للاكل من جديد كما لو كان جائعا، وكذلك جعل القرد حزينا أو

فرحا، غاضبا أو راضيا، وغير ذلك من ردود الفعل العقلية والنفسية.

وفي حالة ثيران المصارعة جعلت الاقطاب الكهربية المغروسة في أدمغتها متصلة بأجهزة تستقبل تموجات راديو وتترجمها الى تيارات كهربية محددة حسب تردد التموجات. وأطلق بعض هذه الثيران في حلبة المصارعة فانطلقت عنيفة نحو المصارع وقبل أن تصل اليه أرست تموجات معينة الى تلك الأجهزة فتوقفت الثيران عن الهجوم وصارت تتهادى كأية أبقار في حقل من الحقول... وبالعكس من ذلك أخذت ثيران مزرعة عادية هادئة وأجريت لها نفس العملية ثم وجهت اليها تموجات معينة من تردد آخر فاستحالت هذه الثيران الى ثيران هائجة تهاجم كل من وما في طريقها.. ثم وجهت اليها تموجات أخرى فعادت سيرتها الاولى هادئة وادعة.

وكذلك أجريت تجارب عديدة على أنواع أخرى من الحيوان... وبعد ذلك بدأت دراسة تيارات دماغ الانسان في حالاته الفكرية والنفسية المختلفة، وسجل العلماء كل هذه التيارات وفصلوا بعضها وصنفوها واستطاعوا تبين سبب تولدها والحالة التي يجب أن يكون الفكر فيها لتتولد. وتستمر الأبحاث رغم تخوف العلماء من تمكن بعض الديكتاتوريين المتسلطين من استغلال هذه الأبحاث وجعل مجموعات كبيرة من البشر تستجيب نفسيا وعاطفيا وفكريا لمجرد «لمسة من أصبعهم»، بحيث يندفع هؤلاء لعمل ما دون نقاش أو تفكير اذا ما أريد لهم ذلك. كما أن التخوف قائم من تمكن زعماء عصابات الاجرام من استغلال هذه الابحاث في دفع الناس الى قتل من يدفعونهم لقتله أو ارتكاب الجرائم المختلفة الاخرى. وفي اعتقاد العلماء أن تأثير هذه الاجهزة يمكن أن يتم مستقبلا دون عمليات غرس الاقطاب في الدماغ. ومن الانصاف أن نقول بأن استخدام مثل هذه الاجهزة يمكن أن يكون لخير لا لشر، كأن يوجه البث بحيث تتولد عواطف الحب والاحساس بالمسئولية والعمل الدقيق والتفاني والاخلاص والصدق والامانة الى آخر ما هنالك. غير أن الأمر يظل مرهونا بما يدور في أذهان مستخدمي هذه الأبحاث وأجهزتها والاهداف التي يرجون تحقيقها.

وان نحن أخذنا الأمور بالمعايير التي نعرف عن الانسان وطرق استعمال مثيلات هذه المكتشفات والمخترعات فان الصورة كون قاتمة مرعبة من وجوه عدة.

وهناك أيضا أبحاث في الدماغ من نوع اخر وتتجه هذه الابحاث الى دراسة أسس التعلم في الخلايا العصبية الدماغية. ومن نتائج هذه الابحاث أن الذاكرة تتأثر بمركب عضوي حيوي في الخلايا اسمه حمض الريبنيو كلييك ويعرف برمزه .R.N.A فالذين تضعف ذاكرتهم يقل هذا الحمض في خلاياهم العصبية والدماغية منها بشكل خاص. فاذا ما أعطي ضعيف الذاكرة حقنات من هذا الحمض تحسنت قوة ذاكرته. وقد يكون هذا الحمض علاجا «للخرف» الذي يصيب بعض الناس اذا ما تقدم بهم العمر الى أرذله. كما تدل أبحاث بعض العلماء على أن حقن خلاصة نقية من هذا الحمض، مستخلصة من دماغ رجل توفاه الله وكان عالما رياضيا أو تجريبيا أو مفكرا كبيرا أو موسيقيا مثلا، في دماغ طفل صغير أو طالب لا يبدى حماسا لأي من هذه المجالات، يجعل دماغه يتقبل المجال الذي كان المتوفى مبدعا فيه، ويصبح تعلم الطفل أو الطالب في هذا المجال سهلا وسريعا.

ويتصور بعضهم أن بالوسع توقع حدوث ثورة في أساليب التعليم مستقبلا باستعمال مثل هذه الوسائل. اذ يرون أن بالامكان علاج ضعف الطلاب، كل فيما هو ضعيف فيه، بحقنهم بخلاصات مستخلصة من أدمغة رجال كانوا مبدعين في هذه الميادين، وفي نفس الوقت يخشى اخرون من أن يساء استعمال هذه الوسائل من حيث احداث تحول في السلوك والميول، وبالتالي حصول انحرافات عن الطريق السوي.

وفوق هذا تجري تجارب لاستعمال صنع الانسان الآلي وربط نشاطه بالعقول الحاسبة الالكترونية بحيث يصبح بوسع هذا الانسان الآلي أن يقوم بأعمال مخطط لها وذات أثر على المجتمع الانساني.

النوع الثاني:

منذ أن كان الانسان ولادهشة تملأ نفسه للشبه والاختلاف بين أطفاله وبينه وبين الناس بعامة. فتارة يشبه الابن (أو البنت) أباه في صفات ويشبه أمه في صفات غيرها، كما يشبه تارة أخرى خاله أو جده أو قريبا آخر في بعض الصفات. وقد تقدم الانسان عبر العصور بتفسيرات متخلفة كلها مجرد تخمينات لا أساس لها من الصحة.

ومنذ أن بدأ علم الوراثة يوطد أركانه ويكشف عن أسرار الوراثة بدأت

الصورة تتضح أفضل... وحديثا اكتشف العلماء أن سر الوراثة يكمن في مركب عضوي حيوي يرمز له برمز.D.N.A (وهو حمض دي أوكسي ريبونيوكلييك) ورسوله الذي أشرنا اليه قبل قليل أي .R.N.A. وقد وجد أن لكل صفة من الصفات مركب من هذه وله «شيفرة» خاصة تحدد تلك الصفة.

وكما أشرنا من قبل تتأثر بعض مكونات هذا المركب بالاشعاع وقد تتأثر ببعض المركبات الكيماوية فتتغير كيميائيا نتيجة ذلك. ولما كان ترتيب المكونات هو الشيفرة التي تقرر الصفة فان تغير تركيب أي من هذه المكونات أو ترتيبها يعطي صفة أخرى تختلف عن الأصلية. ويحدث مثل هذا في الحالة الطبيعية بفعل تعرض الكائنات الحية للاشعاع الطبيعي ومؤثرات أخرى. ويعرف مثل هذا التغير في علم الوراثة بالطفرة. ويعود جزء كبير من اختلاف أنواع الكائنات الحية اليها.

وكان من الطبيعي أن يقوم العلماء، خلال دراستهم لظاهرة الطفرة، بتوليدها صناعيا وذلك بتعريض الذكور بخاصة قبل نضجها جنسيا الى الاشعاع (الاشعة السينية على الاكثر) بقدر محسوب ولفترات مقننة ثم مراقبة الاجيال المتعاقبة الناتجة. وقد اتبعت هذه الطريقة - ولو أنها عشوائية - في انتاج أصناف جديدة من النبات أكبر ثمرا أو أفضل صفات من حيث وفرة الانتاج ومقاومة الآفات الى آخر ما هنالك، كما اتبعت في انتاج حيوانات، وبخاصة حشرات، ذات صفات تختلف عن المعتاد.

وما أن أثبت العلماء أن بالوسع تغيير الصفات صناعيا حتى أخذوا في دراسة الصبغيات (أو الكروموسومات) وهي الجسيمات التي تحمل مراكز الصفات الوراثية أو تحمل المركبات العضوية الحيوية .D.N.A. وبتحسن الامكانات لديهم واختراع المجهر الالكتروني تمكنوا من رسم خرائط لهذه الصبغيات أو الكروموسومات وتحديد مركز كل صفة وراثية بدقة. وآذن هذا بأن تصبح محاولات تغيير الصفات محددة لا عشوائية، كأن تغير صفة بعينها دون غيرها. وقد سارت محاولات العلماء حثيثا في هذا المجال، وكان من الطبيعي أن يبدأوا دراساتهم وأبحاثهم على كائنات حية دقيقة ودنيئة كالبكتريا... وبعد جهود مستمرة تمكن العلماء من تغيير الصفة التي يختارون، وزادوا على ذلك أن كان بوسعهم تغييرها في الاتجاه الذي يقررون.

وبعد ذلك انتقلوا الى كائنات حية أرقى وأكثر تعقيدا وتمكنوا من تنفيذ التغييرات المحددة التي يقررون في الحشرات... وبذلك تأكد لديهم أنهم يسيرون على الطريق الصحيح... وهنا بدأت دراساتهم على الانسان وصبغياته أو كروموسوماته، وأخذوا يرسمون الخرائط لهذه الصبغيات ويحددون مراكز الصفات الوراثية العديدة في الانسان... ولا يحتاج الأمر الى كثير من الخيال لتصور أنهم بسبيل التمكن من تغيير بعض هذه الصفات بالشكل الذي يحلو لهم... ولما وصل الأمر الى هذا الحد بدأت أبعاد هذا العمل تتكشف لهم... ولم يكن الامر بحاجة الى كبير ذكاء لفهم هذه الابعاد وما يندرج تحتها. ومن هنا كانت خشبة العلماء أن يتمكن علماء مجتمع متقدم ما من تحوير الصفات في أطفال ذلك المجتمع بحيث ينمون الى عباقرة علميين أو رياضيين أو موهوبين موسيقيين وشعراء أو ذوي أجسام قوية وقدرات عالية فوق مستوى البشر العاديين... وهكذا يكون بالوسع تحويل ذلك المجتمع الى مجموعات من العباقرة الافذاذ كل مجموعة تفوق أي انسان آخر في ميدان معين. أي أن جميع أفراد المجتمع يكونون أفذاذا عباقرة على مستوى أعلى من مستوى الانسان...

وقد هال بعض العلماء الباحثين في هذا الميدان المضاعفات التي يمكن أن تنشأ عن انتاج ما فوق الانسان (السوبرمان) (Superman) كفرد وكمجتمع. ولعل أول هذ المضاعفات أن هذا النوع من المجتمعات لن يكون بالوسع انتاجه الا من قبل بعض المجتمعات المتقدمة علميا وتكنولوجيا، وأن هذا يعني أن هذه المجتمعات ستفوق غيرها بمراحل عديدة، وهذا سيؤدي بالطبيعة الى سيطرة هذه المجتمعات سيطرة لا فكاك منها على جميع المجتمعات الاخرى. وبالطبع سيستخدم المتفوقون العاديين في أعمال ثانوية ومتدنية المستوى - لان ذلك فقط سيكون في مقدورهم - وسيحتفظون لانفسهم بالاعمال الهامة والتي تحتاج الى مقدرة خاصة... وعندها سينقسم العالم الى طبقتين (أو أكثر): طبقة السادة وطبقة أو طبقات العبيد.

وليس غريبا أن نتوقع، من معرفتنا بالطبيعة الانسانية سواء أكانت ذات قدرات فوق المعتاد أم لا، لأن الناس في هذ المجتمعات فوق العادية لن يترفعوا عن استغلال من هم دونهم قدرات وامكانات استغلالا بشعا قد يكون شبيها باستغلال الانسان قديما للحيوان المدجن.

ثم ماذا لو تمكن الاغنياء فقط في أي مجتمع من الافادة من هذا الكشف نتيجة كونه غالي الثمن، وما الذي يحدث عندها في ذلك المجتمع؟ هذه وغيرها أسئلة تثير الاجابة عليها الخوف والرهبة.

وبلغت الخشية من هذا الوضع ببعض العلماء العاملين في هذه الابحاث أن أعلنوا على الملأ أنهم قرروا وقف أبحاثهم في هذا السبيل وناشدوا زملاءهم أن يحذوا حذوهم. ولعل في هذا الاعلان دلالة واضحة على ضخامة المشكلة وعظم خطرها. كما يبدو من خلاله ثقة هؤلاء العلماء بامكان التوصل الى نتائج ايجابية في ميدان الابحاث هذه في المستقبل المنظور. غير أن اعلان هؤلاء العلماء توقفهم عن أبحاثهم لا يحل المشكلة، اذ أن ذلك لا يعني أن العلماء العاملين في هذا الميدان في كل مكان سيتوقفون عن أبحاثهم، وأغلب الظن أنهم لن يتوقفوا أو لعل معظمهم لن يتوقف. فالبحث بحد ذاته مغر، والعلم لا يعرف التوقف عن متابعة البحث، كما أن بعض الدول لن تسمح لعلمائها بالتوقف عن الاستمرار في هذا البحث ولديها من الوسائل ما تضمن به ذلك. وفوق كل هذا عودنا العلم والعلماء أن نتوقع تحقق ما يبدو بعيد التحقيق في فترة غير بعيدة.

ويحق لن أن نتساءل: ماذا لو تم هذا، وأصبح بالوسع اعطاء عقاقير معينة للحوامل وأثر كل منه في انجاب طفل فذ عبقري في ميدان ما؟ ان المرء اذا فكر في هذا التساؤل خامره احساس بنشوة ممزوجة برهبة شديدة. فالنشوة تتأتى من هذا الفتح العلمي الكبير، أما الرهبة فمن اساءة الانسان استخدام هذا الكشف مما سيسبب بالتأكيد مآسي وآلاما لا ترقى اليها كل الآلام التي سببها الظلم والاستعباد في تاريخ الانسانية.

وماذا بعد؟ وكيف يمكن أن تحل هذه المشكلة قبل أن تصبح واقعا حقيقيا يتحدى انسانية الانسان؟ مما لا شك فيه أن فكرة توقف العلماء عن الاستمرار في البحث ليست مقبولة لانها غير قابلة للتطبيق. ولو افترضنا جدلا أننا استطعنا اقناع أو منع العلماء في هذا العصر من الاستمرار في أبحاثهم هذه فمن يضمن علماء العقد القادم أو الذي يليه أو القرن القادم.

ومما لاشك فيه أن تعميم نتاج هذه الابحاث على الناس عملية لا يمكن تصورها. ذلك أنه تنجم صعوبات هائلة منها التساؤل الهام الذي يخطر بالبال وهو: من الذي سينصب نفسه مهندسا يوزع القدرات والامكانات بين

الناس؟ وكيف سيوزع هذه القدرات؟ وما هي المعايير التي سيعتمدها؟ وما الضمان في أنه لن يختص أناسا بغيض من هذه الامكانات دون آخرين؟ وحتى لو لم يكن الامر منوطا بفرد بل بعدد من الناس، فكيف يمكن أن يطمئن الناس الى عدالتهم في العمل والتوزيع، أو توخيهم المصلحة العامة؟ ثم ما هي المصلحة العامة؟ أومن الذي يقررها.

ان كل هذا يبدو خطأ فاحشا من وجهة دينية وخلقية، وعملا لا يمكن الدفاع عنه من وجهة انسانية. ويبقى أنه ليس هناك، فيما نرى، حل لهذه المعضلة وهذا التحدي الخطير.

٩ مشكلة التغير وإنفجار المعلومات

كثيرا ما نسمع الناس اذا ما جوبهوا بمشكلات الحاضر يذكرون بحنين وأسى حسنات الايام الخوالي، ويؤكدون بأسف أنه لم يكن الناس يعرفون أيا من هذه المشكلات في الماضي، وكانوا خليي البال يعيشون بهدوء وتعاون. وكانت الحياة تسير برتابة يمكن التنبؤ بها بدقة... ذلك أن التغير فيها قليل. واذا ما حدث تغير أحدث هزة في حياة المجتمع وظل الناس يذكرونه طويلا، بل ويؤرخون به.

كما أن مبلغ معرفة الناس ومعلوماتهم عن البيئة وأنفسهم كانت قليلة جدا نسبيا. وقد عوضوا عن هذا النقص، حيثما اضطروا، بارجاع علة ما يجهلون الى قوى خفية لها قدرات فوق قدرات البشر. وقد اكتفى الانسان لفترة طويلة جدا من حياته على هذه الارض بهذا القدر المحدود من معرفة البيئة الظاهرية غير متصور أن العالم الظاهري الذي بدا له انما هو جزء من عوالم عديدة أخرى لم يكن يخطر بباله وجودها. وهكذا عندما تمكن ليفنهوك من صنع المجهر (الميكروسكوب) الاول ونظر فرأى

عالما لم يكن مرئيا من قبل يعج بالحركة والحياة تملكته الدهشة... وكذلك عندما نظر الانسان الى السماء بالمنظار الفلكي (التلسكوب)... كما أن حركة الاستكشاف الجغرافي كانت نتيجة مباشرة لمحاولات الانسان تحدي المجهول والبحث عن الدهشة. والحقيقة أن الانسان هو المخلوق الوحيد الذي يتملكه الشعور بالدهشة عندما يعقل أمرا جديدا أو يستشعر تغيرا في البيئة لم يعهده من قبل.

وقد عاش الانسان طويلا بشكل متوائم مع معدل سرعة حدوث التغيرات في البيئة ومع عدد المعلومات المعروفة وحجمها... الى أن جاء القرن العشرون... فجابه الانسان حالة جديدة لم يعهدها من قبل... ولم يستطع أن يتواءم معها بسرعة كافية مما جعله يواجه مشكلة تتزاد حدة يوما بعد يوم.

ويقول كورت ماريك: «اننا في القرن العشرين نشهد نهاية عصر في تاريخ الانسانية امتد خمسة آلاف سنة... اننا نفتح عيوننا، تماما كما فتح انسان ما قبل التاريخ عينيه من قبل، على عالم جديد تماما».

ويقول روبرت أوبنهايمر الفيزيائي المشهور: «ان عالمنا اليوم عالم جديد. وقد تغيرت فيه مفاهيم عدة مثل وحدة المعرفة وطبيعة المجتمعات الانسانية ونظام المجتمع ونظم الافكار، لا بل ان مفهوم المجتمع نفسه والثقافة قد أصابهما التغيير ولن يعود أي من هذه المفاهيم الى ما كان عليه في الماضي. فالجديد جديد لا لأنه لم يكن موجودا في الماضي بل لان تغييرا في النوعية قد طرأ عليه. والشيء الجديد اليوم هو كثرة الجدة وتغيير معيار التغير نفسه ومداه لدرجة أن العالم من حولنا يتغير بينما نسير مشوارا. والحصيلة أنه لا تمر تغيرات صغيرة في عمر الانسان المعاصر ولا يضطر المرء لمجرد تعديل ما تعلمه في صغره... بل ان ما يحدث لا يمكن وصفه الا بأنه انقلاب ضخم».

ويقول الفن توفلر: «اننا نعيش اليوم في النصف الثاني من تاريخ الانسانية. ولا يوازي ذلك الا انتقال الانسان من حالة البربرية الى حالة الحضارة. وفي هذا القرن نجد أن الحالة العامة للحياة وسرعة التحرك فيها وحتى حس الانسان بهذه الحياة من زاوية مفاهميه عن الزمن والجمال والفضاء والعلاقات الاجتماعية تتعرض لهزات عنيفة.

«ان ما نشهده في هذه الايام ليس مجرد تقدم عادي حتى بمقاييس المجتمعات الصناعية التي عرفناها في القرن الماضي... وهو بالتأكيد ليس ثورة صناعية ثانية... ان ما نشهده من انفصال عنيف عن الاستمرار التاريخي يعطي عصرنا أهمية لم تكن لأي عصر من العصور السابقة».

وبوسع المرء أن يأخذ فكرة عن حجم التغير ومداه من أن نصف كمية الطاقة التي استهلكها الانسان في تاريخه الطويل قد استهلك في القرن العشرين... ويقول كينيث بولدينج: «لقد استخرج الانسان من المناجم بعد سنة 1910 كمية من المعادن تعادل الكمية التي استخرجها منها قبل هذه السنة والى بدء خليقته».

ويقول ماكس ويز: «في مدى العقد أو العقدين القادمين سيكون مفهوما لدى الناس بعامة أن التحدي الرئيسي للمجتمع في الولايات المتحدة الامريكية لن يكون مركزا حول انتاج السلع، ولكن حول الصعوبات التي تواجه هذا المجتمع والفرص المتاحة له في عالم يتسارع فيه التغير وتتكاثر فيه مجالات الاختيار.

«ولقد كان التغير دوما جزءا من بيئة الانسان، ولكن الذي تغير الان هو معدل هذا التغير، ومن المتوقع أن يكون مستقبلا أسرع وأسرع مؤثرا بمعدله هذا تأثيرا مضاعفا في كل منحى من مناحي الحياة، بما في ذلك القيم الشخصية، والمستوى الخلقي والمعتقدات رغم بعد كل هذه عن التكنولوجيا. وسيكون التغير متسارعا بشكل يجعل محاولة تفهمه، العمل الاساسي في ذلك المجتمع وشغله الشاغل».

ويرى ماكس ويز أن تحول سرعة معدل التغير من تغير سريع الى تغير مذهل لم يحدث فجأة بل استغرق سنوات طوالا، غير أنه يعتقد أن بالوسع اعتبار عام 1950 نقطة تحول وتاريخا اعتباريا لبدء هذا التحول. ويشير الى أنه من عام 1950 حتى اليوم يعيش فعلا ربع مجموع البشر الذين عاشوا منذ أن خلق الله الانسان قبل مليون سنة. ويعيش 90٪ من مجموع العلماء الذين أنتجتهم الانسانية.

ومنذ ذلك التاريخ وعدد المعلومات العلمية والتكنولوجية يتضاعف كل عشر سنوات، وهناك أكثر من مائة ألف مجلة علمية وتكنولوجية متخصصة تنشر بحوالي 60 لغة. ويتضاعف عدد هذه المجلات كل خمس عشرة سنة.

وبالرغم من ضيق التخصص صار من الصعب ان لم يكن من المستحيل على العالم أو التكنولوجي أن يتابع قراءة كل ما يستجد في ميدان تخصصه الضيق. ومثل هذا الامر يمثل مشكلة حقيقية... فالعالم أو التكنولوجي في ميدان البحث العلمي لا يسعه أن لا يكون مطلعا على أحدث ما توصل اليه زملاؤه العاملين في ميدانه.

ومن الواضح أن لهذه الحالة انعكاسا على المجتمع برمته... ذلك أن كل كشف علمي وكل جديد في هذه المجلات العلمية له أثر وانعكاس على المجتمع وحياة الانسان. وكانت الفترة التي تمضي، فيما مضى، بين نشر الكشف العلمي على الملأ وقيام التكنولوجيا بتطبيقه عمليا بحيث يحدث أثره على المجتمع، طويلة نسبيا... فكثيرا ما بقيت كشوف علمية مجرد معلومات نظرية في الكتب وتجارب مخبرية بين العلماء مدة طويلة من الزمن تقارب مائة عام. أما اليوم فقد قصرت المدة التي تنقضي بين حدوث الكشف العلمي وتنفيذه تطبيقيا تكنولوجيا الى حد كبير. وفي اكتشاف الليزر خير مثل على ذلك. اذ اكتشف الليزر علميا عام 1957 وبدأت التكنولوجيا تستغله تكنولوجيا في أجهزة حربية وسلمية مختلفة في مدى ثلاث سنوات فقط من ذلك التاريخ.

ويزيد المشكلة حدة عدم انتباه الانسان اليها... فالناس، رغم كل هذه التغيرات التي يرونها بأم أعينهم كل يوم، مازالوا ينظرون الى المجتمع على أنه ثابت جامد ويتصرفون على هذا الاساس. لا بل أن بعض الناس، وحتى المثقفين منهم، يفوتهم وعي هذا التغير وسرعته ومداه، ونراهم يتمسكون بواقعهم وفي حالات كثيرة ينكفئون الى الماضي... والخطورة التي تنجم عن مثل هذا الموقف هي أنهم يسهمون في جعل مجتمعاتهم تعيش هذا العصر دون أن تعاصره، ويعرضونها الى صدمات التغير وصدمات المستقبل وما ينتج عن ذلك من مآس وويلات.

ويقول هـ.ج.ويلز في كتابه «اكتشاف المستقبل»: «أن الماضي ليس الا بداية البداية. وكل ما تم ليس سوى الفجر الكاذب الذي يسبق الفجر...».

كما يقول جوتكند: «لا ينتج التغير - أي تغير - أثرا يؤدي الى نتيجة جامدة أو دائمة في المجتمع. ولذا فان بيئتنا في أية لحظة من تاريخ الانسانية انما هي نتيجة ثورة دائمة ونتاج عملية تغير مستمر. وتكيف

الانسان ببيئته ليس مجرد خطوات تطور غير مترابطة ولا قفزات متقطعة... ولكنه تفاعل عضوي مع سلسلة متكاملة من الاحداث. وهكذا لا توجد ديمومة الا في استمرار التغير غير المتقطع وفي العلاقات الديناميكية بين جميع مناحي النشاط الانساني».

ولا بد من أن نعي أن العلم والتكنولوجيا هما المسئولان بالدرجة الاولى عن كل هذا التغيير وسرعته ومداه. فلولا العلم والتكنولوجيا لما كانت الحضارة العلمية الحديثة، ولما واجهت الانسان الحديث مشكلة اضطراره للتكيف المتلاحق بسرعة مع سلسلة لا تنتهي من التغيرات والمتغيرا، واضطراره لوعي فيض متفجر من المعلومات يتدفق عليه كل يوم.

ولكن العلم والتكنولوجيا، بالمقابل، قدما للانسان عونا كبيرا في مجال متابعة انفجار المعلومات، وذلك بحفظ هذه المعلومات واسترجاعها بسرعة هائلة عن طريق العقول الحاسبة الالكترونية (الكمبيوتر). وفي الحقيقة يصعب على المرء أن يتصور كيف يمكن أن يتحقق كثير من الانجازات الضخمة الحديثة في ميادين العلم والتكنولوجيا بدون العقول الحاسبة الالكترونية. وقد أصبح من المعروف أن عقلا حاسبا الكترونيا يستطيع أن ينجز في ساعة من الزمن ما لا يستطيع عدد من العلماء انجازه في سنة عمل متواصل. كما مكنت العقول الحاسبة الالكترونية العلماء وغيرهم من متابعة مواضيع بعينها في ميدان بحثهم أو اختصاصهم دون حاجة لقراءة مئات الصفحات من المقالات والابحاث المنشورة في دوريات ومجلات علمية. فكل المعلومات التي تنشر تختزن في عقول حاسبة الكترونية خاصة. وعندما يريد باحث أن يطلع على أحدث ما نشر في موضوع اهتمامه أو في زاوية محددة منه فان بوسعه أن يطلب من العقل الحاسب الالكتروني ذلك فيقدم له الحاسب ما يشاء في فترة وجيزة، وبذا لا يوفر الباحث الوقت فقط، بل يكون بمقدوره أيضا أن يركز جهده وتفكيره على الموضوع والفكرة بصورة أفضل.

ومما يزيد في تعقيد المشكلة المعقد أصلا، ويجعل الانسان أعجز من أن يواجه كل هذه المتغيرات في حياته وبيئته، أو أن يجاري سرعة حدوثها، أن في الانسان دافعا قويا يدفعه الى مقاومة التغيير. ويبدو أن الانسان يستمرئ الحياة الرتيبة الهادئة التي لا مفاجآت فيها، رغم أن مثل هذه الحياة تبدو

مملة مثيرة للضجر... ولعل خوفه من المجهول الذي يثيره التغيير وخوفه من أن يضطره هذا للقيام بجهد ايجابي لمواجهة التغيير والتكيف معه، يجعله يفضل أن تستمر الامور على ما عهدها وأن يعيش حياته بهدوء ودون تقلبات. وقد يكون ذلك سببا في أن الناس في المجتمع ينظرون شذرا الى ما لا يتفق والعرف السائد - ويعنون ما كان سائدا ومتبعا قبل حدوث التغيير.

ولكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن... فالتغيير حاصل ومستمر ومتسارع رضي الانسان أم أبى وأحب ذلك أم كرهه... وكلما وعى الانسان هذه الحقيقة وتجاوب معها سهل عليه التكيف مع التغيرات المتلاحقة والعيش بتوافق معها. وعلى العكس من ذلك كلما قاوم التغيير ورفضه (كما يحدث أحيانا) زادت الهوة بينه وبين العصر الذي يعيش فيه وقلت قدرته على مجابهته، وضعفت ردود فعله تجاه الاحداث المستجدة، فلا يعتم أن يجد نفسه وقد تجاوزه العصر أو صدمته سرعة التغير فأفقدته اتزانه الفكري والنفسي والحضاري.

كما يزيد من حدة المشكلة أن العلم والتكنولوجيا يتقدمان ويتطوران بسرعة مذهلة بينما الادب والشعر والموسيقى والفنون وعلم الاجتماع والسياسة والاقتصاد أو ما يعرف بالدراسات الانسانية مازالت تسير في تقدمهخا وتطورها سير السلحفاة نسبيا، مما خلق في المجتمعات المعاصرة حالة من التضاد بين ثقافة العلم والتكنولوجيا من جهة وثقافة الدراسات الانسانية من جهة أخرى - وهي الحالة التي أسماها «سي.بي.سنو» اسما ذاع وانتشر وهو «الثقافتان». فالانسان الاجتماعي لا يستطيع أن يحيا بالعلم وحده رغم أهمية العلم وأثره الواضح الشديد في حياته وبيئته وكل ما يتصل به... كما أنه لا يمكن أن يحيا بالادب أو الموسيقى أو النحت والرسم الى آخر الانسانيات... فلا بد في أي مجتمع من مزيج من هاتين الثقافتين، على أن يكون للعلم والتكنولوجيا النصيب الاوفر والصفة الغالبة. ويجب أن يكون المزيج متوافقا بحيث تخدم كل من الثقافتين الهدف المرجو. وعلى الثقافة الانسانية أن تلتزم التزاما باعداد المجتمع في المناحي التي تهتم بها أعدادا متسقا مع اتجاهات العلم والتكنولوجيا ومع سرعة التغيرات التي تحدثها تأثيرات الثقافة العلمية التكنولوجية. لا بل يبدو، رغم الاتجاه

الى التخصص والتخصص الضيق، أن من الحيوي أن تمتزج الثقافتان في الانسان الواحد عالما كان أم أديبا. وقد ذهبت مثلا في الاوساط المثقفة المقولة بأن الأديب الذي لا يعرف القانون الثاني من قوانين الديناميكية الحرارية ليس أهلاً لأن يسمى أديبا.

ومن هنا كانت دعوة سنو لهذا المزج في مناهج الدراسة حتى الجامعة، وهي الدعوة التي لاقت قبولا في العالم المتقدم وبدأت المدارس والجامعات تطبيقها فعلا، فصار على الطالب الذي يتجه لدراسة العلوم والهندسة والطب أن يأخذ مقررات معينة من الدراسات الانسانية، وكذلك صار لزاما على الطالب المتخصص في أية دراسة انسانية أن يدرس مقررات معينة في العلوم البحتة والتطبيقية.

وفي اعتقادنا أن هذه الدراسات والمقررات يجب أن لا تكون مجرد مقررات يمر بها المرء مرور الكرام، بل يجب أن تحور وتطور بحيث تهدف الى خلق الوعي الثقافي الانساني في العالم التكنولوجي وخلق الوعي الثقافي العلمي وأساليب التفكير والبحث العلمي وأثر كل ذلك على المجتمع في الأديب الفنان والفيلسوف المفكر.

ولا نعتقد أن الامتزاج، وقد بدأ في بعض المجتمعات المتقدمة، قد وصل الى مداه المرغوب، كما لا نعتقد أن ما حصل من امتزاج حتى الان يخدم هدف تناسق الجهود ضمن المجتمع لاعداده لتقبل سرعة التغيير والتكيف بها. وهو، كما ذكرنا، أمر حيوي لتفادي صدمة المستقبل المتمثلة في عدم مسايرة ركب التقدم وعدم القدرة على معاصرة الاحداث المتلاحقة.

ونعتقد أن واحدا من جملة أسباب هذا التمزق الذي نراه في المجتمعات بعامة والمتقدمة منها بخاصة يرجع الى ضعف هذا الامتزاج، وضعف أثر «الانسانيات» وعدم تمكنها من اللحاق بركب العلم والتكنولوجيا المنطلق بتسارع متزايد على الدوام. وما نقرأ ونسمع عن تحميل العلم والتكنولوجيا وزر هذا التمزق والانحلال لا يعدو كونه تبرير العاجز واسقاط المصاب بعقدة النقص.

وحتى أولئك المفكرون الذين يهاجمون ما يسمونه ببربرية الآلة وسيطرتها على الانسان في العصر الحاضر ويتهمون الحضارة العلمية الحديثة بالفشل، يعترفون بأن المجتمعات اليوم تعيش عيشة أفضل من المجتمعات في الماضي

رغم كل شيء. وقد أوضحنا رأينا في هجومهم هذا في مكان سابق.

ويقول دون فايون: «اذا وجدنا أن حضارتنا الحديثة قد فشلت في بعض مناحيها فان ذلك لا يرجع الى أنها ليست أفضل بكثير من حالة الماضي وانما يرجع الى أنها أقل كثيرا من المستقبل».

أما في الدول المتخلفة فالمشكلة أشد تعقيدا ذلك أن عليها قبل كل شيء أن تتيقن أن التقوقع والانعزال عن التيار غير ممكن، وأن الانكفاء الى الماضي غير مجد... فالعالم اليوم واحد... وقد جعلت وسائط الانتقال المتطورة ووسائل الاتصال الحديثة كل العالم وكأنه مدينة واحدة بمقاييس الماضي.. ثم ان عليها أن تتيقن أن أثر العلم والتكنولوجيا لا ينحصر في المجتمع الذي يتبناها أو يستعمل نتاجهما بل يتعداه الى كل المجتمعات الانسانية مهما بعدت الشقة بينهما وقل الاتصال.

واذا كان المفكرون في الدول المتقدمة يشكون من أن الحضارة الحديثة فشلت في أن تكون على مستوى المستقبل، فما هو وضع الدول المتخلفة؟ وماذا يمكن أن يقول المفكرون فيها؟

خاتمه

نود أولا أن نعتذر لاننا، فيما عرضنا من مشكلات تواجه الانسان المعاصر، لم نتطرق اليها كلها، فالمجال محدود والمشكلات عديدة. ثم ان الهدف من هذا الكتاب ليس مجرد تعداد هذه المشكلات والتحديات، وانما اعطاء بعض النماذج لعل في ذلك ما يفتح عيوننا ويحفزنا للعمل الجاد الايجابي. فنحن لا نريد أن تكون كما يقول دون فابون: «ما زلنا نتعامى عن حقيقة واضحة وهي أن شيئا ممتازا وغير عادي يحدث لنا، اننا نغمض أعيننا عامدين ثم نتباكى على عمانا. وما لا نتوقعه في المستقبل المنظور هو أن نضطر لفتحها اضطرارا، ومع ذلك فبوسعنا الان، لو فتحنا عيوننا، أن نرى الامور بوضوح معقول».

والغريب أن هذا جزء من مأساة عصرنا وتناقض الانسان... فنحن، كما يتضح مما ذهبنا اليه، قادرون علميا على حل كثير من هذه المشكلات التي تواجهنا ونملك القدرة على ابتكار حلول للمشكلات التي لم نجد لها حلا بعد، ولكننا نقف جامدين لا نكاد نعمل شيئا يذكر بالقياس الى الامكانات التي لدينا... ولعلنا أمام هذه المشكلات أشبه بالاسرة التي حاصرتها الذئاب الجائعة فخافت والتجأت الى كهف، وكلما ازداد ضغط الذئاب القى الاب اليها بأحد أبنائه ليلهيها عن متابعة الهجوم... دون أن يعمل شيئا سوى البكاء والعويل... وأخشى ما

نخشاه أن يستتمر الاب في العمل الى أن لا يبقى لديه أبناء وتظل المشكلة كما كانت في بدايتها ... ويشبه دون فابون الوضع بأنه أشبه بالحمار الذي وضعت أمامه كومتان من التبن فاحتار بأيهما يبدأ وظل على حيرته الى أن مات جوعا.

ويرجع بعض سبب هذه المعضلة الى أننا لا نقدر الفكر حق قدره وندفع لمن يعمل أكثر مما ندفع لمن يفكر... لا بل ونحترم الاول أكثر من الثاني كثيرا ... ونظرة واحدة الى الرياضيين والممثلين بالمقارنة مع المفكرين والعلماء تعطينا فكرة واضحة عن ذلك... وتحضرنا بهذه المناسبة الحادثة التالية:

في عام 1958 استضافت احدى الدول العربية مؤتمرا للادباء العرب من أصقاعهم كافة واستدعت فرقة مسرحية للترفيه عنهم كبادرة تكريم ثم دعت الفريقين لمشاهدة حفل رياضي كبير تكريما للأدباء... وبعد انتهاء الحفل زحف الجمهور نحو المنصة الرئيسية التي يحتلها الادباء وخلفهم الممثلون... فقال أحد الأدباء وقد هزه الشعور بالغبطة... بأن هذا دليل وعي لم يلمسه في أي مكان آخر وأنه يعتتبره ذروة التكريم للأدب والأدباء... ولم يكمل كلامه حتى وصل الجمهور الزاحف وتخطى الادباء الى الممثلين وحملوهم على الاكتاف هاتفين محيين... ولم يلتفت أي منهم لأي أديب من الأدباء الافذاذ.

ان علينا أن نتجاوز كل هذا وكل تناقضات الانسان وغباء تصرفاته وأن نعمل ايجابيا لحل هذه المشكلات ومجابهة تحديات المستقبل فالخطر أكبر من أن يتصور أو يوازن بجهد بالغا ما بلغ. والله المستعان.

المصادر وقراءات اضافية

1. How will we feed the Hungry Billions? "Food for Tommorrow's World" Nigel Hey and the editors of science books associates Julian Messner - New Yorl.

مترجم الى العربية - ترجمة د. فتحي محمد عبد التواب

2. The Earth can Feed us - Hugo Osvald - Tranlated by Nesfield - Cookson.
3. Food and Nutrition - Willian H. Sebrell Jr., James J. Haggerty and the Editors of Life.
4. Our World Today - New Caxton Library Service.

5- مجلة عالم الفكر - المجلد السابع - العدد الثالث 1976.

6. The Fight for Food - J. Gordon Cook.
7. Human Populations - David Hay.
8. The Biotic World and Man - Lorus J. Milne & Margery Milne.
9. The Romance of Water - Herbert Wendt.
10. Futures - Volume 8 No. 3, June 1976.
11. Time - August 23, 1976.
12. The Science Century - Mangus Pyke.
13. Europe since Napoleon - David Thomson.
14. Water Treatment - Prepared for the Department of Trade& Industry by the Central Office of Information, London 1971.
15. Two Cultures - C.P. Snow.
16. The Evolution of Man and Society - C.D. Darlington.
17. Civilization in the West - Crane Brinton, John B. Christopher, Robert Lee Wolff.
18. Dynamics of Change - Don Fabun.
19. Earth Resources - Forum Series - Edited by Charles F. Park, Jr.

20. The World of the Child - Edited by Toby Talbot.

21- المدينة: الدكتور سابا شبر.

22. Future Facts - Stephen Rosen.

23. The Futurist - Vol. x No. 5 Lester R. Brown, Patricia L. Mc Grath and Bruce Stokes.

24. Brief on the Economics and Psychology of Abundance - Walter A. Weisskopp.

25. The sources of Free Time - Fred Cottrell. (essay).

المؤلف في سطور

زهير محمود الكرمي

* من مواليد عام 1922

* درس في الجامعة الاميركية في بيروت والكلية الامبراطورية للعلم والتكنولوجيا في لندن.

* عمل بعد تخرجه في التربية والتعليم وتدرج فيها حتى تسلم منصب الموجه العام للعلوم.

* استقال من عمله في التربية ليتولى منصب المدير العام لشركة أوكسجين الكويت ومؤسسة الغازات الصناعية الكويتية - وهما شركتان تكنولوجيتان.

* أشرف على تطوير مناهج العلوم أكثر من مرة.

* ألف مع آخرين أكثر من 55 كتابا علميا لمدارس التعليم العام ومعاهد المعلمين. وكتب العديد من المقالات العلمية. كما ترجم لليونسكو كتاب «المرجع في تعليم الجغرافيا».

* أنشأ المتحف العلمي في الكويت. ويعد ويقدم من خمس عشرة سنة برنامج العلم والحياة التلفزيوني الذي يبث في أكثر من قطر عربي.

* مقرر اللجنة العلمية في فريق المستقبليين وله ثلاثة أبحاث منشورة في هذا المجال هي: «معالم صورة العالم في القرن الحادي والعشرين» و «الكويت والماء في القرن الحادي والعشرين» و «الكويت والصناعة في القرن الحادي والعشرين».

الكتاب القادم

الشباب العربي

تأليف: د. عزت حجاري